عبقرية المسيح

عباس محمود العقاد

دار نهضة مصر للطبع والنشر
الفجالة - القاهرة

عبقرية المسيح

تأليف
عباس محمود العقاد

دار نهضة مصر للطبع والنشر
الفجالة — القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

٣٥ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ
فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ
يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا
يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ
وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ

« سورة النور »

* وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ
مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن
ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ

« سورة الأنعام »

هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ
تُسِيمُونَ ١٠ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ
وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ١١

« سورة النحل »

وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ١ وَطُورِ سِينِينَ ٢ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ٣

« سورة التين »

فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾

« سورة عبس »

هذه هي الشجرة المباركة فى التنزيل : شجرة الزيتون . شجرة البحر الخالد . شجرة الحوض الذى نبتت عليه حضارة الإنسان ودارت حوله ، ولا تزال تدور .

عالية تعلو خمس قامت وتزداد .

باقية تبقى خمسة قرون ، ثم لا تصير إلى نفاد .

كريمة تؤتى من ثمراتها ما تشتهيه الأنفس وتشتهى به طيب الطعام . سعيدة تؤتى من عصيرها النور والطب ومسوح الاهاب وجبائر العظام ، من خشبها صور المحاريب وأعواد المنابر ، ومن ورقها أكاليل الأبطال وتحيات البشائر ، وتتشابه بركتها على الأبطال الأقدمين فيتمسحون بطيبها طلبا لقوة النفس وقوة الجسد وهم يقبلون على الصراع ويتناضلون ، وتتشابه بركتها عليهم كرة أخرى فهم يعلنون السلم ، ويرفعون غصن الزيتون !

بوركت فى وحى المعابد والضمائر ، وبوركت فى رموز القرائح والخواطر . فلم يعرف الناس أمنية لا يرمزون لها بسماتها وأسمائها ، ولم يذكروا نعمة لا يذكرونها بنعمائها : رمزوا بها إلى الضياء ، ورمزوا بها إلى السلام ، ورمزوا بها إلى الخير والرخاء ، وتزودوا منها فى البادية والحاضرة ، وادخروها للدنيا والآخرة ، واتخذوها المصابيح فى محاريب الصلاة والتسبيح ، ورجعوا إليها باسم من أقدس الأسماء ، هو اسم « السيد المسيح » .

لأمر مانبتت فى فلسطين ، وانتشرت منها فى منابت العالمين ، وعلى نحو من هذا وهبت مسحتها للرسول الأمين ، فطافت رسالته حيث طافت ، من عليين إلى غايتها من البلاغ المبين .

ولو لم تكن « للزيتونة » إلا أن هذا الاسم المبارك مردود إلى مسحتها وبركتها ، لاستحقت به الخلد المصون ، خضراء على مدى السنين والقرون .

الباب الأول

المسيح في التاريخ

يدل علم المقارنة بين الأديان على شيوع الإيمان بالخلاص وظهور الرسول المخلص في زمن مقبل ، وظهر على عقائد القبائل الحمر في القارة الأمريكية أن القبائل التي تؤمن بهذه العقيدة غير قليلة في الأمريكتين ، وليس في هذا عجب . لأن الرجاء في الخير أصل من أصول الديانة ، والأمل في الصلاح مادة من مواد الحياة الإنسانية يبثها الخالق في ضمير خلقه ، ويفتح لهم بها سبيل الاجتهاد في طلب الكمال والخلاص من العيوب .

وقد يشتد هذا الأمل حين تشتد الحاجة إليه ، فكان المصريون الأوائل يترقبون « المخلص » المنقذ بعد زوال الدولة القديمة ، وروى برستيد عن الحكيم ابيور (Ipuwer) أن المخلص الموعود « يلقى بردا على اللهيب ويتكفل برعاية جميع الناس ويقضي يومه وهو يلم شمل قطعانه » [١] .

وقد كان البابليون يؤمنون بعودة « مردخ » إلى الأرض فترة بعد فترة لقمع الفتنة وتطهيرها من الفساد ، وكان المجوس يؤمنون بظهور رسول من إله النور كل الف سنة ينبعث في جسد إنسان ، وقيل انه هو زرادشت رسول المجوسية الأكبر الذي يرجعون إليه بتفصيل الاعتقاد في إله النور وإله الظلام ، وقد تخلفت هذه العقيدة إلى ما بعد اليهودية والمسيحية والإسلام وأشار إليها الجاحظ وهو يتكلم عن أستاذه إبراهيم بن سيار النظام حيث قال : « إن السلف زعموا أن كل ألف عام يظهر رجل لا نظير له ، فاذا صدق هذا الزعم كان النظام هذا الرجل للألف عام هذه » .

أما الإيمان بظهور رسول إلهي يسمى « المسيح » خاصة فلم يعرف بهذه الصيغة قبل كتب التوراة وتفسيراتها أو التعليقات عليها ، في التلمود والهجادا وما إليها .

ومرجع التسمية نفسها إلى الشعائر التي وردت في سفر التكوين وسفر الخروج وما يليهما من أسفار الأنبياء . فان المسح بالزيت المبارك شعيرة من شعائر التقديس والتكريم ، وأول ما ورد ذلك في الاصحاح الثامن والعشرين

---

(١) صفحة ٧٩ من كتاب « نور من الشرق القديم » لمؤلفه جاك فنيجان .

من سفر التكوين حيث روى عن يعقوب أنه « بكر فى الصباح وأخذ الحجر الذى وضعه تحت رأسه وأقامه عمودا وصب زيتا على رأسه ودعا ذلك المكان بيت إيل — أى بيت الله » .

وجاء فى الإصحاح الثلاثين من سفر الخروج إن « الرب كلم موسى قائلا : ... وأنت تأخذ أفخر الأطياب .. دهنا مقدسا للمسحة .. وتمسح به خيمة الاجتماع وتابوت الشهادة والمائدة وتقدسها فتكون قدس أقداس ، وكل ما مسها تكون مقدسا . وتمسح هارون وبنيه وتقدسهم .. » .

وكان الأحبار والأنبياء يسمون من أجل هذا مسحاء الله وتنهى التوراة عن المساس بهم كما جاء فى الإصحاح السادس عشر من سفر الأيام : « لا تمسوا مسحائى ولا تؤذوا أنبيائى » .

وكان مسح الملوك أول شعائر التتويج والمبايعة فكان شاءول وداود من هؤلاء المسحاء .

ثم أطلقت كلمة « المسيح » مجازا على كل مختار منذور ، فسمى كورش الفارسى « مسيحا » كما جاء فى الاصحاح الخامس والأربعين من سفر أشعيا ، لأن الله أخذ بيده لإهلاك أعداء الإسرائيليين وإقامة بناء الهيكل من جديد ، وسمى الشعب كله مسيحا كما جاء فى المزامير وكتاب النبى حبقوق ، ومنه « خرجت لخلاص شعبك : خلاص مسيحك » بمعنى الشعب المختار .

وتكررت فى كتب « الهجادا » أو كتب التعاليم الإشارة إلى الرسول المنتظر باسم المسيح ، فتارة يطلق هذا الاسم على يوسف وتارة على موسى عليهما السلام ، ولا يزال المؤمنون بالرسالة المسيحية من طوائف اليهود ينتظرون مسيحا فى صورة رسول هاد أو صورة شعب مبرور ، لأنهم لا يدينون برسالة عيسى ابن مريم عليهما السلام .

وقد كان الإيمان بانتظار المسيح على أشده بعد زوال مملكة دواد وهدم الهيكل الأول ، فردد الشعب الإسرائيلى وعود أنبيائه بعودة الملك إلى أمير

من ذرية داود نفسه تخضع له الملوك وتدين الأمم لسلطانه ، ثم ترقى الإيمان « بالمسيح » بمعنى الملك إلى الإيمان بالمسيح بمعنى المختار أو المنذور للهداية والصلاح ، وبلغ هذا التحول غايته فى بعض النبوءات ومنها نبوءة أشعيا التى امتازت بتكرار هذه الوعود ، فمن وصف القوة والبطش والصولة والصولجان . إلى وصف الدعة والتضحية والصبر على المكاره فى سبيل التحذير والتبشير ، وقد جاء فى الإصحاح الثالث والخمسين من صفات الرسول المنتظر أنه « محتقر ومخذول من الناس ورجل أوجاع وأحزان » .. وجاء فى الإصحاح التاسع من سفر زكريا أنه « عادل ومنصور وديع يركب على حمار ابن أتان » ... واتفقت أقوال كثيرة على أنه يأتى مسبوقا برائد يعلن مجيئه ، وهو النبى إيليا (إلياس) منبعثا من الأموات .

وقد كان هذا الارتقاء فى فهم الرسالة المسيحية يصاحب أطوار الشعب الإسرائيلى فى تاريخه المتعاقب ، فيقوى الرجاء فى المسيح الملك كلما ضعفت الدول المسيطرة على فلسطين وهان خطب الثورة عليها وتعاظم الأمل فى استقلال رعاياها ، ويعود الرجاء إلى « المسيح الهادى » كلما استحكم سلطان الغالبين وبدأ أن الأمل فى الخروج عليهم بقوة السلاح بعيد عسير ، وهكذا تراوح تفسير الرسالة المنتظرة بين رجعة الدولة وبعثة الهداية على حسب أطوار التاريخ ، فلما دخلت فلسطين فى حوزة الدولة الرومانية سنة خمس وستين قبل الميلاد وأخذ الأمل فى قيام الدولة يتضاءل ويخلفه الأمل المتتابع فى انتظار الرسول المخلص والبعثة الروحانية ، اقترن هذا التحول بظاهرتين تصطحبان حينا وتفترقان بل تتناقضان جملة أحيان . فعظم سلطان الهيكل وكهانه حين تحول السلطان القومى كله إليهم وأصبح هذا السلطان ملاذ المتطلعين إلى كل رئاسة قومية تصمد للدولة الأجنبية ، ومن الناحية الأخرى جنحت الضمائر المتعطشة إلى اليقظة الروحية جنوحا متمردا على القديم مؤمنا بانتظار البعث من غير جانب « الهيكل » وبقاياه وما جمد عليه مع الزمن من الموروثات والمأثورات .

فلما بلغ الكتاب أجله وحانت البعثة المرقوبة كان المعسكران متقابلين متحفزين على استعداد .

النبوة بين بنى اسرائيل

من تمام العلم باستعداد عصر الميلاد لدعوات النبوءة أن نلم بأحوال النبوءة فى الشعب الإسرائيلى منذ تكاثر عدده وتنوعت أعمال الرئاسة والتعليم بين قبائله وأسباطه . فان أحوال النبوءة فى ذلك الشعب لم تكن على الصورة التى تسبق إلى خواطرنا من النظر فى تواريخ كبار الأنبياء ، وتواريخ الفترات التى مضت بين عهودهم فى الأمم المتعددة .

فنحن اليوم نستهول دعوة النبوءة ونعلم عن يقين أن الذى يتقدم على ادعاء النبوءة فى عصرنا هذا يتقدم على خارقة مستغربة ويعرض نفسه لاتهام المتدينين قبل المنكرين والملحدين ، لأن اتباع الأديان يؤمنون بختام النبوءات أو يؤمنون بأن النبى الجديد ينتقص عقائدهم ويزعم لنفسه أن يعلمهم ما لم يعلموه من كتبهم وأقوال أنبيائهم ، أما المنكرون والملحدون فهم لا يقبلون دعوى النبوءة فى هذا العصر ولا فى غيره من العصور .

ونحن اليوم نعلم أن الفترة بين إبراهيم وموسى وبين موسى وعيسى وبين عيسى ومحمد صلوات الله عليهم قد طالت حتى حسبت بمئات السنين ، ففى اعتقادنا على الدوام أن ظهور الأنبياء حادث جلل لا يتكرر فى كل جيل ولا يراه الإنسان فى عمره مرتين .

ونحن اليوم نعلم من تواريخ كبار الأنبياء أنهم أقدموا على مصاعب تخيف المقدمين عليها وشقوا بدعوتهم طرقا لا يسهل تذليلها ، لأنهم حطموا آلهة وسفهوا أحلاما وغيروا العقائد التى درجت عليها الأمم عصورا بعد عصور ، وأقاموا عليها سلطان ذوى السلطان كما أقاموا عليها شرائع الحاكمين والمحكومين . كذلك صنع محمد وكذلك صنع موسى عليهما السلام ، فمن تولى الهداية إلى دعوة على هذا النحو فهو متعرض للعدوان والبغضاء مقتحم على الناس طريقا لا يقبلون اقتحامه من أحد ، ولا يرون أحدا يقتحمه عليهم إلا اعنتوه ، وأقاموا له العراقيل .

أما أحوال النبوءة فى بنى اسرائيل فينبغى أن نتصورها على غير هذا النحو لأنها تخالفه من جملة وجوه .

فأول ما هنالك من الفوارق أن الأنبياء فى بنى اسرائيل لم يكن وجودهم ندرة ، ولم يكن بينهم فترة ، أو لم يكن حتما لزاما أن تكون بينهم فترة ، فقد يوجد منهم فى العصر الواحد أربعمائة نبى كما جاء فى سفر الملوك الأول حيث جمع ملك إسرائيل « الأنبياء نحو أربعمائة رجل وسألهم أأذهب إلى رامة جلعاد للقتال ؟ » .

ويخبر ما ورد فى وصف مكان الأنبياء بين بنى إسرائيل قول النبى (محمد) صلوات الله عليه : « علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل » .

فقد كان عمل النبى فى شعب إسرائيل كعمل العالم الفقيه فى الأمة الإسلامية ، ولم يكن من المستغرب أن يسمع بها الخاصة أو العامة فى وقت من الأوقات ، ولم يكن قيامهم إنكارا لقيام الأنبياء من قبلهم ، بل هو تفسير للكتب والنذر وحض على اتباع السنن التى رسمها لهم من قبل إبراهيم وموسى ويعقوب وغيرهم من الأنبياء السابقين ، بل كانوا يعلمون من كتب العهد القديم أن الله وعد إسرائيل « أن يقيم أنبياء مثله ويجعل كلامه فى أفواههم (١٨ تثنية) وأن بعض هؤلاء الأنبياء قد يتحدث إلى الناس بكلام غير كلام الوحى فعليهم أن ينبذوه » .. « وإن قلت فى قلبك كيف تعرف الكلام الذى لم يتكلم به الرب فاعلم أن ما تكلم به النبى باسم الرب ولم يحدث ولم يصر فهذا كلام لم يتكلم به الرب .. فلا تخف منه » .

بل يجوز أحيانا أن تصدق الأقوال والعلامات ولا يجوز للشعب أن يستمع إلى وصايا الأنبياء إذا دعوه إلى عبادة رب غير إله إسرائيل .. فاذا قام فى وسطك نبى أو صاحب رؤيا وأعطاك آية أو أعجوبة . فلا تسمع لكلام ذلك النبى أو صاحب الرؤيا إن دعاك إلى عبادة آلهة أخرى لم تعرفها وتعبدها ولو صدقت الاعجوبة أو الآية ... (١٣ تثنية) .

ولم تكن النبوءة بإذن من ذوى السلطان أمراء كانوا أو كهانا أو

شيوخا مطاعين فى القبيلة ، بل يمتلىء يقين الإنسان بالإيحاء إليه فيمضى فى تبليغ وحيه ولا يقوى أحيانا على كف لسانه كما قال آرميا : « قد أقنعتنى يارب فاقتنعت وألححت على فغلبت . صرت أضحوكة وهزءا .. وكلمة الرب جللتنى بالعار والسخرية .. فقلت لا أذكره ولا أنطق باسمه بعد ، فكان فى قلبى كأنه نار محرقة محصورة فى عظامى .. فلم تكن لى طاقة بالسكوت » (٢٠ أرميا) .

وكثيرا ما كان النبى ينحى على زملائه فى عصره ويخالفهم فى تفسير النذر من ربه ، كما قال أرميا « من عند أنبياء أورشليم خرج نفاق إلى الأرض كلها .. فلا تسمعوا كلام الأنبياء الذين يتنبأون لكم فانهم يبطلون عملكم ويتكلمون برؤيا قلوبهم » .

أو كما قال ميخا للملك إسرائيل : « هو ذا الرب قد جعل الروح كذلك فى أفواه جميع أنبيائك هؤلاء » .

قال هذا فتصدى له صدقيا بن كنعانة « وضرب ميخا على الفك وقال له : من أين عبر روح الرب منى ليكلمك » .

وكان المعهود فى الأنبياء كما روت كتب التوراة أن يطلب أنبياء إسرائيل حالة الكشف كما يطلبها المتصوفون والنساك فيما علمناه من أخبارهم المتواترة ، فمنهم من يصوم ويتهجد ويمسك عن فضول العيش ويلتمس المنازه والأنهار كما قال دنيال : « لم آكل طعاما شهيا ولم يدخل فى فمى لحم ولا خمر ولم أدهن حتى تمت ثلاثة أسابيع ، وفى اليوم الرابع والعشرين من الشهر الأول إذ كنت إلى جانب النهر العظيم دجلة رفعت عينى ونظرت » .

بل منهم من كان يستعين بالسماع ليشعر بصفاء الروح ويستلهم الغيب كما جاء فى سفر صمويل الأول : « إنك تصادف زمرة من الأنبياء يهبطون من الأكمة أمامهم رباب ودف وناى وعود وهم يتنبأون فيحل عليك روح الرب » (٩ صمويل أول) .

أو كما جاء فى سفر الملوك الثانى : « فقال اليشع حى رب الجنود .. الآن فأتونى بعواد » . فلما ضرب العواد بالعود كانت عليه يد الرب » .

ولكن الأغلب مع هذا أنهم كانوا يرتادون الخلوات وينقطعون فى جوانب الأنهار « عند نهر خابور انفتحت فرأيت رؤى الله » (١ حزقيال) .

ولا يمتنع عندهم أن يلهم الله بالرؤيا الصالحة أو الدليل البين إنسانا من غير الأنبياء ومن غير شعب إسرائيل كما ألهم أبيمالك وبلعام ، ولكنهم يلهمون ليعرفوا بأنفسهم حق الأنبياء والمرسلين .

وكان الغالب على سامعى النبوءات أن يطلبوا آية يعلمون بها أن المتكلم ينطق بوحى من الله ، ولكن طلب الآية لم يكن عندهم دليلا على اليقين والإيمان ، وربما أذن للنبى أن يطلب الآية وعمن فى طلبها فيرى من الأدب ألا يجرب ربه بدليل هذه الآيات (٧ أشعيا) .

على أنهم كانوا يلجأون إلى الأنبياء يستشيرونهم قبل الحرب أو الرحلة أو الإقامة لعلمهم أنهم أقرب إلى الله وأدنى أن يطلعوا على الغيب المحجوب عن أنظار الدنيويين المنغمسين فى هموم الحياة ، ومن هؤلاء الأنبياء من كان يستمع الوحى صوتا عاليا ومن كان يحسه إلهاما أو هدية أو رؤيا صالحة ، وغالبا ما كانوا يقصرون رسالتهم على التذير بالعقاب كلما خرج الشعب عن الأقدمين وانحرف عن سواء العبادة كما تلقاها آباؤهم من الأنبياء السابقين ، فلم تكن النبوءة اقتحاما ولا بدعة مستغربة ، ولم يكن فيها خطر على النبى إلا حين يتصدى للملوك والأمراء فيأخذ عليهم مخالفة الشريعة أو مخالفة المأثور عن السلف ومن هؤلاء الملوك والأمراء من كان يعمد إلى التنكيل بالنبى فى هذه الحالة ليثبت للناس كذبه وأنه لم يأت من عند الله ، إذ كان موت النبى الكاذب احدى العلامات على بطلان دعواه .

ولعلنا نصف الحالة حق وصفها حين نقول إن القوم كانوا يبحثون عن الأنبياء ، ويترقبونهم ولا يعتبرون ظهورهم خارقة يستهولونها أو يستغربون تكرارها ، وأن الإنسان المتهيء للنبوءة كان يخشى أن يسكت عن

الدعوة متى جاشت ضمائره بحوافزها وألحت عليه أياما بعد أيام ، حتى يصبح السكوت فى حكم سريرته عصيانا لأمر الله ونكولا عن إرادته ، ومتى استقر فى سريرته أن طلب الآية تجربة لله وضعف فى الإيمان فأسلم الأمور عنده حين تجيش نفسه بروح الله أن ينذر ويبشر ، وعلى الله بعد ذلك أن يثبت نبوءته وأن يهديه ويهدى الناس إليه كما يشاء .

وفى عصر الميلاد . ذلك العصر الذى ترقبت فيه النفوس بشائر الدعوة الإلهية من كل جانب كما يترقب الراصدون كوكبا حان موعد طلوعه — لاجرم تتفتح الآذان لصوت المبشر الموعود ، ولا جرم كذلك أن يكون البرهان المطلوب منه على قدر الرجاء فى الخبر المنتظر ، وأن يمتحنه الناس فيعسروا غاية العسر فى امتحانه ، خوفا من سهولة الدعوى على الأدعياء ، وخوفا من بطلان الرجاء فى إبان اللهفة على الرجاء ، فهو رجاء عظيم يعلقه المرتجون على برهان عظيم .

الطوائف اليهودية
فى عصر الميلاد

كان العالم اليهودى فى العصر الذى ولد فيه السيد المسيح يشتمل على طوائف مختلفة ، لكل منها مذهبه فى انتظار المسيح المخلص الموعود .

والتعريف بهذه الطوائف ضرورى لتقرير مكان العقيدة الجديدة بين العقائد التى سبقتها فى بيئات بنى إسرائيل .

وضرورى من جهة أخرى لأنه — فيما نرى — أقوى دليل يرد به على الناقدين المحدثين الذين ظهروا منذ القرن الثامن عشر وجمحت بهم شهوة النقد والتشكيك حتى جازوا الشك فى النصوص والروايات إلى الشك فى وجود السيد المسيح نفسه ، كأنه فى زعمهم شخصية من شخصيات الأساطير . وتسقط دعوى هؤلاء الناقدين بمجرد الإحاطة بأصول المذاهب التى كانت معروفة فى عصر الميلاد ، لأن الدعوة المسيحية كانت تعديلا لكل مذهب من هذه المذاهب فى ناحية من نواحيه ، وكانت هذه التعديلات فى جملتها تثوب إلى وحدة متماسكة من القواعد والمثل العليا ، لابد لها من « شخصية » مستقلة عن هذه المذاهب جميعا ، قادرة على عرض شعائرها وعقائدها على محك واحد متناسق الفكر والإيمان .

ونكتفى من الطوائف الدينية التى كانت معروفة فى عصر الميلاد بخمس منها ، وهى طوائف الصدوقيين والفريسيين والآسين والغلاة والسامريين ، وكل طائفة من هذه الطوائف الخمس مهمة فى تاريخ العصر بمزية من المزايا التى تتوقف عليها قوة المذاهب الدينية .

فالصدوقيون هم فى دعواهم اتباع « صدوق » وأسرته الذين تواترت الروايات بأنهم كانوا يتولون الكهانة فى عهد داود وسليمان .

وكانت طائفتهم مهمة بمراكز أصحابها ، لأنهم على الجملة أنصار المحافظة والاستقرار وأصحاب الوجاهة والثراء .

وقد كانوا متشددين فى إنكار البدع والتفسيرات . متشبثين بالقديم يؤيدون سلطان الهيكل والكهان ويقبلون أقدم الكتب التى احتوتها التوراة وهى كتب موسى عليه السلام ، ويرفضون ما عداها ولا سيما المأثورات المنقولة بالسماع .

وتدعوهم المحافظة على النظام القائم إلى مسلك يناقض عقيدتهم فيما هو ظاهر من لوازمها . فقد كانوا أقرب اليهود إلى الأخذ بالحضارة اليونانية وعادات المعيشة فى البيئات الرومانية ، ومنهم من كان يدين ببعض المذاهب الفلسفية كمذهب أبيقور كما كان مفهوما فى ذلك العصر ، وقد كان الشائع عنه يومئذ أنه مذهب اللذة الحسية والمتعة بالترف والنعيم ، ولكنهم فى الواقع لا يناقضون سنتهم وسنة أمثالهم فى كل زمن ، فأنهم يحافظون على نظام المجتمع لأنهم أصحاب اليد الطولى عليه ، ولهذا يحبون متاعه ونعيمه ويوفقون بينهم وبين أصحاب السلطان السياسى وقد كانوا يومئذ من اليونان والرومان ، ويعلى لهم فى هذه النزعة أنهم يؤمنون بأن الكتب اليهودية الأولى لا تذكر البعث ولا اليوم الآخر ولا تعد الصالحين حياة بعد هذه الحياة ، خلافا للطوائف الأخرى التى تؤمن بالبعث والحساب .

وقد كانت الحملة على السيد المسيح بقيادة اثنين من كبار الكهنة الصدوقيين ، وهما « حنانيا » و « قيافا » .. ولم يكن فى ذلك عجب . لأن الصدوقيين جميعا يحافظون على سلطان الهيكل ويحافظون على النظام القائم أو لا يسترِيحون إلى الثورة والانقلاب .

وخلاصة الآداب الصدوقية أنهم حرفيون فى مسائل الدين متوسعون فى مسائل المعيشة ، وأنهم يعاشرون الأجانب ولا يعتزلونهم كسائر أبناء قومهم ، لأن أعمالهم ومراكزهم متصلة بذوى السلطان .

وتقابل الصدوقيين طائفة أخرى هى طائفة الفريسيين ، وهى أقوى من الطائفة الصدوقية بكثرة العدد وشيوع المبادىء والآراء ، وحسن السمعة بين سواد الشعب وعلية القوم الذين لا يخالطون الأجانب ، وإن لم يكن بين أفرادها كثيرون فى مرتبة الرؤساء والوجهاء .

واسم الفريسيين مأخوذ من كلمة عبرانية تقارب كلمة « الفرز » العربية فى لفظها ومعناها ، فهم المفروزون أو المتميزون ، وخصومهم يطلقون عليهم هذا الاسم تهكما وتحقيرا لاعتقادهم أنهم فرزوا أنفسهم عن السلف واعتزلوا طريق الجماعة الأولى . أما هم فقد كانوا يطلقون لقب الفريسيين أو المفروزين على أنفسهم ويردونه إلى خطاب الله لبنى إسرائيل جميعا كما يرونه فى الإصحاح العشرين من سفر اللاويين ، فهناك يخاطب الله الشعب قائلا : « وقد ميزتكم من الشعوب لتكونوا لى » .. فهم عند أنفسهم المميزون المفضلون .

لهذا كانت تلازمهم فى بعض الأحيان صفات الادعاء والتعالى التى تلازم كل طائفة تستأثر لنفسها بالمزية بين الطوائف الأخرى ، وكان بعضهم هدفا لحملات السيد المسيح تنديدا بما يظهرونه من الثقة والكبرياء .

على أنهم كانوا يقابلون بهذه الكبرياء كبرياء الوجاهة والثروة التى كانوا يستنكرونها على خصومهم الصدوقيين ، وكانوا يثورون على السلطان « الرسمى » حيث كان فى الهيكل أو فى المراجع الأجنبية ، فكانوا ينكرون على الكهان استبدادهم بالشعائر والمراسم ، وينكرون فى الوقت نفسه عادات الأجانب والمتشبهين بهم محاكاة للحكام والمتسلطين .

وقد كانت ثورتهم الأولى ثورة على البدع الأجنبية التى كانوا يرفضونها كل الرفض ولا يسامحون من يقبلها ، فلما أمر الملك « أنطيوخس » كاهن الهيكل أن يضحى فى مذبحه بالخنازير (سنة ١٦٨ قبل الميلاد) قاموا قيامة رجل واحد وعرضوا أنفسهم للموت بالمئات والألوف كراهة لهذه البدعة النجسة ، وحدث فى عهد الرومان أن الوالى « بترونيوس » عجب من عنادهم فى مقاومة الدولة الرومانية مع ضعفهم وقوتها ، فسأل زعماءهم . كيف يخطر لكم أن تحاربوا قيصر ولستم أكفاء لقوته ، فقالوا : نحن لا نحارب قيصر ولا نزعم أننا أكفاء لقوته ، ولكننا نموت على بكرة أبينا ولا نخالف الشريعة ، وكشفوا رقابهم مستعدين لإثبات ما يقولون .

ومن نقائضهم أن ثورتهم على استبداد الهيكل ورغبتهم فى تعميم الشعائر التى كانت محصورة فى المحاريب هى التى دعتهم إلى إقامة هذه الشعائر فى البيوت بغير حاجة إلى الكهان المرسومين ، ولكنهم لم يلبثوا أن جعلوا من كل بيت هيكل مقدس المراسم .. فكانوا على ميلهم إلى السماحة ومقاومة الاستبداد « الرسمى » أشد من المتشددين .

إلا أن الغالب عليهم حين يتعدون عن الأمور التى تتعرض لهذه النقائض أنهم أقرب إلى التصرف والقياس ، أو أقرب إلى تحكيم العقل فى مسائل النصوص والتقاليد ، فكان الصدوقيون مثلا يصرون على شريعة العين بالعين والسن بالسن ولا يقبلون الدية ، وكان الفريسيون على عكس ذلك يفضلون الدية والمسامحة على القصاص ، وكان الصدوقيون أقرب إلى المادية والقواعد العملية وكانوا هم أقرب إلى الروحانية والآداب النظرية أو آداب التأمل والتفكير ، وقد كان إنكار البعث والحياة الروحية أشد ما ينكرونه على خصومهم الصدوقيين ، ومن أجل هذا سبقوهم مراحل إلى انتظار الخلاص أو انتظار المسيح المخلص فى عالم الروح ، غير مقيد بشروط الصولة والصولجان .

وإذا وصف الصدوقيون على الإجمال بأنهم طبقة « الارستقراطيين » فالذين يستحقون وصف الديمقراطيين دون غيرهم من طوائف اليهود فى ذلك العصر هم الفريسيون .

وقد جاء عصر الميلاد وهم ينقسمون إلى فريقين : فريق منهما يتبع الحكيم « هلل » الذى قدم إلى فلسطين من بابل وهو الفريق السمح الودود فى معاملة الأجانب ، والفريق الآخر يتبع الحكيم « شماى » وهو أقرب إلى التحرج والتضييق ورد الراغبين فى دخول الدين من غير اليهود ، وكان شعار هلل الاعتدال بين الزهد والمتاع وكلمته المأثورة « إن الزيادة فى اللحم زيادة فى الدود » .. وشريعته فى المعاملة أن الشريعة كلها كلمة واحدة وهى ألا تصيب أحدا بما تكره أن تصاب به ، وكل ماعدا ذلك من الأحكام المنزلة فهو تفسير وتفصيل ، وأما الحكيم شماى فقد كان الاعتدال بين الزهد

والمتاع أكثر مما يطيق ، وروى أنه كان يحترف التجارة ليعيش من كسب عمله ، وان غيرته على القديم كانت أقوى من اقباله على التجديد والتصرف فى تأويل النصوص .

والقول الراجح بين المؤرخين أن معلمى السيد المسيح فى صباه كانوا من طائفة الفريسيين .

* * *

والطائفة الثالثة التى تقل عن هاتين الطائفتين فى العدد كثيرا وتساويها أو تزيد عليها فى القوة والأثر هى طائفة الآسين أو الآسينيين كما يكتبها رواة الأخبار عنها فى عصر الميلاد .

عددها كما قدره المؤرخ يوسفيوس والفيلسوف فيلون لا يزيد على أربعة آلاف يعيش أكثرهم فى جنوب فلسطين .

ومصدر قوتهم صرامة العقيدة وتنظيم الخطة ، وقد تكون دلالتهم أعظم من قوتهم ، لأنهم طائفة من صميم الأمة الإسرائيلية قد استقلت بشعائرها وعباداتها وآرائها وأسرارها وأوشكت أن تستقل عن « الهيكل » كله فى علاقتها بالدين والقومية ، ولولا أنها تعترف بتقريب القرابين فى الهيكل لما حسبت من طوائف اليهود ، ولكنها مع هذا تنكر ذبح الحيوان ولا تقرب القرابين من غير النبات .

واسم هذه الطائفة مختلف عليه ، ولكن الراجح من الأقوال المتعددة أن الاسم مأخوذ من كلمة « آسى » بمعنى الطبيب أو النطاسى فى اللغة الإرامية ، وهى تفيد هذا المعنى فى اللغة العربية التى تعد اللغة الآرامية أقرب اللغات السامية إليها ، ومن المعقول أن يتسمى أصحاب هذا المذهب بالآسين لأنهم كانوا يتعاطون طب الروح ويدعون ابراء المرضى بالصلوات والأوراد ، كما يدعون العلم بخصائص العقاقير .

وقد نشأت الطائفة على الأغلب بالإسكندرية فى القرن الثانى قبل الميلاد

واقتبست من المدارس الإسكندرية كثيرا من أنظمة العبادات السرية وبعض المذاهب الفلسفية ، كمذهب فيثا غوراس الذى يحرم ذبح الحيوان ويدعو إلى التقشف والقناعة بالقليل .

وكان حراما عند أبناء هذه النحلة أن يملك أحدهم ثوبين أو زوجين من النعال أو يدخر الأمتعة والأقوات ، وكانت الرهبانية غالبة عليهم إلا من أذن له بالزواج ويعفى من قيود النسك والبتولة .

وكانوا ينتظمون فى النحلة على ثلاث درجات . درجة التلمذة ويقبلون فيها الصبيان فيما دون الحلم ، ثم درجة المقسمين وهم الذين يقسمون اليمين ويقضون سنة فى الرياضة والتدرب على العبادة والاطلاع على الأسرار ، ثم ينتقل المريد إلى درجة الواصلين ويقضى فيها سنتين ، ثم يلبس شعار الطائفة وهو ثوب أزرق وزنار ويحمل الفأس فى يده ، كناية عن العمل الشاق ، ولهم بين المرحلة الأولى والمرحلة الثانية شعائر متواترة يقوم بها الأساتذة ، منها الاغتسال وتلاوة بعض العهود ، ويقسم أحدهم مرة واحدة يمين الأمانة والمحافظة على سر الجماعة ، ويحرم عليه القسم بالحق أو الباطل مدى الحياة ، ويجوز فصل العضو بعد رسمه إذا حنث فى يمينه واتفق مائة من الإخوان على إدانته ، بل يجوز الحكم عليه بالموت إذا بلغ الحنث حد الخيانة والكفر بقواعد الإيمان .

وهم يتطهرون من الحدث ، ويصلون عند الفجر ، ويحافظون على الراحة فى يوم السبت ، ومنهم من لا يستبيح فى ذلك اليوم إزالة الضرورات .

وليس بينها رئاسة ولا سيادة ، والرق عندهم حرام ، وعملهم المفضل الزراعة والصناعة اليدوية . أما التجارة . فهى فى مذهبهم عمل خبيث أو غير لائق ، وأخبث منها حمل السلاح للقتال .

والمادة عندهم مصدر الشر كله ، والسرور بها سرور بالدنس والخيانة ، وكان يغلب عليهم من أجل هذا وجوم الصمت والندم ، وكل ما يباح لهم من السرور فهو سرور الروح أو سرور الاتصال بعالم الأرواح ، وهو عالم سماوى فى أعلى الأثير يرتفع إليه المؤمن بالعبادة والرياضة والقنوت .

وكانوا يتآخون ويصطحبون اثنين فى رحلاتهم ، وقلما كانوا يشاهدون فى المدن الآهلة بالكسان أو فى الأحياء التى يرتادها القصاد للفرجة وازجاء الفراغ .

وهم مؤمنون بالقيامة والبعث ورسالة المسيح المخلص ، معتقدون أن الخلاص بعث روحانى يهدى الشعب حياة الاستقامة والصلاح ، ورائدهم فى طلب الرضى من الله هو النبى عاموس الذى كان يعلم الشعب أن التقرب إلى الله بالعدل والرحمة خير من التقرب إليه بالذبائح والهدايا .

ولا يبعد أن يكون الغلاة أو الجليليون أتباع يهودا الجليلى فرقة متطرفة من فرق الآسين ، لأنهم يسلكون مسلكهم فى التقشف والقناعة ويزيدون عليهم بالحض على العمل لتحقيق النبوءات وتقريب يوم الخلاص ، وهم الذين ثاروا ونظموا العصابات فى السنة السادسة أو السابعة قبل الميلاد وتمردوا على أمر الإحصاء الذى صدر من « كرينياس » حاكم سورية وأصبح اليهود بموجبه معدودين من رعايا قيصر ، أو عبيده الذين يدينون له بالسيادة . وحجتهم أن طاعة القيصر من عبادة الأوثان ، وأن إحصاء الشعب لاعتباره من عبيد القيصر مروق به من الديانة ولما رفع الملك هيرود تمثال النسر القيصرى فوق هيكل بيت المقدس ذهب اثنان من الغلاة إليه وانتزعاه عنوة وأنذر إخوانهما من يعيده إلى مكانه بالموت ، وقد ثار هؤلاء فى سنة الإحصاء بقيادة يهوذا الجليلى ومات هو وأبناؤه وذووه فى إبان الثورة ، وكانت الدولة الرومانية تحذر الفتنة فى هذه البقعة المتوسطة بين القارات الثلاث ، فكانت تؤثر التقية والمدارة فى معاملة الثائرين ، ولا تأخذهم بالقمع والسطوة إلا إذا ضاقت بها سبل الحلم والأناة .

* * *

والطائفة السامرية خليط من اليهود والآشوريين كانوا يقيمون فى مملكة إسرائيل القديمة ، يقال إنهم قبائل آشورية أرسلها ملوك بابل إلى فلسطين ليسكنوها فى أماكن القبائل اليهودية التى نفيت إلى ما بين النهرين وسميت

من أجل ذلك بسبايا بابل ، ويقال إنهم اختلطوا باليهود الذين بقوا فى بلادهم ولم تحملهم الدولة البابلية إلى بلادها مع القبائل المسبية ، فوقع من هذا الاختلاط فى السكن والنسب اختلاط فى العادات والعبادات ، وعاد اليهود الذين رجعوا من السبى بعد سقوط بابل فانكروا من السامريين شعائرهم المخالفة لتقاليدهم واتهموهم بعبادة الأوثان ، ورفضوا مشاركتهم فى بناء الهيكل الجديد ، فعمد السامريون إلى بناء هيكل خاص لهم فى جرزيم وجعلوا يتعمدون أن يدنسوا هيكل بيت المقدس وحصروا القبلة فى هيكلهم ومثابة حجهم وعبادتهم ؛ وقد بقى منافسا لهيكل بيت المقدس زهاء مائتى سنة حتى هدمه رئيس كهان بيت المقدس حناهير كانوس قبل الميلاد بأكثر من مائة سنة ، ولكنهم أعادوا بناءه وظل قائما حتى هدمه الرومان بعد ثورة السامريين فى القرن الخامس للميلاد ، وقد هدم فسباسيان مدينتهم وأقام على أنقاضها مدينة سماها المدينة الجديدة « نيوبوليس » أو نابلس المعروفة اليوم ، ولا تزال بقايا السامريين تحتفظ بتقاليدها وتعتمد على نسخة التوراة المكتوبة بلغتها ، ولا تعترف بكتاب بعد الكتب الخمسة التى تعرف بالكتب الموسوية ، ولا تدين بعاصمة مقدسة غير موطن هيكلها المهدوم جرزيم ، وقد استحكم العداء بين أصحاب الهيكلين فى عصر الميلاد حتى بطل الإيمان فى السفر بين السامرة والبلاد الأخرى ، وتعرض للإهانة والنكال كل من خاطر بالسفر إلى السامرة من يهود الجنوب أو الشمال .

* * *

ومن المحقق أن هؤلاء السامريين كان لهم شأن فى تطور الفكرة المسيحية أو فكرة الخلاص المنتظر على يد الرسول الموعود ، ويرجع شأنهم هذا إلى النزاع القديم بين مملكة يهوذا فى الجنوب ومملكة اسرائيل التى ورثها السامريون ، وهم ينتسبون إلى يعقوب ويدعون أنهم دون غيرهم الجديرون وهم ينتسبون إلى يعقوب ويدعون أنهم دون غيرهم الجديرون باسم « الإسرائيليين » .

فاذا اعتقد أصحاب مملكة يهوذا فى الجنوب أن عاصمتهم — بيت

المقدس — هى مقر الملك المنتظر ، وأن هذا الملك المنتظر سيكون من سلالة داود فهذا الاعتقاد يرضيهم ويرد المجد إلى دولتهم ويجعل الخلاص على أيديهم ، ولكن السامرين أبناء الشمال كانوا يلجون فى عدائهم لداود وذريته ويثيرون النزاع القديم بين الأسباط ، وينكرون على الأقل عقيدة الخلاص على يدى ملك من أسرة الملك فى يهودا ويفتحون بذلك السبيل إلى الإيمان بالخلاص الروحانى والهداية الشعبية ، ويزعزعون الثقة فى أحبار الهيكل الجنوبى وفيمن عسى أن يبايعوه بالملك ، إذا حان الموعد المقدور .

ولم تخل البلاد جميعا — مع هذا — من ناس هنا وهناك يئسوا من جميع الطوائف والنحل واعتزلوا الدنيا وعاشوا فى الصوامع بمعزل عن العمران ، وارتفع شأنهم فى أعين الشعب لسوء ظنه بالدعاة المخامسين للدنيا فى بيئات الساسة والكهان ، ومن هؤلاء « بانوس » الذى تتلمذ عليه يوسفيوس المؤرخ الكبير ثلاث سنوات ، وكان هذا الناسك الثائر يعيش فى عزلة ويأكل مما يتفق له بغير سعى ولا مسألة ، ويكثر من التطهر بالماء والتزكى بالرياضة والتلاوة ، وكان على مثال بانوس نساك متعددون يشبهونه فى شعائر الاعتزال والاغتسال ، وأشهرهم يحيى المغتسل المعروف فى الأناجيل باسم يوحنا المعمدان ! .

أما موقف الهيكل من هذه الطوائف والفرق فهو الموقف « الرسمى » المعهود ... أو موقف المسئولين الذين يحاولون أن يتجنبوا التحيز لهذا أو لذاك ، ويجتهدون غاية اجتهادهم أن يكسبوا ثقة الشعب ولا يغضبوا سلطان الدولة ، وقلما يتيسر النجاح فى هذه المهمة . ولا سيما فى أوقات القلق والتطلع والتبرم بكل موجود .

كان الهيكل خيمة فى عهد البداوة ، وكان الشعب يعتقد قديما أن الله يتجلى فى هذه الخيمة للأنبياء والكهان ، ثم بنيت الخيمة من خشب يفلك وينقل فى أيام التيه ، ثم أقام سليمان الحكيم هيكله بديلا من الخيمة والمعبد الخشبى ، وقيل إنه أنفق على بنائه مائة ألف وزنة من الذهب وألف ألف وزنة من الفضة غير ما جمعه أسلافه وأعقابه ، وبلغت تكاليف بنائه بحساب

أيامنا الحاضرة نصف مليار من الجنيهات وضعف ذلك فى حساب الآخرين حسب تقدير المثقال فى المعاملات الرسمية وغير الرسمية ، وعظمت هيبة الهيكل وارتفعت أقدار كهانه وأحباره ردحا من الزمن ، ثم هدمه البابليون بعد أن قام فى مجده أكثر من أربعة قرون ، ثم أمر كورش الفارسى باعادة بنائه فى سنة ٥٣٦ قبل الميلاد ، وجاء الملك هيرود بعد خمسة قرون فجدد بناءه وأضاف إليه ، وتم ذلك أو كاد فى عصر الميلاد .

لكن الهيكل بعد تقلب العصور وسيطرة الدولة على مناصب الكهانة خسر من المكانة بمقدار ما كسب من الفخامة ، وبدأ عصر الميلاد وسلطان الهيكل يتداعى فى الحقيقة الواقعة ويتمكن فى الصورة الظاهرة : يتداعى لأنه يقوم على غير ثقة ، ويتمكن لأنه كان الموئل الوحيد الذى بقى لقومه بعد زوال ملكهم واليأس من إعادة ذلك الملك ، مع غلبة الرومان على المشرق والمغرب فى عصر الميلاد .

* * *

وقد كانت وظائف الهيكل كلها محصورة فى أصحاب الكهانة ، وهى وظيفة دينية كانت موقوفة على سلالة هارون أو قبيلته يتولاها غيرهم من أسباط اليهود ، ومن أعمالهم فى الهيكل إمامة الصلاة والافتاء فى مسائل الفقه وتقديم الذبائح والخدمة الدينية فى الاعراس والمآتم والعناية بالآنية المقدسة ، وقد تزايد عددهم مع الزمن حتى قيل إن القائد رزبابل (أى المولود فى بابل) كان معه عند عودته من البلاد البابلية نحو أربعة آلاف وثلثمائة كاهن غير السابقين والمتخلفين ، ولهذا كانوا يقسمونهم إلى فرق تقوم كل فرقة منها بالخدمة أياما من الشهر ، ويقتسمون جميعا فى النذور والمرتبات .

ولما تطاول الزمن وتكاثرت ذرية هارون وجد منهم ألوف بغير علم وبغير عمل ، يتعاطون صناعة الكهانة ويقتسمون النذور ولا يشتركون فى تعليم الشعب ولا فى إقامة الصلوات ، ووجد إلى جانبهم أناس يعرفون الكتابة ويسجلون الأسفار الدينية ولا نصيب لهم من وظائف الهيكل ولا نذوره

وأوقافه . وهؤلاء هم جماعة « الكتبة » أو فقهاء الدين ، وكانوا جميعا من الفريسيين لأنهم هم الذين يقبلون الأسفار الحديثة ويعتمدون عليها فى العبادات والمعاملات ، خلافا للصدوقيين الذين كانوا — كما تقدم — يقصرون تلاوتهم، على الكتب الموسوية الخمسة ويرفضون كتب الأنبياء من بعدها ولا يعتمدون من ثم على جماعة الكتبة والفقهاء .

فلما جاء عصر الميلاد كان كثير من الكهان يشتركون فى صناعة الكهانة ولكنهم لا يعملون فى الهيكل ، وكان كثير من الكتبة والفقهاء يشتركون فى العلوم الدينية ولكنهم لا يحسبون من رؤسائه الوراثيين ، وشاع بين الشعب إهمال الكهان فى المسائل الدينية التى تحتاج إلى التعلم والافتاء على الخصوص. وشاع بين الشعب كذلك الإقبال على العلماء « غير الوراثيين أو غير الرسميين » لسؤالهم فى المعضلات والاقتداء بهم فى مسالك الحياة ، فأصيبت المكانة « التقليدية » بضربة قوية وانفسح الطريق للدعوة الدينية غير مصحوبة بالمراسم « الكهنوتية » والشعائر « الهيكلية » على الخصوص .

وولد السيد المسيح ووظائف الهيكل على أشهر الروايات مصفاة فى المجمع المقدس الذى يطلق عليه اسم « السنهدرين » .. وعدة أعضائه واحد وسبعون عضوا منهم ثلاثة وعشرون يتألف منهم المجلس المخصوص وتغلب عليه الصبغة الرسمية التقليدية ، ويتصل أعضاؤه برجال الدولة فى الشئون العامة وما يرجع منها إلى تنفيذ الأحكام والمحافظة على الشريعة المحلية أو الشريعة الموسوية .

وعلى حسب المألوف يحاول أصحاب المناصب فى « السنهدرين » أن يرجعوا بأصله إلى أقدم العهود ، وكانوا يزعمون أنه هو المجلس الذى ورد ذكره فى سفر العدد إذ يقول : « فقال الرب لموسى اجمع إلىّ سبعين رجلا من شيوخ إسرائيل الذين تعلم أنهم شيوخ الشعب وعرفاؤه وأقبل بهم إلى خيمة الاجتماع فيقفوا هناك معك ، فأنزل أنا وأتكلم معك وآخذ من الروح الذى عليك وأضع عليهم فيحملون معك ثقل الشعب فلا تحمله أنت وحدك » .

غير أن المراجع التاريخية ومراجع الكتب الدينية نفسها تخلو من ذكر السنهدرين ، إلا إشارة عابرة هنا وهناك لايستفاد منها تقدير عدده ولا تفصيل حقوقه ووظائفه ، ومما لا ريب فيه أن المجلس الذى كان فى عهد السيد المسيح قد سلب حق الحكم فى الجرائم الكبرى قبل هدم الهيكل الثانى بنحو أربعين سنة ، وكانت أحكامه الكبرى فى أيام المسيح معلقة على إقرار الحاكم الرومانى يبرمها أو ينقضها حين يشاء .

وإذا نظرنا إلى موقف هذه الهيئة من بشرى « المسيح المنتظر » لم نكد نرى فيها باعثا إلى الترحيب بتلك البشرى ، لأنها تتضمن الحكم بفساد الزمن كله واليأس من صلاحه واتهام القائمين على شئون الدين بين أهله ، ولكنها مع هذا لا تستطيع أن تتنكر لهذه الدعوة لأنها هى باب الأمل الوحيد فى وجه المؤمنين والمترقبين ، فهى فى موقف الخائف من رجاء الشعب كله أن يتحقق على غير يديه ، أو موقف من يتأهب للبطش بالدعوة على قدر الإقبال عليها ومخايل الأمل فى شيوعها وانتشارها ، وهى إذا انتشرت لم يكن انتشارها فى مثل ذلك العهد مقصورا على الدهماء دون غيرهم ، لأن الفقهاء والعلماء والمتعلمين كانوا من الفريق الذى يستريب بالكهان ولا يأبى أن يصدق فيهم أنهم كهان فاسدون مفسدون ، لأنهم آخر الزمان الذين تدركهم صيحة النذير وينصب لهم ميزان الحساب .

ولا يستوفى الكلام على القوى الدينية التى كان لها عمل محسوس فى موطن السيد المسيح قبيل ميلاده عليه السلام بغير الإشارة إلى طائفة النذريين أو المنذورين الذين وهبوا أنفسهم أو وهبهم أهلوهم لحياة القداسة وخدمة الله والتبشير باليوم الموعود : يوم الخلاص من الظلم والجور والتطهر من الذنوب .

ولم يكن هؤلاء النذريون طائفة تجمعها الوحدة التى تجمع بين أصحاب النحل والمراسم الاجتماعية ، ولكنهم كانوا آحادا متفرقين ينذر كل منهم نفسه أو ينذره أهله على حدة ، ولا ينتسبون إلى جماعة واحدة غير جماعة الأمة بأسرها .

والكلمة باللغة العربية ترجع إلى مادة تفيد معنى التجنيد واستعرت على ما يظهر للجهاد فى سبيل الدين ، يقال نذر الجيش الرجل جعله نذيرة أى طليعة . وربما كان من عمله أن ينذر قومه بالعدو ويبعدهم عن المخاطر والمفاجآت ، ولا شك أن المادة تدور حول هذا المعنى فى العبرية مع اختلاف الحروف والأوزان .

ولا يشترط فى النذرى أو المنذور أن يهجر العالم ويعتزل الناس فى الصوامع ولكنه يراض على حياة التنطس فلا يجوز له شرب الخمر ولا أن يدنس جسده بملامسة الموتى أو الأجسام المحرمة ، وعليه أن يرسل شعره ولا يحلقه قبل وفاء نذره إن كان منذورا لأجل مسمى ، وقد ينذر الطفل قبل مولده ويمتد نذره طول حياته . ويقال عن المنذور أنه بمثابة النبى فى سن الفتوة ، قال النبى عاموس بلسان يهوا إله بنى إسرائيل .. وأقمت من بينكم أنبياء ومن فتيانكم نذيرين .. لكنكم سقيتم النذيرين خمرا وأوصيتم الأنبياء أن يدعو النبوءة . والنبوءة هنا بمعنى الإنذار بما سيكون .

وقد تكاثر النذيرون قبيل مولد السيد المسيح لأنه وافق نهاية الألف الرابعة من بدء الخليقة على حساب التقويم العبرى . وهو الموعد الذى كان منتظرا لبعثة المسيح الموعود ، لأنهم كانوا ينتظرونه على رأس كل ألف سنة ومنهم من كان يقول إن اليوم الإلهى كألف سنة كما جاء فى المزامير ، وأن عمر الدنيا أسبوع إلهى ، تنقضى ستة أيام منه فى العناء والشقاء ويأتى اليوم السابع بعد ذلك كما يأتى يوم السبت للراحة والسكينة ، فيدوم ألف سنة كاملة هى فترة الخير والسلام قبل فناء العالم . ولا يزال الغربيون يعرفونها باسم الألفية mellinniun ويطلقونها على كل عصر موعود بالسعادة والسلام .

فالذين قدروا أن القيامة تقوم بعد سبعة آلاف سنة من بدء الخليقة كانوا يؤجلون قيام ملكوت السماء على الأرض إلى نهاية الألف السادسة ، ويومئذ تسود دولة المسيح الموعود ، ولكنهم كانوا كغيرهم فى انتظار رسول من عند الله كلما انتهت ألف سنة من بدء الخليقة ، وكانت بداءة الألف

الخامسة موعدا منظورا أو منذورا يكثر فيه النذيرون ، لعلهم يحسبون من جند الخلاص أو لعل واحدا منهم يسعده القدر فيكتب الخلاص على يديه .

والمهم فى أمر النذيرين بالنسبة إلى السيد المسيح أن النبى يحيى المغتسل (يوحنا المعمدان) كان علما من أعلامهم المعدودين وكان السيد المسيح يعتمد على يديه أو يأخذ العهد عليه ، وأن بعض المؤرخين يحسب السيد المسيح من النذيرين ويلتبس عليه الأمر بين النذيرى والناصرى وهما فى اللفظ العبرى متقاربان ، ومن هؤلاء المؤرخين من يزعم أنه لم يكن من الناصرة بل يزعم أن الناصرة لم يكن لها وجود لأنها لم تذكر قط فى كتب العهد القديم ، ولكن الأرجح فى اعتقادنا أن الناصرة نفسها كانت تسمى نذيرة بمعنى الطليعة عندما كانت على تخوم الأرض التى فتحها العبريون قديما ، وأنها كانت مرقبا صالحا للاستطلاع لأن التلول التى تحيط بها تكشف جبل الشيخ والكرمل والمرج المعروف باسم مرج بن عمير ، وبهذا تزول الصعوبة التى اعترضت المفسرين الغربيين على الخصوص ولا سيما الناظرين فى اللغة اليونانية ، لغة الأناجيل ، فلا عجب أن يضلوا مع التصحيف اللسانى فلا يفرقوا بين النسبة إلى المنذورين والنسبة إلى النذيرة ، وبخاصة إذا كان اسم البلدة قد عرض له التصحيف على ألسنة العبريين والغرباء على طول الزمن ، فنطقوه تارة بالصاد وتارة بالسين .

وليس النذيرون طائفة موحدة كما أسلفنا ، ولكنهم ينتمون إلى كل مذهب يوافق حمية الشباب ، وهذا الذى جعلهم قوات ذات بال فى عصر الميلاد خاصة ، لأنهم جميعا فتيان معمورة قلوبهم بالأمل معقودة نياتهم على الإصلاح ، يؤمنون بأنهم رواد الدعوة إلى المسيح الموعود ويترقبون ظهوره للترحيب به والإصغاء إليه ولا تحيط بهم طائفة معينة أو مذهب محدود .

الحالة السياسية والاجتماعية
فى عصر الميلاد

فتحت سورية وفلسطين للدولة الرومانية على يد القائد الكبير « بومباى » الذى قضى على ثورة العبيد الثالثة بقيادة « سبارتاكوس » المشهور .

وقد حسبت هزيمة « سبارتاكوس » من العظائم التى أضافت إلى مجد بومباى وخلدت ذكره بين أبطال الرومان ، ولكن هذه العظائم تضفى على الأبطال والدول مجدا لا ينطوى على خير كبير ، فمن دلائل القوة أن تستطيع الدولة قمع فتنة كتلك الفتنة الجبارة التى لم يعرف لها مثيل فى ثورات العبيد الأقدمين ، ولكنها ولا ريب دلائل القوة التى تقابلها دلائل الضعف من جانب آخر ، فلو لم يكن فى بنية الدولة صدع مخيف لما استطاع عبد أن يجمع سبعين ألف عبد ويقهر بهم جيوش روما زهاء ثلاث سنوات ، ولولا خلل فى كيان المجتمع لما اشتمل على أضعاف هذا العدد من الأرقاء المسخرين الذين ينظرون إلى مجد رومة نظرة الحقد ، ويجازفون بالحياة ليهبطوا بها إلى الحضيض .

وقد كان سبارتاكوس من أهل تراقية ولم يكن أول « عبد » شرقى ثائر على الدولة الرومانية ، بل سبقه رقيق آخر من البلاد الشرقية إلى الثورة فى صقلية سنة (١٤٣ قبل الميلاد) واستطاع أن يقيم له عرشا استقر فى الجزيرة عشر سنين ، وهذه هى الثورة التى تجلى قائدها « أونس » لأتباعه فى صورة النبى المرسل وفى شارة الملك المتوج بيد الله ، وكان أصله فى سورية وكثير من أتباعه شرقيون .

وقد سبقت ثورة أونس السورى ولحقت بها ثورات من قبيلها لم تبلغ مبلغها من العنف ، ولم تخل احداها من صبغة دينية فيما تدعيه لقادتها ، وكانت واحدة منها فى آسيا الصغرى تنشىء لها حكومة تسميها حكومة « الشمس » رمزا إلى عبادة النور والحرية ، وتقيم هذه الحكومة والثوار المنهزمون فى صقلية يعلقون بالألوف على أخشاب الصلبان .

ولم يكن هذا الخطر الكمين خافيا على المصلحين من ساسة الرومان فى الأجيال القريبة التى سبقت ميلاد السيد المسيح ، فأرادوا اصلاح العيوب الاجتماعية بالرجعة إلى الشريعة التى تقيد المواريث وتحرم زيادة الميراث على خمسمائة فدان ، وظن كايوس جراشس Gracchus أنه يعالج الآفة بانشاء طبقة جديدة من الصيارفة والتجار يحد بها من نفوذ النبلاء وأصحاب الضياع المتبطلين ، واضطر هو وأخوه إلى تموين المعوزين بأغذية تبيعها الدولة بأقل من تكاليفها ، ولكن عوامل الخراب كانت فى تلك الأجيال أعمق وأفعل من عوامل العمار والصلاح ، فلما حاول يوليوس فيلبس فى سنة (١٠٤ قبل الميلاد) أن ينظم الاقطاعات بتشريعاته الزراعية قال فى خطابه « التفسيرى » كما روى شيشرون « إن ملاك الأرض فى مدينة رومة لا يزيدون على ألفين » ... وازدادت هذه الحالة سوءا فى عصر أوغسطس المجيد كما يوصف فى التواريخ ، فآلت المستعمرة الأفريقية إلى قبضة ستة من المتبطلين ، وفيها ألوف من الأرقاء المسخرين .

وعصر أوغسطس المجيد هذا هو عصر الميلاد الذى قال فيه السيد المسيح فى رواية الحوارى متى « إن للثعالب أوجرة ولطيور السماء أوكارا ، وأما ابن الإنسان فليس له أين يسند رأسه » .

* * *

والواقع إنه كان عصرا مجيدا بقوة السيف دون كل قوة أخرى من القوى الإنسانية ، وقد أخذت رومة من قوة السيف كل ما تعطيه : فتوح واسعة وسطوة تصد الأعداء وتقمع الثائرين ، والقت رومة بكل اعتمادها على هذه القوة فأصبحت لها سندا لا غنى عنه ، وانتهت بها الحاجة إلى تلك القوة أنها ألقت بنفسها على مذبحها ، فباعتها حريتها وكرامتها ، وضيعت الجمهورية فى سبيل القيصرية المطلقة ، بل رفعت القيصر إلى مقام الربوبية المعبودة ، فخلعت على القيصر أوغسطس لقب إله ، وقررت عبادته مع الآلهة ورصدت له شهرا فى السنة لا يزال معروفا باسمه إلى اليوم ، وتابعت بعده عهود القياصرة

العسكريين من أمثال طراجان وهادريان وغيرهم من المتشبهين بهم ، حتى عز عليها آخر الأمر أن تجد القياصرة العسكريين .

وكان القانون والنظام فخر رومة الأول ، فضاع القانون مع السلطان المطلق ، وضاع النظام مع التفاوت البعيد بين الحاكمين والمحكومين : ثروة وترف وطغيان من ناحية ، وفقر وضنك وهوان من ناحية ، ولا نظام للدول مع اختلال التوازن فى المجتمع ، بل لا نظام للحياة نفسها ولا قيمة لها مع إفراط النعيم حتى السأم من الحياة ، وافراط الشقاء حتى النقمة على الحياة ، فصدق فى رومة كلها وصف السيد المسيح لذلك الرجل الخاسر الذى كسب العالم وضيع نفسه ، فضاع وأضاع .

ولم يستقر الأمر للدولة الرومانية فى فلسطين دفعة واحدة على أثر افتتاحها ، لأن التنازع بين الرومان والفرس لم يترك للبلاد قرارا فى مدى عشرين سنة ، وانقسم الرأى فى فلسطين بين الدولتين : منهم من يشايع الفرس ومنهم من يشايع الرومان ، واشتد التناحر بين الفريقين اشتدادا خرج بهم إلى ضراوة الوحشية فى مناصب الدين فضلا عن مناصب الدنيا ، ومن أمثلته أن أنصار الفرس تغلبوا على أنصار الرومان فى بيت المقدس ، وكان أنصار الفرس يرشحون لرئاسة الكهنة انتيجونس بن أورسطبولس ، فقبض هذا بيديه على مزاحمه هيركانوس وقضم أذنه بأسنانه ، ليحول بينه وبين وظيفة الكهانة طول حياته ، إذ كانت هذه الوظيفة محرمة على المشوهين وذوى العاهات .

وكان فى البادية الجنوبية من فلسطين زعيم مشهور بالحصافة والحزم على رأس قبائل ادوميين ، عرف بفراسته وبعد نظره أن الكفة الراجحة فى النزاع على فلسطين للدولة الرومان ، فانضوى إليها واستبسل فى معونتها . فكافأته على خدمته بتنصيبه ملكا على اليهودية والسامرة والجليل حيث ولد السيد المسيح ، وكافأهم هو بالتمادى فى محاكاة المدنية الرومانية ، وأوحت إليه حصافته أن يداهن السلطة الدينية ويداهن السلطة الدنيوية فى وقت واحد ، فتغالى فى الغيرة اليهودية التى كانت قبيلته تدين بها على سبيل المداراة والمجاراة ،

وتغالى فى محاكاة الرومان والإغريق بالأزياء والمساكن والشارات والأسماء . وتكفل باتمام بناء الهيكل على نفقته ، ثم تكفل بترشيح رؤساء الهيكل من بين أعوانه « المترومين » إن صح هذا التعبير ، لعلهم يدارون شططه فى محاكاة الرومان ومجافاة التقاليد العبرانية ، كلما احتاج إلى التوفيق بين النقيضين .

ومع هذا الجهد المضنى فى التقريب بين الطرفين مات هيرود وهو مغضوب عليه أشد الغضب من أبناء دينه ، وحدث قبيل وفاته أن طائفة من الغلاة ثارت على مبانيه وأنصابه لتمسح منها معالم الوثنية ، فعقد لهم محكمة علنية وأمر باجناده فحملوه إلى المحكمة ، حيث قضى عليهم بالحرق وهم أحياء ! وقبض على الزعماء المحبوبين فحبسهم وأوصى أخته أن تقتلهم إذا مات قبل إعلان وفاته ، لتذهب حسرة الشعب عليهم بفرح الشماتة فيه ، فلا يمتعهم فى ذلك اليوم بالفرح الذى ترقبوه .

وتمت البلية بتقسيم البلاد بين أبناء هيرود الثلاثة ، فوقعت الجليل — حيث ولد السيد المسيح — فى حصة هيرود الثانى انتيباس ، ووقعت اليهودية فى حصة ارخلاوس ، ووقعت مشارف الشام فى حصة فيليب ، وكان من مراسم الولاية أن يذهب الملك إلى روما ليتلقى عهد الإمارة من يدى القيصر ، فهذا الذى يشير إليه السيد المسيح فى مثله المشهور كما رواه الحوارى لوقا حيث يقول ما فحواه : « كان إنسان شريف النسب ذهب إلى كورة بعيدة ليأخذ لنفسه ملكا ويرجع ... وأما أهل مدينته فكانوا يبغضونه فأرسلوا وراءه سفارة يقولون : لا نريده ملكا علينا .. »

ولكن القيصر أقر الأبناء الثلاثة فى ولاياتهم ، وخرجت البلاد ممزقة بين أبناء هيرود وحكومات النبطيين والمدن العشر ، وقصدت رومة بهذا التمزيق أن تخيف ولاية بولاية وتلجئهم إلى التنافس بينهم فى مرضاتها ، . وتتخذهم جميعا درعا تدفع به غارات الصحراء وهياج المتعصبين .

ومن المتواتر — مع تصحيح تاريخ السنة كما سيأتى بعد — أن السيد

المسيح ولد فى أعقاب ثورة جامحة اشتعلت فى أقاليم فلسطين اليهودية على الخصوص ، وأهدرت فيها دماء الألوف من الغلاة وأتباعهم لأنهم هبوا فى وجه الدولة الرومانية محتجين على صدور الأمر بالإحصاء العام ، وليس الإحصاء بطبيعة الحال سببا من الأسباب لإشعال نار الثورة بين أبناء أمة مطمئنة ، ولكنه أشعل نار الثورة فعلا لأنه أثار بين الاسرائيليين خاصة مشكلتين قديمتين من مشاكل فلسطين : احداهما مشكلة الاعتراف بملك غير « يهوا » الذى يؤمن الشعب اليهودى أنه هو الإله وهو الملك ، وأن مبايعة الشعب لغيره كفر وخيانة يعاقبه عليهما بالضربات والمحن ولا يغفرهما له إلا بعد كفارة تضيع فيها الأرواح والأموال ، فاذا دان اليهودى لملك غير « يهوا » أو لغير مسحائه المختارين فهو مطرود من رحمة الله مستحق للعذاب والحرمان . وقد حسب الشعب الإسرائيلى أن الاحصاء مقدمة لفرض السيادة القيصرية عليهم فردا فردا وتقييدهم عبيدا للقيصر مطالبين بعبادته وافتتاح الصلوات باسمه ، وكان فقهاء اليهود يذعنون للجزية وهى تؤخذ منهم عنوة عن طريق الالتزام الذى لا يخص الأفراد بالأسماء بل يؤخذ جملة على الأكوار والأقاليم ، ولكنهم كانوا ينكرون أداء الجزية من ناحية المبدأ أشد الانكار ، ويحكمون بكفر من يجيزها ويشترك فى تحصيلها وينبذونه من من الجماعة وينبذون معه من يعاشره ويتحدث إليـــه . ولهذا دبروا مكيدتهم للسيد المسيح ليسألوه أمام جمهرة الشعب عن أداء الجزية هل يجوز أو لا يجوز « فأرسلوا إليه تلاميذهم من الهروديين قائلين : « يا معلم : إنك صادق تعلم بالحق ولا تبالى أحدا لأنك لا تنظر إلى وجوه الناس فقل لنا ماذا تظن ؟ أيجوز أن نعطى جزية لقيصر أم لا يجوز ؟ » فكان جوابه المشهور أرونى معاملة الجزية ! ونظر إلى الدينار الرومانى فسألهم : لمن هذه الصورة والكتابة ؟ فلما أجابوه أنها لقيصر قال لهم : أعطوا إذن ما لقيصر لقيصر وما لله لله . وأسكتهم جوابه لأنهم لا يرفضون العملة القيصرية مع وجود العملة اليهودية ، ولو كانوا يستنكرون آداءها حقا لأنكروا كسبها وادخارها ، وقد كانوا يكسبونها ويدخرونها ما عدا طائفة الغلاة منهم ، وهى التى ثارت عند تقرير الاحصاء العام .

أما المشكلة الأخرى التى أثارها تقرير الإحصاء فهى مشكلة الضريبة وعسف الجباة فى تحصيلها ، فقد كان اليهودى يؤدى ضريبتين احداهما للهيكل والأخرى للدولة ، وقد جاء فى الأناجيل أن رسل الهيكل كانوا يطلبون ضريبة من السيد المسيح وتلاميذه ، وأنه عليه السلام سئل مرة أن يؤديها فقال لتلميذه سمعان : ما تظن يا سمعان ؟ ممن يأخذ ملوك الأرض الجباية أو الجزية ؟ أمن بنيهم أم من الأجانب ؟ قال له التلميذ : بل من الأجانب ، فقال السيد المسيح : إذن أن البنين أحرار .. ولكنه عاد فأمر تلميذه بأداء الضريبة عنه وعمن معه من التلاميذ .

وقد كان أداء ضريبتين عبئا فوق طاقة الفقراء ، ولكنه — مع العسف فى تحصيل ضريبة الدولة — كان عبئا لا يطيقه الموسرون فضلا عن الفقراء ، لأن الدولة كانت تحصل الضريبة بطريق الالتزام والمزايدة ، فاذا حان الموعد السنوى فتح باب المزايدة ومنح صاحب المزاد الراجح حق التحصيل طوال العام ، وكان الجباة أو العشارون يأخذون لأنفسهم شيئا غير الذى يسلمونه للملتزم ، وكان الملتزم يأخذ لنفسه شيئا غير الذى يسلمه لخزانة الدولة ، فكان المال المحصل يربى على ضعفى المال المطلوب .

ولهذا كانت طائفة العشارين بغيضة إلى الشعب وكان الشعب الإسرائيلى لا يغتفر لأناس منه أن يتجردوا لخدمة الملتزمين الأجانب ويبتزوا المال حراما من أرزاق المعوزين ، ومن ثم كان انكارهم على السيد المسيح أنه كان يخاطب العشارين ويدخل بيوتهم ويستمع إلى مناجاتهم ، ولكنه كان يستمع لهم ويوصيهم بالأمانة فى الجباية ... يسألونه : يا معلم ! ماذا نفعل ؟ فيقول لهم : لا تستوفوا أكثر مما فرض لهم ، ويقول للجند الذين يصاحبونهم : لا تظلموا أحدا ولا تشوا بأحد . واكتفوا بعلائفكم .. لأن الدولة كانت ترسل الجنود يجمعون طعامهم وعلائف مطاياهم من الناس !

فلما صدر الأمر بالإحصاء العام توهم الدهماء أن الدولة لا تكتفى بما تحصله جملة وتنوى أن تزيد عليه ضرائب تستوفيها من الآحاد فردا فردا مع الشطط فى تحصيل ضرائب الالتزام ، فاستجابوا داعى الثورة من الغلاة ،

وغضبوا لعقائدهم كما غضبوا لأرزاقهم ، حين أمروا بالعودة إلى بلادهم ليسجلوا أسماءهم حيث ولدوا أو حيث يقيمون .

ومما لا بخلاف عليه بين المؤرخين الشرقيين والأوربيين أن الحالة السياسية فى فلسطين خاصة كانت على أسوأ ما تكون ، ولكنها على إفراطها فى السوء لم تبلغ مبلغ الحالة الاجتماعية فى الدلالة على القنوط وعموم البلاء ، وحسب القارىء أن يتصفح الأناجيل كاتنا ما كان اعتقاده فيها من الوجهة الدينية لكى تتمثل له حالة البؤس واليأس التى كانت ترين على القرى والمدن فى أقاليم فلسطين ، ولا سيما إقليم الجليل الذى تواترت الروايات عنه ، فحيثما سجل الإنجيليون رحلة من رحلات السيد المسيح بين القرى فهناك أخبار عن العجزة والمرضى الذين يتعرضون لطلب الشفاء بعد اليأس من كل علاج ، وبين هؤلاء مشلولون ومفلوجون ومجانين ومصابون بالخرس والصمم والعمى ويبس المفاصل والأطراف ، بينهم من يقال عنه أن جسده تسكنه الشياطين أو يتناوب سكناه جملة من الشياطين بالليل والنهار ، وكان بعض هؤلاء المرضى أطفالا وبعضهم من الشبان والكهول فى مختلف الأعمار ، وهذا إلى أمراض البرص والنزيف والصرع الذى لا يقترن بالجنون .

وإذا كانت هذه هى الحالات البارزة فالى جانبها ولا شك حالات أخرى دونها فى الشدة والبروز تنم على الآفات الجسدية والنفسية التى فشت فى تلك المجتمع وتركته مهيض الأعصاب عرضة للسخط والهياج ، ويضاف إلى هذا أن عصر الميلاد قد شهد فى فلسطين طوائف شتى من الأساة الذين يطببون المرضى بالعلاج الروحانى ويعتمدون على قوة الإيمان وطهارة المعيشة فى التطبيب والعلاج ، وإذا قلنا إن عصر الميلاد قد شهد عصرا مهيض الأعصاب فنحن نلتفت التفاتا خاصا إلى هذه الظاهرة التى تشير إلى الحالة النفسية فى جملتها فليس أحوج من عصر كذلك العصر إلى السكينة وثقة الإيمان وليس أشد منه تعطشا إلى التسليم والتطهير متى استراحت النفوس فيه إلى الهادى الذى يرجى على يديه التسليم والتطهير ، فلم يأت أوان الرسالة المسيحية حتى كانت قد سبقتها رسالات تمهد لها وتعمل فى وجهتها عمل

الرواد السابقين ، وقد كان أقوى هؤلاء الرواد يحيي المغتسل أو يوحنا المعمدان وإن لم يكن هو الرائد الوحيد فى طريق الرسالة والنبوة ، فجعل التطهير رمزا من الاغتسال بالماء . وأثارها حملة شعواء على بؤرة الفساد فى زمنه وهو بلاط الملك هيرود . فانها البؤرة التى استبيح فيها الفجور بالمحارم والبناء بهن على غير شريعة وقتل الأخوة والأبناء وتدنيس العبادة والقداسة بالبذخ والجسارة على المنكرات ، فكانت جسارة النبى على التطهير كفئا لجسارة الطاغية الأثيم على الدنس والخيانة ، وقضى على الرسول أن يكون عاجل الرسالة فى حملته الصراح وخرج من الميدان شهيدا يجر وراءه جثة ميت بقيد الحياة ، فان جسد هيرود قد أكله الدود قبل دفنه ، وان عهده لقد وصف نفسه أصدق صفاته حين بذل رأس النبي هدية لراقصة مبذولة الجسد . ولا جرم يكون عصر « يحيي المغتسل » عصر رسالة عاجلة أو عصر ارتياد وتمهيد : هجمة من هنا وهجمة من هناك ، ثم تبدأ المعركة التى تستوفى الميدان كله ، ولا تنحسم ما بين صباح ومساء .

الحياة الدينية في العالم
في عصر الميلاد

بلغت الدولة الرومانية على عهد الميلاد غاية مداها ، ودخلت فى حوزتها أمم العالم المعمور كله ، ما عدا الشرق الأقصى ، وأصبح من رعاياها أناس مختلفون فى الجنس واللغة والعقيدة ، فشوهدت فى رومة والإسكندرية ونابلس وبيت المقدس كل عبادة يدين بها البشر من تخوم الهند إلى الشواطىء الأطلسية ، وكثر الحديث بين الناس عن الأرباب والأديان والمذاهب والعقائد ، وتبادل المفكرون والفلاسفة البحث فيها بعد انتقال مدارس الحكمة والعلم إلى الإسكندرية ، وتلاقى الحكماء والعلماء فيها من كل مذهب وكل عقيدة ، وتعود الناس أن ينظروا إلى الأمور نظرة عالمية وبخاصة بين أهل الدرس والتأمل والمطالب الروحية .

وأعظم من هذه النظرة العالمية أثر فى موضوعنا عبقرية المسيح — إن عصر الميلاد قد شهد عدة موجات دينية تجرى من الشرق وتغمر بلاد الدولة الرومانية نفسها ومنها العاصمة الكبرى ، خلافا لما يسبق إلى الظن من غلبة العقائد تبعا لغلبة القوة السياسية .

فلم تكن سيادة الدولة الرومانية على الشرق مقدمة لسيادة الديانة الرومانية كما جرت العادة فى كثير من أطوار التاريخ بل حدث على نقيض ذلك أن عقائد الشرق هى التى غلبت على رومة وأتباعها ، وهى التى انتقلت من الأمم المحكومة إلى الأمة الحاكمة وجاءت المسيحية بعد ذلك فلم تكن استثناء من هذه القاعدة ، بل كانت تطبيقا جديدا لها أعم وأوسع من كل تطبيق متقدم عليها .

وليس فى الأمر مخالفة للسنن الطبيعية كما يبدر إلى الذهن لأول وهلة ، فان سريان العقائد من الشرق إلى الغرب فى تلك المرحلة كان هو السنة الطبيعية التى تؤيدها جميع الأسباب ولا ينقضها سبب واحد صالح للتعليل .

كان اتخاذ النحل الشرقية موافقاً للقياصرة وموافقاً للرعايا فى وقت واحد ، فقد كان القياصرة يطمعون فى الربوبية وكانوا يسمعون أن كهان المعابد فى الشرق يعلنون حلول الآلهة فى أجسام الملوك ، ويرشحونهم للعبادة ولم تزل المناداة بالإسكندر ابنا للاله « آمون » خبراً يتناقله المطلعون على سيرة ذلك الفاتح ويتشبه به منهم من يطمح مثل طموحه ويفتح مثل فتوحه ، وجر هذا المطمع الغريب إلى فتنة عنيفة فى وطن السيد المسيح حين تصدى الملك انطيوخس — خليفة الإسكندر — بطلب الربوبية وسمى نفسه بالالهى أو صاحب الشارة الإلهية .

وقد كان رعايا الدولة الرومانية خليطاً من الشعوب المختلفة ، وسرى هذا الاختلاط إلى الجيوش التى كانوا يسوقونها إلى المشرق ويتركونها فيه زمناً ثم يتعمدون إبقاءها ثمة بعض الأحيان اتقاء لمنازعاتها كلما أطالت البقاء فى العاصمة ، ولم يكن من شأن هذا الخليط أن يتعصب لعبادات رومة أو يعرض عن عبادات غيرها فوافقه أن يتشبه بالمشارقة كما الإسكندر — لطلب الربوبية من القياصرة ! .

ولم تزل سمعة الشرق عند الغربيين منذ القدم أنه هو مهبط الأسرار العلوية وأنه تعلم من خبر السماء ما لا تعلمه الأمم الغربية ، وأن كهان الشرق سحرة يطلعون على الغيب وينفذون إلى بواطن الديانات ، وكلمة السحر عندهم Magic منسوبة إلى المجوس ، والسحر البابلى فى كل لغة مضرب المثل من الزمن القديم إلى الزمن الحديث ، وتوقيت الزمن بالأسابيع التى يسيطر كوكب من الكواكب على كل يوم منها تراث شرقى موغل فى القدم ، لا تزال بقاياه فى التقويم الأوربى من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب .

فلا عجب أن يؤخذ القوم بهذا السحر ويسلموا لأبناء الشرق بأخبار السماء وأسرارها ، ما دامت الأرض فى أيديهم يحكمونها كما يشاءون ، ويجدون من الكهان والسحرة من يبايعهم عليها باسم السماء !

لهذا زحفت على العالم الروماني نحلة « مثرا » ونحلة « ايزيس » ونحلة

المتطلسين كما زحفت عليه نحلة أورفيوس اليونانية من آسيا الصغرى ، ومرجعها هي أيضا إلى الشرق القديم .

وقد شوهدت آثار العبادة المثرية فى أقصى أقطار الدولة الرومانية من المغرب : شوهدت فى آثار السور الرومانى للبلاد الإنجليزية كما شوهدت فى غيرها ، وشاعت العبادة بين شبان الجيش لأن « مثرا » كان شخصية مزدوجة تجمع بين صفتين محبوبتين : إحداهما صفة النور الذى يبدد الظلام والحق الذى يمحق الباطل ، والأخرى صفة المناضل رب الجنود الذى قيل فى كتاب المجوس المعروف بكتاب « الافستا » أنه يسوق جحافله منتصرا لتغليب إله الخير أورمزد على إله الشر أهريمان ، وهو كذلك إله محبوب عند غير الجنود كالرعاة والعاملين بالليل ، يعبده الرعاة والملاحون ويهتدون بنوره فى أعمالهم الليلية ، ويعتقدون أنه يولد فى الجسد الآدمى كما يولد الفقراء فى كهف مهجور ، ولهذا يتخذون له المعابد من الكهوف ، وربما حببه إلى العباد ذلك الحنين المعهود فى الناس إلى استطلاع الأسرار والطموح إلى الترقى فى درجات العلم بالمجهول ، فقد كانت لعباده درجات سبع ينتقلون فيها من درجة إلى درجة على أيدى الأئمة المختارين ، ويتعاطون الشعائر فى كل احتفال سرا أو جهرا على ملأ من الصفوة المقربين ، ومنها تناول الخبز والخمر واعتبار الشهد المقدس الذى يوضع على اللسان رمزا إلى حلاوة الإيمان .

واقترنت نحلة « ايزيس » المصرية بنحلة (مثرا) الفارسية فى غزو بلاد الرومان واليونان ، فسماها اليونان « دمتر » ونحلوها صفتها المصرية وهى صفة الأمومة الكبرى أو صفة الطبيعة الأم ، وكان عبادها يوحدون بينها وبين القمر ويعتبرونها من ثم ربة البحر والملاحة ، ويرسمون لها صورا جميلة تنم على الطهارة والحنان وفى حضنها طفل رضيع يشع النور من وجهه رمز الأمومة والبر والبراءة ، وكان كهانها يحلقون رؤوسهم فى الغرب محاكاة للكهنة المصريين ، وكان لها بينهم عابدون وعابدات يسمونها حامية البيت والأسرة ، ومن ثم شيوع عبادتها بين الرومان الذين اشتهرا بتقاليد الأسرة

وتقديس حقوق الآباء ، ولا شك أن المراسم السرية التى تلازم نحلة ايزين كان لها أثرها فى تشويق الناس إلى انتحالها، كما كان لها مثل هذا الأثر فى عبادة مثرا وما شابهها من العبادات .

وخرجت من مصر أيضا نحلة قوية على قلة عدد المنتمين إليها ، وهى نحـلة المتنطسين Therapeuts التى ذكرها الحكيم الاسكندرى اليهودى فيلون ، وقال إن أتباعها كانوا يجتمعون يوم السبت ويتفرقون بعد ذلك فى الصوامع للتأمل والدراسة الفلسفية ورياضة الروح والجسد واسمهم اليونانى معناه الاساة أو المتنطسون ، وأكثر صوامعهم كانت على مقربة من الإسكندرية حول بحيرة مريوط القديمة . ويظن بعض المؤرخين أن هؤلاء المتنطسين هم أساتذة النساك اليهود الذين يسمون الآسين أو الآسيين ،وأشرنا إليهم فى الكلام على فرق اليهود .

ومما يلاحظ أن نحلة « أورفيوس » اليونانية لم يكن لها من الاشياع بين الرومان ما كان للنحل الشرقية الخالصة ، ولعلهم كانوا يحسبون « الأسرار الدينية اختصاصا للشرق القديم ويرجعون إلى اليونان فى مسائل الفلسفة والفن والخطابة ، وبخاصة بعد أن تحولت الديانة « الأورفية » إلى ديانة شرقية تجرى على سنة الشرق فى التقشف والأخوة الروحية ، وقد نشأت الأورفية اليونانية نشأة فنية وقيل فى وصف أورفيوس أنه كان يعزف على أوتاره فيقبل عليه الوحش والنعم والطير وتنسى ضراوتها وهى تصغى إليه ثم أصبح التأليف بين الضوارى والنعم رمزا إلى التأليف بين القلوب وانتزاع الشر من نفوس الأقوياء ، وجاء عصر الميلاد والأورفيون يدينون بالزهد والتقشف ويحرمون اللحوم ويلبسون الثياب البيض ولا يذوقون الخمر إلا فى مراسم القربان ، واحتفظوا بعقيدة اليونان الأقدمين فى أساطيرهم عن أورفيوس الفنان فزعموا أنه يزور عالم الموتى ويعود منه وجعلوا لهم موعدا يحزنون فيه على موته وموعدا يحتفلون فيه ببعثه ، وتشابه الاحتفال ببعثه والاحتفال ببعث أدونيس إله الربيع ، وكثيرا ما قيل فى كتب المقابلة بين الأديان أن آتون

الإله المصرى وادونيس الإله اليونانى وادوناى بمعنى السيد أو الرب باللغة العربية أسماء عدة ترجع إلى مصدرها المصرى القديم .

* * *

ومن الواضح أن هذه النحل التى كانت تصطفى الأعضاء والمريدين وتحتفظ بالعبادات والرموز للصلوات السرية لم تكن ديانات عامة تبشر الأمم كافة بظواهرها وخوافيها ، وانما كانت فى جوهرها اشبه بالروابط والجماعات التى تضم إليها المشتغلين بغرض واحد أو المتفقين فى المزاج والعاطفة ، وكانت أقرب إلى الجماعات الفنية الرياضية التى تقوم على تخير الأذواق وتوحيد العلاقات بين الأشباه والنظراء ، فكان طلابها جميعا من الشبان الذين يستطلعون حقائق حياتهم المجهولة ويعتقدون أو يرجحون أن هذه الحقائق سر من أسرار العلم والدراية يهديهم إليه الحكماء المجربون المدربون وكان لها طلاب من الكهول والشيوخ بطلت عقيدتهم فى الشعائر العامة فانصرفوا عنها إلى حيث يلتمسون الحقيقة ويشعرون براحة الضمير فى جو من الألفة واتفاق المطالب النفسية والفكرية ، فمن لم تكن هذه النحل عنده حلقات رياضية أو فنية فهى عنده بمثابة الأندية التى تصون روادها من الأخلاط و « الأغيار » ولا سيا الأغيار من ذوى الجهالة والإسفاف .

ولكن الدلالة الكبرى التى تتجمع من شيوع هذه النحل فى عصر الميلاد أنها « أولا » علامة على طلب الاعتقاد وإحساس المخلصين المستعدين للإيمان بما يحيط بهم من الخواء فى جو التقاليد والمعتقدات .

وأنها « ثانيا » علامة على الوجهة العالمية التى أخذت تسرى فى أنحاء العالم المعمور وتؤلف بين أبناء الأمم المختلفة فى طلب العقائد الروحية ، لأن هذه النحل السرية لم تكن مقصورة على أمة دون أمة ولم تكن محرمة على أحد من أجل جنسه وأصله ، فكل من يفتح وجدانه لعقائدها وآدابها فهو مقبول فيها مرشح لدرجاتها من أدناها إلى أعلاها .

أما جماهير الشعوب فلم تكن تحفل كثيرا بهذه النحل الخاصة المقصورة على طلابها ومريديها . وكانت على دأبها سادرة فى عاداتها ومألوفاتها ، ولكنها لم تخل فى هذه العادات والمألوفات من وجهة عالمية تنزع الفوارق بين اتباع الديانات المختلفة وتضمهم جميعا بين حين وآخر إلى محافل الأعياد العامة التى تقام لهذا « الرب » أو لتلك « الربة » أو تتردد فى مواسم الطبيعة بصبغتها التى كانت تمتزج بالدين على عادة الأقدمين ، وكانت سياسة الدولة الرومانية تساير هذا الشعور بل تشجعه وتحض عليه ، إذ كانت القاعدة الذهبية عند دهاقين السياسة من الرومان أن الشعوب لا تهتم بمن يسوسها متى وجدت الخبز واللعب بين يديها ، ومن اللعب الذى لا يكلف الدولة شيئا أن تفرح جماهير العامة بالأعياد وتتسابق فى المواسم والموالد وتصبغها كما تشاء بصبغة القداسة ، فذلك أسلم من التنازع والفتنة والصدام .

وجملة ما يقال عن الحياة الدينية يومئذ فى العالم المعمور أنها كانت حياة تقليد أو حياة تطلع ورغبة فى الاعتقاد عن بحث وبينة انفة من عقائد التقليد ، وأنها كانت تجرى فى مجراها إلى « العالمية » التى تعم الناس ولا تخص كل أمة بعقيدتها على حسب جنسها وأصلها ، وأهم من هذه العالمية فى النحل والمحافل « عالمية » فى اللغة والثقافة حطمت أقوى الحواجز التى كانت قائمة قبل ذلك زهاء عشرة قرون ، فقد كان العبرانيون يؤمنون أن العبرية هى لسان « يهوا » الذى يخاطب به الأنبياء ويناجى به الكهان فى المحارب ، فلم يلبثوا أن قبلوا الدعاء واستمعوا إلى كتب الوحى باللغة الآرامية ، وما يشابهها من اللهجات السريانية ثم سمحت طائفة كبيرة منهم بترجمة التوراة إلى اللغة اليونانية فى القرن الثانى قبل الميلاد ، ثم استرسلت هذه الحركة إلى مداها فى عصر الميلاد وما بعده ، فكانت الآرامية هى اللغة التى بشر بها المسيح والتلاميذ ، وكانت اليونانية هى لغة الأناجيل ، وكانت السريانية لغة التوراة والإنجيل معا ولما ينقض أكثر من قرن واحد على مولد السيد المسيح .

* * *

وأهم الظواهر التى تسجل فى سياق الكلام على الشئون الدينية العامة قبيل الميلاد أن العقائد الوثنية كانت فى حالة أشبه ما تكون بحالة التصفية قبل شهر الإفلاس ، فقد روى المؤرخ سويتنوس أن القيصر أغسطس جمع فى سنة (١٢ قبل الميلاد) قرابة ألفى قرطاس من النبوءات والصلوات المكتوبة باللاتينية واغريقية وأمر بها فأحرقت علانية ، واحتفظ بقليل من المخلفات المأثورة فوضعها فى صندوقين مذهبين ونقلها إلى معبد الإله أبولون ، وفى هذا الخبر خلاصة أخبار العقائد الوثنية فى ذلك الجيل .

الحياة الفكرية
في عصر الميلاد

كانت المذاهب الفكرية التي يتحدث بها المثقفون شائعة فى بلاد الجليل حيث ولد السيد المسيح وحيث اختلط الغربيون والشرقيون كثيرا قبل عصر الميلاد ببضعة قرون ، وأكثرها الفيثاغورية والابيقورية والرواقية ، وهى التى تعنينا فضلا عن شهرتها ، لأنها هى المذاهب التى تتصل بالسلوك والاعتقاد ومنها مذهبان ظهرا بين اليونان فى عصر يشبه عندهم العصر الذى ولد فيه السيد المسيح ، وهما الابيقورية والرواقية ، فان هذين المذهبين — على تناقضهما — رد فعل لحالة واحدة غمرت البلاد اليونانية بعد انتصارها على الدولة الفارسية ، وهى حالة الترف والبذخ واللهو والطغيان من جانب السادة وحالة النقمة من جانب العبيد والمسخرين .

وهذه المذاهب الثلاثة تتلاقى فى غاية واحدة هى طلب السكينة والراحة ، إلا أن الفيثاغورية التى ظهرت قبل عصر الترف والسلطان كانت أقرب إلى الروحانية والمزج بين عقائد الأمم المختلفة من اليونان والمصريين والفرس والهنود ، وهى جميعا أقرب إلى النشأة الشرقية ، لأنها نشأت بين قبرص وآسيا الصغرى .

وقد كان اتباع فيثا غوراس طائفة تجتمع فى « أخوة » ذات شعائر وصلوات بعضها معقول وبعضها من قبيل المحظورات والمحرمات التى تشيع بين القبائل البدائية وتستوجب عندها عادات مقدسة أو امتناعا عن بعض العادات ، وقد كانوا يعتقدون فى رئيسهم فيثاغوراس انه ابن الإله « ابولون » وانه لم يمت وسيبعث بعد حين ، لأنهم يؤمنون كأهل الهند بتناسخ الأرواح ، وان الروح فى الجسد غريبة تلتمس الفكاك ولا فكاك لها بغير صالح الأعمال ، وهم يحرمون أكل الحيوان ويحرمون كذلك أكل الفول ويستحسنون اجتناب البقول على العموم ، ومن محرماتهم العجيبة ألا يأكلوا من رغيف صحيح وألا يلتقطوا شيئا وقع على الأرض ولا يقطعوا الزهر من الشجر

ولا ينظروا فى المرآة إلى جانب النور ، ومنهم من كان يعظ الحيوانات لأنهم يؤمنون أنهم يخاطبون أرواحا تسكنها إلى حين ، وعندهم أن الناس درجات بشر وانصاف من بشر وآلهة وفيثاغوراس أحد هؤلاء .

وكان فيثاغوراس يقبل الرجال والنساء فى أخوته ويوجب المشاركة فى الأقوات والمقتنيات التى تصل إلى أيدى الجماعة ، ويؤمن أتباعه بعد موته بأنه يلهمهم الكشوف العلمية ويلقنهم عظات الحكمة والخلائق الحسنة وان الحياة كانت « فرجة » عنده وهى كذلك عند من يشبهونه . فالعالم فى رأى الفيثاغوريين كساحة الألعاب الأولمبية ، يقصدها أناس للتكسب وهم أخس الزائرين ، ويقصدها أناس للمباراة وهم فوق ذلك ، ويقصدها أناس للفرجة وهم أرقى منهم جميعا ، وكذلك الفلاسفة الذين يزورون العالم للتأمل والنظر هم أرفع من المتكسبين والمتنازعين على جوائز الميدان .

والأفكار الفلسفية نفسها هى وحى من الله ، ويردون اشتقاق اسمه ثيورى Theory إلى اسم الله ثيوس Theos باليونانية فكل حكمة عندهم فهى من الحكمة الإلهية يتلقاها الباحث بالرياضة والمناجاة « والانسجام » بينه وبين موسيقى الكون . إذ الكون كله عندهم نسب عددية موسيقية وصورة كمالة عدد الأربعة ، لعله كذلك عندهم لأنه يجمع العناصر الأربعة التى تخلق منها جميع الأشياء .

وقيل أن لهم أغراضا سياسية وأنهم كانوا يتآمرون على الدولة فى اجتماعاتهم السرية ، وقد عاش فيثاغوراس فى القرن السادس من الميلاد وساح فى بقاع العالم المعمور كله ، وبقيت نحلته أو أخوته فى جميع الأقطار ، ولا سيما الأقطار التى أقام فيها اليونان المستشرقون .

أما الأبيقورية والرواقية فقد ظهرتا فى عصر واحد ، وانتشرتا بين المثقفين فى جميع أنحاء العالم المعمور ، ويبدو عليهما أنهما متناقضتان ولكنهما فى الواقع متقاربتان أو يمكن أن تتقاربا عملا على حسب التفسير والسلوك فى المعيشة .

نشأ أبيقور بين القرن الرابع والقرن الثالث قبل الميلاد ، وولد على القول الأشهر فى جزيرة ساموس على مقربة من شواطىء آسيا الصغرى ، ولاذ بآسيا الصغرى مع أهله هربا من الاضطهاد ، وقد أقبل على دراسة الفلسفة وهو فى نحو الرابعة عشرة ، وافتتح مدرسته فى الحديقة المشهورة سنة ٣١١ قبل الميلاد وهو فى نحو الثلاثين .

وإذا قيست فلسفة أبيقور على معيشته الشخصية فهى حياة نساك متقشفين ، لأنه كان يقضى معظم أيامه على الخبز والماء أو على الخبز والجبن ، لكن اسمه اقترن باللذات والشهوات لأنه كان يعلم تلاميذه أن السرور هو غاية الحياة وأفضل السرور ما لم يعقب ألما ولا ندما ، ولهذا كان يجتنب الشهوات البدنية ويجعلها من قبيل السرور « المتحرك » وهو السرور الذى يقترن بالجهد ويعقب الندامة والعناء ، وقد كان يقسم السرور إلى نوعين : سرور متحرك وسرور مستقر أو ساكن ، وأفضلهما كما تقدم سرور السكينة والاستقرار ويعنى به سرور التأمل والراحة والقناعة .

وكان ابيقور يقبل فى مدرسته العبيد والراقصات والمأجورات ولا يرى حرجا فى طلب السرور حيث يوجد بريئا من الألم والندم ، بل لا يرى كيف يتخيل الحكيم « الخير » إذا أخرج من حسابه مسرات الذوق والنظر والسماع ومن أعرض عن سرور يستطيعه فى غير ألم ولا ندم فهو أحمق وليس بحكيم .

وقد أنحى أبيقور على الديانات اليونانية وغيرها من ديانات زمانه أنها محشوة بالخرافات والأكاذيب ، وعلم تلاميذه إن الالهة موجودة ولكنها مشغولة بسعادتها عن شئون الدنيا فلا قدر لها فيها ولا قضاء ، ولا فرق عنده بين الأرباب والمخلوقات إلا فى لطافة المادة ونقاوة التركيب ، فكلها من المادة وليس لغير المادة وجود ..

ومن هنا كان يقبل كل تفسير لظواهر الوجود يرجع بها إلى الأسباب الطبيعية . ويرفض كل ما كان مرجعه إلى الأرباب والغيوب ويواجه الموت

نفسه على مذهبه فى السرور والألم ، فان لم يكن فى الموت مسرة فهو خلاص من آلام الحياة ، ولهذا شاع مذهب أبيقور فى عصور الشك والسآمة وفقدان اليقين والإيمان بالعناية ، وفضله المكذبون بالديانات على مذهب الرواقيين لأن الأبيقورية — خلافا للرواقية . لا تعنى أصحابها من التكاليف ولا تفرض على عقولهم أو ضمائرهم واجبا يثقل على كواهلهم ، ولكنها مع هذا كانت بجمع قواعدها ووصاياها فى أصول منظومة أشبه بالأوراد الدينية التى يستظهر ها المريد ويترسمها ترسم الإيمان والعبادة .

* * *

وإذا أردنا تلخيص المذهب الرواقى فى كلمتين اثنتين فهاتان الكلمتان هما الصبر والعفة .

الصبر على الشدائد والعفة عن الشهوات ، ولا سعادة للإنسان من غير نفسه وضميره ، فمن راض نفسه على مغالبة الألم والحزن وقمع الشهوة والهوى فقد بلغ غاية السعادة المقدورة لأبناء الفناء ، وهم يؤمنون بالقدر ويعتقدون أن الكون كله نظام متناسق يجرى على حسب المشيئة الإلهية ، الوحى والرؤيا والفأل وطوالع النجوم من وسائل العلم بأسراره وخفاياه ، ويلتقى الإنسان بالعقل مع الآلهة وبالجسد مع الحيوان الأعجم ، وفضيلته الإنسانية هى أن يطيع العقل ويعصى الجسد ، وعصيانه الجسد هو مقاومة الشهوات ، وطاعته العقل هى طلب المعرفة ، وسعادة الإنسان كلها هى السعادة التى تهيأ له من الاستغناء عن الشهوة وتحصيل العلم ، فما زاد على ذلك من السعادة فهو وهم لا يدرك أو هو فضول لا خير فيه .

وقد نشأ الرواقيون الأول ماديين يؤمنون بأن الوجود كله أصل واحد ، ولكنهم تدرجوا فى الروحانية وانتهى خلفاؤهم فى عصر الميلاد وما بعده إلى الإيمان بحرية الروح فى مواجهة المادة ، فالاله الأكبر « زيوس » لا يستطيع أن يجعل الجسد حرا من قيود المادة ولكنه يعطينا قبسا من روحه الالهية . نصبح بنعمته إخوانا لا يفرق بينهم وطن ولا جنس ولا لغة وأينما يكونوا فهم

مع الله ، لا حاجة بهم إلى هيكل أو معبد . فانما القداسة فى النفس التى تعبد وليست القداسة فى مكان للعبادة يصنعه البناء والحداد ومن صلواتهم الصلاة المشهورة التى أثرت عن زعيمهم كليانتس (٣١٠ — ٣٣٠ قبل الميلاد) حيث يناجى زيوس قائلا : « اهدنى يا زيوس ، أيها القدر . خذ بيدى إلى حيث أردت أن ترسلنى . خذ بيدى أتبعك غير ناكص ولا وجل فان خامرنى الريب فأحجمت وتريثت فدون اتباعك لا مهرب لى ولا نجاة » .

ويتبع الرواقى طريق القدر لأنه هو الخير وليس هو الضرورة وكفى . فان الإله الأكبر لا يريد شرا ولا يخلقه ، وما هذه الشرور التى فى الدنيا إلا نقائض محتومة يستلزمها وجود الخير ولا يعقل الخير بغيرها ، فلا محل للراحة بغير التعب ولا محل الشبع بغير الجوع ولا محل للرحمة بغير القسوة ، وإذا كانت القسوة رذيلة فالرحمة التى تسلم النفس للحزن والغم ليست بالفضيلة الإلهية . وإنما تكون الرحمة فضيلة إذا تبصرت كما يتبصر الإله فى قضائه ، فتنكر القسوة ولا تخضع للحزن والغم بغير حيلة ، فان الحكيم يحمل فى حكمته ترياق كل سر ودواء كل بلاء .

وقد أخذ الرواقيون من الهند — بسبيل فيثاغوراس على ما يظهر — أن العالم ينقضى ويعود فى دورات أبدية لا تعرف لها نهاية ، واعتقد بعضهم أن أرواح الحكماء تبقى فى كل دورة إلى نهايتها ، ثم يشملها ما يشمل العالم كله من حريق النار الأبدية وهى النار التى تطهر جميع الموجودات لتتخلص من أوشابها ثم تعود دواليك فى وجود بعد وجود وعالم بعد عالم وقيامة بعد قيامة .

والمدرسة الرواقية بأسرها مدينة للأئمة الشرقيين ولا سيما القطبين الكبيرين فى هذه المدرسة زينون (٣٤٠ — ٢٧٠ قبل الميلاد) وبوزيدون (١٣٥ — ٥١ قبل الميلاد) فهم جميعا من الفينيقيين أو من اليونان الذين استشرقوا وأقاموا منذ زمن فى البلاد الشرقية ، وخلاصة مذهب الامام الرواقى الأكبر — زينون — كما لخصناه فى كتابنا عن الله « إن الإله جوهر ذو مادة » Soma .

وإن الكون كله هو قوام جوهر الإله ، وأن الإله يتخلل أجزاء الكون كما يتخلل العسل قرص الخلايا ، وأن الناموس Nomos .

وهو بعبارة أخرى مرادف للعقل الحق Orthas Logas أو الكلمة الحقة — هو والإله زيوس شيء واحد يقوم على تصريف مقادير الكون ، وكان زينون يرى للكواكب والأيام صفة إلهية ويعتقد — كما أسلفنا — أن الفلك ينتهى بالحريق وتستكن فى ناره جميع خصائص الموجودات المقبلة وأسبابها ومقاديرها ، فتعود كرة بعد كرة بفعل العقل وتقديره ويشملها قضاء مبرم وقانون محكم كأنها مدينة يسهر عليها حراس الشريعة والنظام ، ويترادف عنده معنى الله والعقل والقدر وزيوس ، فكلها وما شابهها من الأسماء تدل على موجود واحد ، وقد كان هذا الموجود الواحد منفردا لا شريك له فشاء أن يخلق الدنيا فأصبح هواء وأصبح الهواء ماء ، وجرت فى الماء مادة الخلق Sparmatilos Logas كما تجرى مادة التوليد فى الأحياء ، فبرزت منها مبادىء الأشياء وهى النار والماء والهواء والتراب ، ثم برزت الأشياء كلها من هذه المبادىء على التدريج ، وتعريف القدر عند زينون انه القوة التى تحرك الهيولى ، وهى قوة عاقلة ، لأن ما يتصف بالعقل أعظم مما يتجرد منه ، ولا شيء أعظم من الكون Cosmos فهو عاقل لأنه عظيم . ويفسر زينون تعدد الآلهة فى معتقدات العامة بأنهم بحثوا عن الله فى مظاهر الطبيعة المتكاثرة فعددوها ونسجوا حولها الأساطير من تشبيهات الخيال ، ولكن هذه التشبيهات إن هى إلا رموز مجازية تدل على حقيقة واقعية » .

وآخر الأقطاب الرواقيين قبل الميلاد — بوزينون الذى أشرنا إليه — كان يعلم تلاميذه أن الروح لا تفنى بفناء الجسد وأنها ترتقى صعدا فى السماء على حسب ارتقائها فى المعرفة والفضيلة ، فمن الأرواح ما يرفرف على مقربة من الأرض ومنها ما يحلق بين الأفلاك العلى ويسبح معها وينعم بالنظر إليها والاستماع إلى ألحانها فى مسراها إلى يوم القيامة ، وقد كان هذا الحكيم معنيا بالهند فى بحوثه الجغرافية الفلكية كما كان معنيا بها فى بحوثه الفكرية الدينية ، فقرر فيما رواه عنه صاحب كتاب « الرواقيون والشكوكيون »

Stoics and Sceptics إن المسافة بين قادش والهند سبعون ألف ستادة ، وهى مقياس يونانى يساوى نحو مائة وخمسة وسبعين مترا ، ويقال إن هذا التقدير كان فى حساب كولمبس عندما قصد إلى الهند من طريق البحار الغربية .

ويتفق مؤرخو الفلسفة على قوة الأثر الذى أعقبته المذاهب الرواقية فى العالم الرومانى إلى أقصى أطرافه ، وتظهر قوة هذا الأثر وسعة مداه من اتساعه لتبشير الملوك والأرقاء بعد ظهور أمامه الأول — زينون — بنحو أربعة قرون ، فكان من أئمته العبد الرقيق ابيكتيتس (٦٠ — ١٠٠ بعد الميلاد) والامبراطور الكبير ماركس أورليوس (١٢١ — ١٨٠ بعد الميلاد) وفاخر بالانتماء إلى هذا المذهب قادة ورؤساء من الذين زاروا الشرق وأقاموا فيه .

أما فلسطين خاصة حيث ولد السيد المسيح فقد كان هذا المذهب ومذهب الأبيقوريين يتقاسمان فيها أفكار المتدينين وغير المتدينين ، وتغلغل المذهبان بين الطوائف الإسرائيلية كأنهما زيان من أزياء الثقافة التى يتراءى بها أدعياء العلم والمدنية ، فكان الصدوقيون يميلون إلى الأبيقورية وكان الفريسيون يأخذون بالحكمة الرواقية على كراهتهم للتشبه بالأجانب ، ولكن شيوع الأقطاب الشرقيين بين الرواقيين كل يصبغ نحلتهم بالصبغة الوطنية التى لا يتحرج الفريسيون من محاكاتها تمشيا مع نزعتهم إلى التجديد .

ومن المصادفات التى تساعد على تتبع أثر المذاهب الفكرية فى العالم الإسرائيلى أن عصر الميلاد أنجب أكبر الفلاسفة الإسرائيلية فى العصر القديم وهو يهودافيلون ، الذى ولد بالإسكندرية سنة (٣٠ قبل الميلاد) ومات سنة (٥٠ بعد الميلاد) ومزج فى فلسفته بين عقائد عصره ومذاهبه الفلسفية من كل منبت ولا سيما منبت الإغريقية الإسكندرية ، وقد أخذ القول بالكلمة Logos من الرواقيين عن هيرقليطس أول القائلين بها فى الزمن القديم ، وقال إنها هى واسطة الله فى علاقته بهذا العالم وأخذ تفسير الرموز الدينية من العبادات السرية كعبادة ايزيس وعبادة اوزيريس سرابيس التى تأسست بالإسكندرية وتفرعت فى أثينا وبومبى وروما وبعض الموانىء

الآسيوية ، ثم طبق هذا التفسير على رموز التوراة فشرحها شرحا عقليا يخالف فى كثير من المسائل شروحها التقليدية ، وقال فى كلامه عن خلق العالم أن موسى عليه السلام لم يأت بأسلوب كأسلوب أصحاب الشرائع الذين يحصرون أحكام قومهم فى الحلال والحرام بغير تصرف ولا تنقيح ولا بأسلوب كأسلوب أصحاب الشرائع المبهمة التى تحيط بها الألغاز والزيادات وأنه روى قصة الخليقة رواية تتضمن أن الدنيا مطابقة للنظام (أو الشريعة) وان النظام مطابق للدنيا ، وان الإنسان الذى يتبع النظام ، مواطن صالح للعالم كله ، يسير فى عمله وفقا لمشيئة الطبيعة التى تسير الدنيا كلها وفقا لمشيئتها .

وقد كان فيلون رواقيا على حافة الأبيقورية ، فقال فى كلامه عن ابراهيم مفسرا اسم اسحاق « إن معنى اسحاق فى لغتنا الضحك . ولكن الضحك هنا غير الضحك الذى يأتى من سرور الجسد ، فهو سرور المعرفة الصالحة ، وهذا هو الفرح . هذا الفرح الذى روى لنا أن الحكيم ابراهام قدمه قربانا إلى الله مبينا ذلك فى هذا الرمز أن الفرح على صلة وثيقة بالله وحده . إذ الإنسان عرضة للحزن والخوف من الشرور الحاضرة والمتوقعة ، وليس الحزن ولا الخوف من طبيعة الله » .

ومذهب فيلون فى الصلاة أن الإنسان يصلى شكرا لله على ما فى الكون كله وخلائقه كلها ومنها بنو آدم جميعا رجالا ونساء ويونان وبرابرة ومنها ذات المصلى جسدا وروحا ومنطقا وعقلا وحسا ، فان الصلاة على هذا المثال جديرة أن تستجاب .

وينقسم الإنسان عند فيلون إلى ثلاثة أقسام : وليد الأرض ووليد السماء ووليد الله ، فوليد الأرض من يطلب متاع الجسد ، ووليد السماء من يطلب متاع الفكر ، ووليد الله من تجرد عن الدنيا وأقبل بجملته على عالم فوق هذا العالم معصوم من الفناء براء من المادة ، فى زمرة الهداة والمرسلين .

وليس فيلون من دعاة العزلة فى الصوامع ، لأن اختلاف المكان

لا يصنع شيئا، وإنما الخير كله من الله حيث كان ، وهو كائن فى كل مكان يهدى ركاب الروح إلى حيث يشاء .

كذلك لم يكن يستعظم ضحية القرابين كما قال فى كلامه عن الشرائع الخاصة « إن الله لا يفرح بالضحايا ولو حسبت بالمئات لأنه مالك كل شىء ومعطى الناس كل شىء ومن عطاياه تلك الضحايا وقد يكون التقرب بخبز الشعير أقوم عنده من التقرب بالنفائس والذخائر ، بل من تقدم إليه بنفسه لا يحتقب شيئا فى الصدق وخلوص النية أكرم عنده ممن يبذل الأموال ويسىء الأقوال والفعال » .

وقد كان فيلون عالميا يخاطب بنى الإنسان كافة ، وكان يقول إن إسرائيل إنما سمى بهذا الاسم لأنه ينظر إلى الله ، فكل ناظر إلى الله إسرائيل . ولكن هذه الدعوة العالمية لم تصرفه قط عن العصبية القومية ، ولم ينس قط فى كلامه عن بنى إسرائيل أنهم هداة الأمم وأنهم أحق عشائر الإنسان باعجاب جميع العشائر فأن الآثينيين يرفضون شعائر اللقدمونيين كما يرفض اللقدمونيون شعائر الآثينيين ، ولم يعهد فى المصريين أنهم يأخذون بتقاليد السيثيين أو فى السيثيين أنهم يأخذون بتقاليد المصريين ، وأهل أوربة يعرضون عن عادات أهل آسيا وأهل آسيا يعرضون عن عادات أهل أوربة ، ولكن اليوم السابع الذى يستريح فيه اليهود مرعى الحرمة عند جميع الأقوام ، ويوم الكفارة من كل سنة أقدس من الشهر الحرام فى عرف الإغريق ، إذ هو شهر يبطل فيه القتال ولكنه يغرى الناس بالإفراط فى الشراب والطعام وشهوات الأجسام ، وشتان هذا من موسم الصيام والقنوت عند بنى إسرائيل .

يقول هذا عن قومه ، فى كلامه عن حياة موسى عليه السلام ، ولكنه يقول فى كلامه عن الشرائع الخاصة أن إسرائيل بين الأمم كاليتيم المضيع بين الغرباء ، لا يأخذ بناصرهم أحد إذا تألبت الأقوام وتعصبت العشائر ، وذنبهم عند الناس أنهم يدينون أنفسهم بالفرائض الصارمة ويتزمتون فى المعيشة والصرامة ثقيلة على الطباع والتزمت بغيض إلى النفوس ومع هذا يقول لنا موسى أن يتم إسرائيل يستجلب لها شفقة الله مدبر الكون الذى وقعت

إسرائيل من نصيبه وفرزت من العالم كما تفرز بواكير الثمار هدية للخالق والأب الرحيم » .

* * *

تلك غاية الشوط الذى انتهى إليه فيلون فى زمنه ولا يعتبر فيلون من الأئمة ذوى الاتباع فى الديانة الموسوية ، ولكنه يعتبر نموذجاً صالحاً لتلك الديانة كما يفهمها الحكيم المطلع المتدين فى أوائل عصر الميلاد .

جليل الأمم

ولد السيد المسيح بأرض الجليل — أو جليل الأمم كما كان يسميها الإسرائيليون ، لأنها كانت إقليما مفتوحا لجميع الأمم الشرقية والغربية ، ولم يخلص سكنه للإسرائيليين وحدهم فى زمن من الأزمان .

ومعنى الجليل بالعبرية الدائرة ، يعنون بها الإحاطة ، لأنها اتسعت لكثيرين ممن حال بينهم وبين الإقامة فى بلاد أخرى من فلسطين ولا سيما الجنوب .

وكانت الجليل جزءا من أقاليم الشاطىء الشمالية التى عرفت فى التاريخ القديم باسم كنعان ، ثم أطلق عليها اليونان اسم « فينيقية » من اللون الأحمر على ما يظهر ، وهو لون الصخور والجبال .

وقد امتازت كنعان قديما بالموانىء الصالحة ووقوعها على طريق التجارة من البحر الأبيض إلى خليج فارس إلى أقصى المشرق واشتهرت فى هذه الموانىء صيدا وصور وحيفا ، وكادت تجارة المشرق والمغرب تنحصر فى صيدا وصور ، لأن الشواطىء الجنوبية خلت فى الزمن القديم من الموانىء الصالحة ، ولم تكن وراءها مسالك مطروقة للتجارة غير مسالك الصحراء ، وهى يومئذ قليلة الأمن كثيرة التكاليف .

ولهذا الموقع الفريد حفلت أرض الجليل من قديم الزمن بالسياح والمقيمين من جميع أمم الحضارة فى المشرق والمغرب ، وتوثقت صلاتها بجميع الحضارات الإنسانية ، وراجت فيها الصناعات والمعارف العملية والنظرية ، ولا سيما المعارف التى لها علاقة بالملاحة كفن بناء السفن ورصد الكواكب والكتابة ، حتى تواتر أن تجار الفينيقيين وملاحيهم هم الذين نشروا الأبجدية فى بلاد البحر الأبيض ، ومنها انتقلت إلى سائر الأمم الأوربية .

وقد دخل بعض بلاد الجليل — أو كنعان — فى مملكة داود بعد انشائها ، ولكن العلاقة بين الجليل واليهودية ظلت على الدوام علاقة حذر وجفاء إن لم تكن علاقة حرب وعداء ، وكان أثر السيطرة اليهودية على بلاد الكنعانيين أن اليهود أخذوا من الكنعانيين معالم حضارتهم وعولوا عليهم فى الصناعة والتجارة ، وجاء فى العهد القديم غير مرة ذكر الاستعانة بالصناع والخبراء من أهل كنعان فى تشييد الهياكل والقصور اليهودية ، ومن ذلك فى سفر الملوك أن سليمان أرسل إلى حيرام ملك الكنعانيين يرجوه أن يأمر بقطع الخشب لبناء الهيكل ويقول له : « انك تعلم أنه ليس بيننا أحد يعرف قطع الخشب كالصيدونيين » .. ومنه وصف المهندس الذى كان أبوه من صدر وامه من سبط نفتالى « وكان ممتلئا حكمة وفهما ومعرفة لكل عمل فى النحاس »[1] .

وقد جاء فى الاصحاح السابع والعشرين من سفر حزقيال أنهم كانوا يتجرون بالحنطة والعسل والزيت والبلسان والحلوى وغيرها من منقولات الأمم الأخرى .

واعتمد اليهود على الكنعانيين فى شئون الثقافة والفن ولم ينته اعتمادهم عليهم عند مطالب التجارة والصناعة ، فنقلوا عنهم الكتابة وأوزان الشعر وأناشيد الصلوات ، وحدث غير مرة أنهم تركوا عقائدهم وتحولوا عنها إلى عقائد الكنعانيين ، وإلى ذلك يشير العهد القديم فى سفر القضاة حيث يقول : « وفعل بنو إسرائيل الشر فى عينى الرب وعبدوا البعليم وتركوا إله آبائهم الذى أخرجهم من أرض مصر » وإلى ذلك أيضا يشير العهد القديم فى سفر الملوك الأول حيث يقول النبي إيليا « إن بنى إسرائيل قد تركوا عهدك ونقضوا مذابحك وقتلوا أنبياءك » إلى أن يقول : « وقد أبقيت فى إسرائيل سبعة آلاف وهم كل الركب التى لم تجث للبعل وكل فم لم يقبله » .

ولما تكاثر عدد اليهود المقيمين فى الأقاليم الشمالية من فلسطين كالجليل

---

(١) الاصحاح السابع من الملوك الأول .

والسامرة ، تغيرت عاداتهم ومأثوراتهم ونظر إليهم أبناء اليهودية نظرتهم إلى الخوارج الذين انقطعوا عن أصولهم وتابعوا الغرباء على عاداتهم وآدابهم ، وكان الواقع أن أهل الجليل خاصة تعودوا الكلام بالآرامية وهى لغة أهل سورية الداخلية ، أو باليونانية ، وهى لغة القادمين من البحر أو من آسيا الصغرى ، واقتبسوا كثيرا من مأثورات الفرس والهند والعراق ، لأنهم كانوا يلتقون بأبناء هذه البلاد القادمين مع القوافل الشرقية ، ويرجح بعض المؤرخين أن الفينيقيين الأقدمين جميعا كانوا من قبائل الخليج الفارسى التى جلت عنه وسارت مع طريق القوافل حتى استقرت على شاطىء بحر الروم وظلت محافظة بعد ذلك على علاقتها بالبحار الشرقية .

وبلغ من بعض أهل اليهودية لأبناء ملتهم فى الشمال أن « حنا هيركانوس » المكابى أغار على الأقاليم الشمالية ، ومنها بلاد فى السامرة وبلاد فى الجليل ، فأعاد من فيها من اليهود إلى الجنوب ففضلوا البقاء على المهاجرة من بلاد آبائهم وأجدادهم أو من البلاد التى استوطنوها منذ زمن طويل ، ولبث السامريون منفردين بتقاليدهم ، ولبث أهل الجليل متهمين منظورا إليهم بعين الريبة والاستغراب .

ومما اتفقت عليه أقوال المؤرخين وتردد كثيرا فى روايات التاريخ أن جمهرة كبيرة من أهل الجليل كانوا عربا يتكلمون الآرامية ويلفظون العبرية بلهجة أجنبية يلحظها أهل الجنوب ويميزون المتكلم بها من كلمات قليلة تبدر منه عرضا على غير رؤية ، وكذلك عرف الحواريون فى الهيكل كما كانوا يعرفون فى كل فلسطين .

وقد كان من الأمثال السائرة على ألسنة اليهود المتعصبين لتقاليدهم وعاداتهم « أنه لا خير يأتى من الجليل » وفى إنجيل يوحنا أن نثنائيل عجب حين قال له صاحبه « إننا وجدنا الذى أنبأ عنه موسى » وأنه من الناصرة فى الجليل ، فأجابه مستغربا : « أمن الناصرة يجىء شىء صالح » [1] .

---

(١) الاصحاح الأول .

وفى إنجيل يوحنا أيضا يروى عن رجال الهيكل أنهم كانوا يقولون متهكمين « إنه لم يقم نبى قط من الجليل »[1] .

كانت السماحة الدينية وقلة التحرج هما سبب هذه النقمة على الجليل وأهله فى نفوس أبناء اليهودية المنكرين لكل سماحة والجامدين على كل حرج ولكن هذا السبب بعينه هو الذى جعل أرض الجليل أصلح منبت للدعوة الإنسانية التى ترقبها العالم فى ذلك العصر ، فما كان من اليسير أن تنبثق دعوة الإخاء بين الأمم فى كنف الحجر والجمود .

وقد اتفق بعد مولد السيد المسيح ببضع سنوات أن الجليل خرجت من سلطان ملك اليهودية على أثر وفاة هيرود الكبير ، وأنها دخلت هى والبادية المجاورة لها فى نصيب ابنه هيرود انتيباس وربما كان عليه السلام فى العاشرة من عمره حينما هدم الرومان عاصمة الأمير الجديد ، وبنيت العاصمة الجديدة طبرية على مقربة من الناصرة حيث نشأ عليه السلام ، ولا شك أنه فى نحو العاشرة يسمع أخبار هذه الضربة ويسمع أخبار الثورة التى تقدمتها وأعقبت بعدها ما أعقبته من جرائرها ، وقد كانت مشكلة التعصب أو مشكلة السماحة الدينية حديث صباه وأول ما طرق مسمعه من مشكلات السياسة والدولة ، ولما سميت العاصمة الجديدة باسم العاهل الرومانى طيبريوس سمع ولا شك تعقيب الكبار على ذلك الملق الرومانى وشهد العبث من ذوى السياسة والإمارة قبل الأوان ، وادرك أن العواصم تهدم وتبنى ، وأن الدول تدول ، وأن الطاغية يتزلف والمتزلف يطغى ، وأن مجد الرياء زيف وخواء ، فسبحت نفسه البريئة فى آفاق هذه الآفاق وصور لفؤاده الذكى ملكوت السماء ، صورة غير هذه الصورة ، تخالفها ولا تزال تختلف عنها كلما تقدمت به الأيام .

---

(١) الاصحاح السابع .

تاريخ الميلاد

يفهم من رقم التقويم الميلادى أن السيد المسيح ولد فى السنة الأولى للميلاد ، وعلى هذا الحساب يجرى العمل بين الأمم الأوروبية منذ سنة ٥٣٢ للميلاد وهى السنة التى دعا فيها الراهب دينوسيس الصغير (Exigus) إلى تاريخ الأيام من السنة الأولى للميلاد ، وصح الحساب على تقديره ثم جرى العمل على حسابه إلى الآن .

ولم يكن الرجل صغيرا فى مكانته الدينية ، ولكنه أطلق لقب الصغير على نفسه من قبيل التواضع والانكسار ، وقد حقق بحوثه ومراجعاته ما استطاع فى زمانه فلم يسلم من الخطأ فى حساب بضع سنوات ، ثم تعذر إصلاح هذا الخطأ عند ثبوته فتقرر استدراكه بإضافة أربع سنوات إلى التقويم القديم الذى يحسبه أصحابه منذ بدء الخليقة ، واعتبروا أن السيد المسيح ولد فى سنة أربعة آلاف وأربع بحساب ذلك التقويم .

أما القول الراجح فى تقدير المؤرخين الدينيين وغير الدينيين فهو أن ميلاد السيد المسيح متقدم على السنة الأولى ببضع سنوات وأنه على أصح التقديرات لم يولد فى السنة الأولى للميلاد .

فنى انجيل متى أنه عليه السلام قد ولد قبل موت هيرود الكبير ، وقد مات هيرود قبل السنة الأولى للميلاد بأربع سنوات .

وقد جاء فى إنجيل لوقا أن السيد المسيح قام بالدعوة فى السنة الخامسة عشرة من حكم القيصر طيبريوس وهو يومئذ يناهز الثلاثين ، وقد حكم طيبريوس الدولة الرومانية بالاشتراك مع القيصر أوغسطس سنة ٧٦٥ من تأسيس مدينة رومة ، ومعنى هذا أن السيد المسيح قد بلغ الثلاثين حوالى سنة ٧٧٩ رومانية ، وأنه ولد سنة ٧٤٩ رومانية أى قبل السنة الأولى للميلاد بأربع سنوات .

ويذكر انجيل لوقا أن القيصر أوغسطس أمر بالاكتتاب — أى الاحصاء — فى كل المسكونة ، وأن هذا الاكتتاب الأول جرى إذ كان كيرنيوس واليا على سورية « فذهب الجميع ليكتتبوا كل فى مدينته ، وصعد يوسف ... من مدينة الناصرة إلى اليهودية .. ليكتتب مع مريم امرأته المخطوبة وهى حبلى ، وتمت أيامها هناك فولدت ابنها البكر » .

والمقصود بالاكتتاب هنا — على ما هو ظاهر — أمر الاحصاء الذى أشار إليه المؤرخ يوسفوس وأرخه بما يقابل السنتين السادسة والسابعة للميلاد ، ولا يمكن أن يكون قبل ذلك لأن تاريخ ولاية كيرنيوس معروف وهو السنة السادسة ، فيكون السيد المسيح إذن قد ولد فى نحو السنة السابعة للميلاد ، وتكون دعوته قد بدأت وهو فى الثالثة والعشرين أو الرابعة والعشرين ، وهو تقدير يخالف جميع التقديرات الأخرى ويخالف المعلوم من مأثورات الإسرائيليين ، فان الكاهن اللاوى عندهم كان يباشر عمله بعد بلوغ الثلاثين ، وكان الأحبار المجتهدون عندهم يبلغون الخمسين قبل الجلوس للتفسير والافتاء فى مسائل الفقه الكبرى ، ولهذا قالوا عن السيد المسيح أنه لم يبلغ الخمسين بعد ويدعى أنه يرى ابراهيم ويستمع إليه ، ولو أنه بدأ الدعوة قبل الثلاثين لكان الأحرى أن يعجبوا لكلامه قبل بلوغه سن الكهنة اللاويين .

ويغلب على تقدير المؤرخين الثقات ان الاحصاء المشار إليه هو الاحصاء الذى ذكره ترتليان Tertullian وقال إنه جرى فى عهـد ساتورنينس Saturninus وإلى سورية إلى السنة السابعة قبل الميلاد ، فاذا كان هذا هو الإحصاء المقصود فالسيد المسيح كان قد بلغ السابعة فى السنة الأولى للميلاد .

ومن القرائن التى لا نريد أن نهملها قرينة الكوكب الذى قيل إن كهان المجوس تتبعوه من المشرق ليهتدوا به إلى المكان الذى ولد فيه السيد المسيح .

فمن المعروف أن خبراء فينيقية وفارس كانوا يشتغلون بالفلك والتنجيم ، وأنهم كانوا فى عصر الميلاد يرقبون حادثا جللا فى التاريخ البشرى حوالى

سنة الميلاد ، وكانوا كذلك يرصدون النجوم ليعرفوا من طوالعها بشائر ذلك الحادث الجلل المترقب من حين إلى حين ، وكان قران المشترى وزحل من الطوالع الهامة عند سكان المشرق على البحر حيث ترصد الكواكب للملاحة والتفاؤل ، وفى داخل البلاد الفارسية حيث ترصد الكواكب للعبادة واستيحاء الإرادة الإلهية ، ويكفى أن نذكر بقايا هذه العادة فى البقعة الفينيقية إلى ما بعد أيام المعرى لنعلم شأن الأرصاد هنالك كما كانت فى الزمن القديم ، وقد كان المعرى الضرير يعنى نفسه بهذه الأرصاد ويقول عن قران المشترى وزحل خاصة فى لزومياته .

قران المشترى زحلا يرجى ... لايقاظ النواظر من كراها
وهيهات البرية فى ضلال ... وقد فطن اللبيب لما اعتراها
وكم رأت الفراقد والثريا ... قبائل ثم أضحت فى ثراها
تقضى الناس جيلا بعد جيل ... وخلفت النجوم كما تراها

فاذا كان هذا ما تخلف من العناية بالأرصاد فى البقعة الفينيقية إلى أيام المعرى فليس من الأمانة للبحث أن نهمل قرائن الإرصاد كل الإهمال ، لأننا نرفض التنجيم ونرفض دعوى المجوس فيه .

فمن المعقول أن ننكر على المنجمين علمهم بالغيب من رصد الكواكب وطوالع الأفلاك ، ولكن لا يلزم من ذلك أن ننفى ظهور الكوكب الذى رصدوه ، وأن نبطل دلالته مع سائر الدلالات ، وبخاصة حين تتفق جميع هذه الدلالات .

وقد ذكر فردريك فرار فى كتابه « حياة المسيح » [1] أن الفلكى الكبير كبلر حقق وقوع القران بين المشترى وزحل حوالى سنة ٧٤٧ رومانية ، ويقول فرار فى وصف هذه الظاهرة : « إن قران المشترى وزحل يقع فى المثلث نفسه مرة كل عشرين سنة ، ولكنه يتحول إلى مثلث آخر بعد مائتى سنة ، ولا يعود إلى المثلث الأول بعد عبور فلك البروج كله إلا بعد

(١) الجزء الأول صفحة ٣١ الطبعة الثانية من مطبعة كاسل .

انقضاء سبعمائة وأربع وتسعين سنة وأربعة أشهر واثنى عشر يوما ، وقد تراجع كيلر بالحساب فتبين له أن القران على هذا النحو حدث سنة ٧٤٧ رومانية فى المثلث النوتين أو الحوتين وأن المريخ لحق بهما سنة ٧٤٨ رومانية.

ويظهر من هذا الحساب أن تاريخ الميلاد يضاهى التاريخ الذى يستخلص من التقديرات الأخرى على وجه التقريب ، وأن السيد المسيح ولد فى نحو السنة الخامسة أو السادسة قبل الميلاد .

ونعود فنقول إن إثبات الرصد لا يستلزم الإيمان باطلاع المجوس على الغيب من مراقبة الأفلاك ، وكل ما يفهم ،، ولا يجوز أن يهمل أن الذين كتبوا تاريخ السيد المسيح بعد عصره بنحو جيلين كانوا يتناقلون خبر تلك الظاهرة ويؤمنون بدلالتها على أنها حدث عظيم فقرنوا بينها وبين ميلاد المسيح المنظور ، ولعل الأناجيل قد دونت والناس يتحدثون بقران فلكى من قبيل ذلك القران فى حكم القيصر هادريان ، فقد ظهر يومئذ مسيح كذاب آمن به الربانى عقيبة ليدحض دعوى المسيحيين ، وسماه ابن الكوكب « بار كوكبه بالعبرية » ونقش على العملة التى سكها صورة كوكب ، فعادت الذاكرة بكتاب الأناجيل إلى تلك الظاهرة الفلكية النادرة ، بعد الدعوة المسيحية بنحو سبعين سنة .

* * *

على أن الدراسات الأخيرة فى علم المقابلة بين الأديان تسوق المؤرخ الذى يكتب عن تاريخ المسيح حتما إلى مبحث عويص أدق جدا من المبحث الذى يدور حول السنة الميلادية ، فان القرن الثامن عشر قد أخرج للناس مدرسة الشك المطلق فى مقررات العلم القديم ووقائع التاريخ المتواتر ، فشك الكتاب فى وجود الأنبياء والمرسلين وكان الشك يتناول كل نبى وكل صاحب دين غير محمد عليه السلام : شكوا فى بوذا كما شكوا فى ابراهيم وموسى وعيسى . وسرى الشك إلى الأدب كما سرى إلى الدين ، فشكوا فى شخصية هوميروس

وفى شخصية شكسبير وظن بعض المثبتين للشخصيات المتأخرة فى التاريخ أنها وجدت فعلا ولكنها لم تضع ما تنسبوه إليها ولم تكتب ما ينشر بأسمائها .

وقد زار فولتير — أمام الشاكين — بلاد الانجليز فوجد هناك مدرسة بولنجبروك تتحدث بغاية السهولة فى شبهاتها عن وجود السيد المسيح ، وكان نابليون يسأل العالم الألمانى ويلاند : هل يعتقد أن المسيح شخص تاريخى وجد كما وصفوه ؟ .. وجاء القرن التاسع وقد طغت على ميدان الدراسات الدينية موجات من الكتب التى ألفها الألمان والدنمركيون والفرنسيون والانجليز يفندون بها أقوال المؤرخين ويرجحون أن السيد المسيح شخصية من شخصيات الخيال ، وليس من المستطاع فى هذا الحيز أن نورد أقوالهم مفصلة أو مجملة فى هذا الموضوع ، فانّ أسماء المؤلفين والمؤلفات وعناوين المسائل التى طرقوها وخلاصة البراهين التى شفعوا بها بيان تلك المسائل تستغرق وحدها كتابا كهذا الكتاب ، ولكننا نجتزىء بتلخيص الأساسين المهمين اللذين قامت عليهما مدرسة الشك فى وجود السيد المسيح ، وأحدهما أنه عليه السلام لم يذكر فى التواريخ القديمة التى فصلت أخبار عصره والآخر أن روايات التلاميذ عنه قد سبقت روايتها عن شخصيات أخرى من شخصيات الزمن القديم وبعضها أقرب إلى الأساطير والفروض .

أما المؤرخون الذين خصوهم بالذكر فهم يوسفوس Josephus وتاستيس Tacitus وسوتينوس Seutonius وكلهم ممن أرخوا عصر الميلاد ولم يثبتوا وجود السيد المسيح بما كتبوه عن أيامه .

نعم وردت فى نسخ من تاريخ يوسفوس إشارة مقتضبة إلى « عيسى القديس » ولكن النقاد التاريخيين يجزمون بأنها مضافة إليه ، ويؤكلون أنها أضيفت بقلم أحد القراء المتأخرين الذين عجبوا لخلو التاريخ من الإشارة إلى أعظم الحوادث فى ذلك العصر ، فأباحوا لأنفسهم أن يضيفوا تلك الإشارة كأنها من كلام يوسفوس على اعتبار أن الحقائق التاريخية أمانة عند من يعلمها وليست أمانة المؤلف وحده سواء عرفها أو لم يعرفها ، وما كان من المعقول

أن المؤرخ اليهودى الذى ينكر المسيحية يكتب عن رسول هذا الدين فيقول : « إنه فى ذلك العهد عاش عيسى ذلك الإنسان القديس — إن جاز أن يسمى إنسانا بعدما أتى به من المعجزات البينات وعلم الناس وتلقى الحق فاستبشر به ، واتبعه كثير من اليهود والإغريق ، وكان هو المسيح » .

قالوا : إن يوسفوس اليهودى الذى مات على دينه لا يكتب هذا ولا يؤمن إيمان المسيحيين ، ولو أنه آمن كما آمنوا لما اكتفى بتسجيل ذلك الحادث العظيم فى ثلاثة سطور جاءت عرضا بغير تعقيب أو تفصيل .

ومن اللاهوتيين الذين عقبوا على هذه الملاحظة القس هورن Horne الذى ألف كتابه « مقدمة الدراسة النقدية والتعريف بالكتب المقدسة » وأدرك به هجمة الشكوك الأولى فى سنة ١٨٣٦ [1] .

فقد ذكر هورن أن هذه العبارة موجودة فى جميع النسخ المخطوطة والمطبوعة التى حفظتها مكتبة الفاتيكان من الترجمة العبرية ، وأن العبارة نفسها موجودة فى النسخة العربية التى تحفظها الطائفة المارونية بلبنان ، وأن كتاب القرن الرابع والقرن الخامس من السريان والإغريق والمصريين قد أطلعوا عليها واستشهدوا بها وأن يوسفوس قد أشار فى موضع آخر إلى جيمس أسقف أورشليم حيث قال : « إن حنانا عقد السنهدرين اليهودى وأحضر أمامه جيمس أخا عيسى المسمى بالمسيح ومعه آخرون ثم أمرهم أن يرجموا عقابا لهم على عصيان الشريعة » .

قال هورن : ولو أن أوسيباس Eusobius أو من استشهد بالعبارة المتقدمة كان قد أثبتها مختلقا لها لما عدم ناقدا يكشف دسيسته من المطلعين على كتاب يوسفوس وهو كتاب له مكانة موقرة بين الرومان من قديم الزمن ، وبفضل هذه المكانة كسب يوسفوس شرف الوطنية الرومانية ، بل كان من

---

(١) Intrduction to the Critical Study and Knowledge of the Holy Scriptures.

الراجح جـداً أن يتصدى اليهود لمن يدس تلك العبارة فى تاريخهم الأشهر فيفضحوه تفنيداً له وتفنيداً للديانة التى يدعيها .

وألمع هورن إلى الشكوك التى تحيط بتلك العبارة لأنها لم تذكر قط فى كلام معروف قبل أوسبياس ، فقال إن هذه الشكوك لا تقيم حجة لأصحابها لأن أقطاب المسيحية كانوا فى غنى عن الاستشهاد بأقوال المؤرخين مع استطاعتهم أن يثبتوا رسالة السيد المسيح فى نبواءات كتب التوراة .

وختم هورن ردوده بتوجيه عبارة يوسفوس إلى معنى لا يستلزم أن يكون المؤرخ اليهودى مؤمناً بالمسيحية أو برسالة المسيح المنتظر ، ولعله سماه « المسيح » رواية عن أتباعه الذين كانوا يدعونه مسيحاً ويعرفونه بشهرته الغالبة .

أما المؤرخ الرومانى تاسيتس الذى كتب تاريخه حوالى سنة (١١٥ ميلادية) فأقدم ما ذكره عن السيد المسيح لا يرجع إلى أقدم من سنة أربع وستين ميلادية ، ولم يذكره مباشرة بل أشار إلى اسمه فى سياق الكلام على حريق رومة حيث قال إن الإمبراطور نيرون أقلقه اتهام الناس إياه باحراق المدينة فألقى التهمة على طائفة العامة الذين يسمون بالمسيحيين وينسبون إلى المسيح الذى حكم عليه بونتياس بيلاطس بالموت فى عهد القيصر طيبريوس » .

ولا يعرف الآن علام استند تاسيتس فى رواية هذه النسبة ، ولكنها كانت على كل حال رواية شائعة بين أناس كثيرين لم يشهدوا عصر المسيح .

وكذلك لم يذكر سويتنيوس خبراً مباشراً عن السيد المسيح ولكنه قال فى تاريخه للقيصر كلوديس « أنه نفى من رومة جماعة اليهود الذين كانوا على الدوام يثيرون المتاعب بتحريض كريستس » وكتبها هكذا باللاتينية Chrestus لأن الاسم التبس عليه بين كرستس بمعنى الطيب وكريستس بمعنى المسيح .

وأياً كان مسند هذا المؤرخ فلا يستفاد من روايته إلا أن العاصمة الرومانية كان فيها أناس يعرفون باسم المسيحيين عند منتصف القرن الثانى .

الميلاد ، وأنه كان يحسب أن الزعيم كرستس كان يحرض أتباعه بنفسه فى ذلك التاريخ .

وقد عاش فى عصر السيد المسيح نفسه كتاب ومؤرخون من اليهود مثل الفيلسوف فيلون الذى سبق ذكره والمؤرخ جستس الطبرى الذى عاش فى الجليل أيام الدعوة المسيحية وكتب تاريخ قومه من عهد موسى إلى نهاية القرن الأول للميلاد ولم ترد فى تاريخه إشارة مباشرة أو غير مباشرة إلى الدعوة المسيحية .

تلك خلاصة الحجة التى تقوم على خلو التواريخ من ذكر الدعوة المسيحية فى عصرها .

أما الحجة الأخرى وهى حجة التشابه بين القصص المروية عن السيد المسيح والقصص المروية عن الأرباب فى العبادات الشرقية القديمة ، فهى تعتمد على تفصيلات كثيرة تحيط بأخبار المعجزات والشعائر فى ديانات الأقدمين من المصريين والبابليين والفرس والهنود والكنعانيين ، وأكثر النقاد المتشبثين بهذه الحجة من علماء المقابلة بين الأديان المطلعين على أديان المشرق فى لغاتها ، ويغلب عليهم ترجيح القول بأن أخبار المسيح بقية من بقايا الديانات الشمسية يدل عليها عدد « اثنى عشر » الذى يشير إلى البروج ويشير إلى عدد التلاميذ ، ويدل عليها الاحتفال بالميلاد فى يوم الاعتدال الخريفى على حساب الأقدمين ، والاحتفال بيوم الأحد الذى اعتقدوا قديما أنه يوم الشمس ويعرف حتى اليوم فى اللغات الأوربية بهذه النسبة ، وذلك عدا المشابهة فى اسم الأم والولادة فى المذود وركوب « الحمار ابن الأتان » وغير ذلك من الشعائر والمعجزات .

والغريب فى شأن هؤلاء العلماء أنهم لم يكلفوا أنفسهم تفسيرا مقبولا لوجود المسيحيين بهذه الكثرة بعد جيل واحد من عصر الميلاد ، فإن التفسيرات التى فرضوها تتسع لشكوك كثيرة كلها أغرب من القول بشخصية المسيح التاريخية ، ولا يكفى أن يقال إن أخبار المعجزات والشعائر

مقدمة لتفسير الدعوة المسيحية بغير داع وبغير محور معلوم تدور عليه ، وقد توفى بولس الرسول فى نحو سنة سبعة وستين ميلادية وعاش قبل ذلك نحو ثلاثين سنة يبشر باسم المسيح ، ولم يكن قد طال العهد بتاريخ الدعوة ولم يحدث خلال ذلك ما يفسر تكوينها من المعجزات والشعائر التى ظلت قبل ذلك مئات السنين متواترة على الألسنة وكان تواترها قديما أقوى وأشيع من تواترها بعد تقادم العهد وتتابع السنين .

وكل ما يفهم من سكوت المؤرخين المعاصرين على سبيل الجزم أن المؤرخين لم يدركوا خطرها ولم يميزوها من الحركات المتفرقة التى كانت تختلج بها طوائف اليهود على صفة عامة ، ويعزز هذا أن الطائفة الجديدة لم تذكر باسم خاص فى الأناجيل جميعا غير ثلاث مرات ، فذكر أتباع السيد المسيح باسم المسيحيين فى الإصحاح الحادى عشر من أعمال بولس الرسول حيث قيل إن التلاميذ دعوا « مسيحيين » لأول مرة فى مدينة (انطاكية) ثم جاء فى الاصحاح السادس والعشرين على لسان الملك اغريباس أنه قال محتجا : « أهون مما تقنعنى به أن أصير مسيحيا » وجاء فى الإصحاح الرابع من رسالة بطرس : « إن عيرتم باسم المسيح فطوبى لكم .. ان أحدكم لا يتألم لأنه قاتل أو سارق أو فاعل شر ، أو صاحب فضول ، فإن تألم لأنه مسيحى فلا يخجل »

وجملة ما يؤخذ من الكلمة فى هذه المواضع الثلاثة أنها كانت نسبة ازدراء وتعيير على ألسنة أعداء المسيحيين ، وليس من الصعب أن يضيع الكلام عن طائفة لا عنوان لها بين ما يكتب عن جماهير ذلك الزمن فى غمار التواريخ ، وبخاصة إذا كانت لم تبلغ من الخطر ما يدركه مؤرخ الحوادث الكبرى ، وكان من هم أولئك المؤرخين أن يستصغروا شأنها لأنها طائفة مغضوب عليها فى مراجع الدين ومراجع الدولة ، فالهيكل ينكرها والحكومة الرومانية تترفع عنها ، ولم يحدث قبل ذلك أن طائفة من طوائف فلسطين جمعت بين غضب السلطتين ، وهى مع ذلك غير معروفة بعنوان تدور عليه الأخبار !

* * *

ويبدو لنا أن نشوة العلم الجديد — علم المقابلة بين الأديان — هى التى دفعت أصحابها فى القرن الثامن عشر إلى تحميل المشابهات والمقارنات فوق طاقتها فإننا نرى أمامنا فى هذا العصر أن هذه المشابهات لا تنفى ولا تثبت ، بل لعلها إلى الإثبات أقرب منها إلى النفى على الإجمال .

نحن نرى فى هذا العصر أن أتباع الطرق الدينية يتنافسون فينسب كل منهم إلى وليه المختار كرامات جميع الأولياء الآخرين لأنه يؤمن بتلك الكرامات ولا يشك فى وقوعها ولكنه يعتقد أن وليا واحدا هو الجدير باتيانها وهو الولى الذى اصطفاه وفضله على غيره من الأولياء .

ونحن نرى فى هذا العصر وفى جميع العصور أن المشهور فى صفة من الصفات تضاف إليه نوادر تلك الصفة وعجائبها ويصبح علما لتلك الصفة فى كل ما يروى عنها وينسب إليه ، فالمشهور بالكرم تنسب إليه المكارم جميعا بغير سند ، والمشهور بالشجاعة يذكر كلما ذكرت نادرة من نوادر الشجاعة ثم يذكر بعد ذلك كأنه هو صاحب تلك النادرة أو صاحب نادرة مثلها إن لم تكن تفوقها وتزيد عليها فى بابها .

وينبغى أن نذكر أن المسيحية وجدت قبل أن تقترن بها تلك المراسم والتقاليد ، وأن المسيحيين الأوائل أعرضوا عن كثير منها واستنكروه ومنعوه ، ومنهم من كان يحرم الاحتفال بمولد المسيح فى يوم كائنا ما كان ، وعلى رأسهم أوريجين الفقيه العظيم . وقد مضت ثلاثة قرون قبل أن تحتفل كنيسة من الكنائس المعتمدة بعيد الميلاد فى تاريخ من التواريخ ، ثم اختلفت الكنائس فاحتفلت الكنيسة الشرقية بالميلاد فى السادس من شهر يناير واحتفلت به الكنيسة الغربية فى الخامس والعشرين من شهر ديسمبر ، ويرجح أنها اختارت هذا اليوم لتصرف المسيحيين عن حضور المحافل الوثنية التى كانت تتخذه عيدا للشمس وتعلن فيه الأفراح بانتصار النور على الظلام ، لأن الاعتدال الخريفى هو الموعد الذى يقصر فيه الليل ويطول النهار .

ولا يخفى أن بولس الرسول قد ولد فى طرسوس وهى مركز من مراكز

بالديانة المثرية ، فليس من المستغرب أن تعلق بذهنه بعض مصطلحاتها وعاداتها ، وأن يكون قد تقبل بعضها تيسيرا لإقناع أتباعها بالدعوة الجديدة ، فلم يزل من سياسة التبشير فى جميع الدعوات أن تيسر فى هذا الباب ما يستطاع تيسيره ، وقد ظلت هذه السياسة مرعية عدة قرون ، إذ نقل الراهب Bade فى تاريخ الكنيسة الانجليزية خطابا لغريغورى الأول (تاريخه سنة ٦٠١ ميلادية) يستشهد فيه بنصيحة المستشار البابوى مليتس mellitus الذى كان ينهى عن هدم المعابد الوثنية ويرى الابقاء عليها « وتحويلها من عبادة الشياطين إلى عبادة الإله الحق ، كى يهجر الشعب خطايا قلبه ويسهل عليه غشيان المعاهد التى تعود ارتيادها » (١) .

ولا خلاف فى تكرار العدد « اثنى عشر » فى كثير من الديانات ، ولكن تكراره هذا لا يستلزم أن يكون كل معدود به خرافة أو أسطورة غير تاريخية ، وقد كان خليقا بأصحاب المقارنات والمقابلات أن يذكروا هذه الحقيقة بصفة خاصة ، إذ أقرب المؤرخين إليهم سوتنيوس صاحب تاريخ « القياصرة الاثنى عشر » وكلهم من « الشخصيات التاريخية » .

وفى تاريخ الإسلام تفصيل مذهب الشيعة الأمامية وهم يدينون بالولاء لاثنى عشر إماما معروفين بأسمائهم ليس منهم من يمكن أن يقال فيه إنه « شخصية غير تاريخية » .

على أن النقاد الذين شكوا فى وجود السيد المسيح قد شكوا كذلك فى وجود يوشع بن نون وظنوا فيه كما ظنوا فى السيد المسيح أنه رمز من رموز العبادات الشمسية لأنه يسير الشمس ويقفها عن مسيرها ، ولم يصل إلى علم هؤلاء النقاد أن اسم يوشع بن نون وجد منقوشا على حجر عند « توميليا » بشمال أفريقية حيث أقام الفينيقيون مستعمرتهم (قارية خداشة) التى عرفت فيما بعد باسم قرطاجة ، وعلى ذلك الحجر الذى كشف (سنة ١٥٤٠ ميلادية) :

(١) كتاب من الوثنية إلى المسيحية فى الدولة الرومانية (الفصل الثانى)
Paganism into Christianity in the Roman Empire by Hyde

كتابة بالفينيقية يقول كاتبوها « إننا خرجنا من ديارنا لننجو بأنفسنا من قاطع الطريق يوشع ابن نون » (١) .. وليس كاتبوا هذا الكلام عن النبي الإسرائيلي ممن يهتمون بالحرص على إثبات وجوده ونفي الشبهات عن سيرته وتاريخه .

وقد تعب أصحاب المقارنات والمقابلات كثيرا في اصطياد المشابهات من هنا وهناك ولم يكلفوا أنفسهم جهدا قط فيما هو أولى بالجهد والاجتهاد ، وهو استخدام المقارنات والمقابلات لإثبات سابقة واحدة مطابقة لما يفرضونه عن نشأة المسيحية ، فمتى حدث في تاريخ الأديان أن أشتاتا مبعثرة من الشعائر والمراسم تلفق نفسها وتخرج في صورة مذهب مستقل دون أن يعرف أحد كيف تلفقت وكيف انفصلت كل منها عن عبادتها الأولى ؟ ومن هو صاحب الرغبة أو صاحب المصلحة في هذه الدعوة ؟ وأي شاهد على وجوده في تواريخ الدعاة المعاصرين لسنة الميلاد ؟ وكيف برز هذا العامل التاريخي الديني الخطير على حين فجأة قبل أن ينقضي جيل واحد ؟ ولماذا كان يخفي مصادر الشعائر والمراسم الأولى ولا يعلنها إلا منسوبة للسيد المسيح ؟

إن استخدام المقارنات والمقابلات في تحقيق هذه السابقة أولى بمؤرخي الأديان من كل ما جمعوه أو فرقوه لينتهوا به إلى فرض منقطع النظير .

* * *

على أن صناعة النقد التاريخي تتهم نفسها بالعجز البالغ إذا لم تستطع أن تعتمد على الكلام المروي في تقرير « شخصية القائل » وتحقيق مكانه من التاريخ ، وبين أيدينا كلام السيد المسيح كما روته الأناجيل ينبئنا في هذه الناحية عن كثير .

فمهما يكن من فصل القول في استقلال كل إنجيل أو اعتماد بعضها على بعض فهناك علامات واضحة لا يمكن أن يقصدها كتاب الأناجيل ، لأنها

---

(١) الفصل الرابع من المجلد الثالث من صحائف شمبرز .

Chamber's papers

علامات نفهما الآن وفاقا لما درسناه من تطور الدعوة المسيحية ، ولم يكن لها محل فى رؤوس الرواة المشاهدين أو الناقلين .

فان روايات الأناجيل تطابق التطور المعقول من بداية الدعوة إلى نهايتها ، ومن التطور المعقول أن تبتدىء الدعوة قومية عنصرية ثم تنتهى إنسانية عالمية ، وأن تبتدىء فى تحفظ ومحافظة ثم تنتهى إلى الشدة والمخالفة ، وأن تبتدىء بقليل من الثقة فى شخصية الداعى ثم تنتهى بالثقة التى لا حد لها فى نفوس الأتباع والأشياع ، وهكذا كانت الدعوة المسيحية كما روتها الأناجيل دون أن يتعمد كتابها تطبيق أحوال التطور أو تلتفت أذهانهم إلى معنى تلك الأحوال .

وربما كان أوضح من هذا فى الإبانة عن شخصية الداعى أن أقواله تتضمن نقدا لجميع المذاهب التى كانت شائعة فى عصره ، وأن هذه الأقوال تشير إلى وجهة نظر واحدة لم يكن لها وجود فى غير تلك الشخصية .

فالأقوال المسيحية تنتقد الفريسيين ولكنها لا تصدر فى نقدهم عن وجهة نظر الصدوقيين أو السامريين .

وتنتقد أصحاب النصوص ولكنها لا تصدر فى نقدهم عن وجهة نظر الإباحيين والمتحللين .

وتنتقد الآسين المتعصبين ولكنها لا تدين بآراء الفلاسفة أو الأبيقوريين والرواقيين

وتنتقد السامريين ولكنها لا ترفض السامرية بتاتا ولا ترفض غيرها من النحل كل الرفض من جانب محدود .

وتستشهد بأقوال موسى وابراهيم والأنبياء ولكنها لا تتقيد بكل قول منها تقيد المحاكاة ولا تقتدى بها اقتداء التابع للمتبوع .

وإذا جمعنا وجوه النقد جملة واحدة أمكن أن نردها كلها إلى وجهة نظر متناسقة وقوام شخصى مرسوم ، وقد يقع فيها الاستثناء حيث ينبغى أن

يقع ، لأن التناسق الذى يجرى مجرى الأعمال الآلية على وتيرة واحدة لا يوافق طبيعة الدعوات الحية المتقدمة ، ولا سيما الدعوات فى عصر الهدم والبناء والمراجعة والتثبيت.

هذه علامات « موضوعية » لها شأنها الأكبر فى الإبانة عن شخصية السيد المسيح ، وأصدق تلك العلامات ، بعد هذا كله إن الدعوة جاءت فى إبانها وفاقا لمطالب زمانها ، بحيث تكون الغرابة أن يخلو الزمن من رسول يقوم بالدعوة ويصلح لأمانتها ، لا أن يوجد الرسول ونستغرب أن يكون ، ولو أن مؤلفا بعد ذلك العصر أراد أن يخلق رسولا يوافق رسالته المنشودة لوقف به الخيال دون ذلك التوفيق المطبوع .

صور وصفية

من أقدم الصور الوصفية التي حفظت للسيد المسيح صورة تداولها المسيحيون في القرن الرابع وزعم رواتها أنها كتبت بقلم بيليوس لنتيولس صديق بيلاطس حاكم الجليل من قبل الدولة الرومانية ، رفعها إلى مجلس الشيوخ الروماني في عصر الميلاد ، وجاء فيها : « إنه في هذا الزمن ظهر رجل له قوى خارقة يسمى يسوع ويدعوه تلاميذه بابن الله . وكان للرجل سمت نبيل وقوام بين الاعتدال ، يفيض وجهه بالحنان والهيبة معا ، فيحبه من يراه ويخشاه . شعره كاون الخمر منسرح غير مصقول ، ولكنه في جانب الأذن أجعد لماع ، وجبينه صلت ناعم ، وليس في وجهه شية ، غير أنه مشرب بنضرة متوردة ، وسيماه كلها صدق ورحمة ، وليس في فمه ولا أنفه ما يعاب ، وعيناه زرقاوان تلمعان . مخيف إذا لام أو أنب ، وديع محبب إذا دعا وعلم ، لم يره أحد يضحك ، ورآه الكثيرون يبكي ، وهو طويل له يدان جميلتان مستقيمتان ، وكلامه متزن رصين لا يميل إلى الإطناب ، وملاحته في مرآه تفوق المعهود في أكثر الرجال » .

إلا أن هذه الرواية مشكوك فيها وفي اسنادها التاريخية ، ومثلها جميع الروايات التي تداولها الناس في ذلك العصر أو بعده ، ومنها ما لا يعقل ولا يظن به إلا أنه مدسوس من أعداء المسيحية في العصور الأولى ، كقول بعضهم إنه كان قميئا أحدب دميم الصورة . فإن الشريعة الموسوية كانت تشترط في الكاهن سواء الخلق وسلامة الجسم من العيوب ، ولا ترسم لخدمة الدين من يعيبه نقص أو تشويه ، فمن غير المعقول أن يتصدى للرسالة من يعاب بالحدب والدمامة والقماءة معا ، وأن يخلو الكلام المنسوب إلى خصومه أو أنصاره من الإشارة إلى ذلك في معرض الملام أو معرض العجب ومداراة العيوب الجسدية بالمحاسن الروحية .

نعم إن الأنبياء في بني إسرائيل لم يكن لهم راسم يرشحهم للنبوة بشروط معلومة كشروط الكهانة ، ولكن اتصاف النبي بالدمامة والحدب لا يبقى

فى طى الكتمان مع التحدث عنه وعن المشوهين وأصحاب الآفات الذين يبرئهم ويساقون إليه ليشفيهم من الشوهة والآفة .

وليس فى الأناجيل إشارة إلى سمات السيد المسيح تصريحا أو تلميحا يفهم من بين السطور ولكن يؤخذ من كلام نثنائيل حين رآه لأول مرة إنه رائع المنظر ملكى الشارة . إذ قال له « أنت ابن الله . أنت ملك إسرائيل » .. وأراد المسيح أن يفسر ذلك بأنه تحية يجيب بها الفتى على تحيته ، ولكنها على أية حال تحية الأتقال للأحدب وولا للمبم المشنوء .

غير أننا نفهم من أثر كلامه أنه كان مأنوس الطلعة يتكلم فيوحى الثقة إلى مستمعيه ، وذلك الذى قيل عنه غير مرة إنهم أخذتهم كلماته ، لأنه « يتكلم بسلطان » وليس كما يتكلم الكتبة والكهان .

وقد كان ولا ريب فصيح اللسان سريع الخاطر ، يجمع إلى قوة العارضة سرعة الاستشهاد بالحجج الكتابية التى يستند إليها فى حديث الساعة كلما فوجىء باعتراض أو مكابرة ، وكانت له قدرة على وزن العبارة المرتجلة ، لأن وصاياه مصوغة فى قوالب من الكلام الذى لا ينظم كنظم الشعر ولا يرسل إرسالا على غير نسق ، ويغلب عليه إيقاع الفواصل وترديد اللوازم ورعاية الجرس فى المقابلة بين الشطور .

وذوق الجمال باد فى شعوره كما هو باد فى تعبيره وتفكيره ، والتفاته الدائم إلى الازدهار والكروم والجنائن التى يكثر من التشبيه بها فى أمثاله ، عنوان لما طبع عليه من ذوق الجمال والإعجاب بمحاسن الطبيعة ، وكثيرا ما كان يرتاد المروج والحدائق بتلاميذه ويتخذ من السفينة على البحيرة — بحيرة طبرية — منبرا يخطب منه المجتمعين على شاطئها المعشوشب كأنما يوقع كلامه على هزات السفينة وصفق الموج وخفقات النسيم ، ولم يؤثر عنه أنه ألف المدينة والحاضرة كما كان يألف الخلاء الطلق حيث يقضى سويعات الضحى والأصيل أو سهرات الربيع فى مناجاة العوالم الأبدية على قمم الجبال وتحت القبة الزرقاء .

وقد أطبقت روايات الأناجيل على أنه كان عظيم الأثر فى نفوس النساء ، يتبعنه حيث سار ويصغين إليه فى محبة ووقار ، ومن عظماء الرجال من تتعلق بهم نظرات النساء كأنهن مأسورات مسحورات ، ومنها من تتعلق بهم نظرات النساء لأنهم يلعجون أفئدتهن بخوالج اللحم والدم ونزعات الغرائز والأهواء ، ولكن الرجل العظيم الذى يجتذب إليه قلوب النساء لأنه يشيع فيها السكينة ويبسط عليها الطمأنينة ويغمرها بحنان الطهر والقداسة ويريحها من وساوس الضعف والفتنة . أعظم فى نفوسهن أثرا من كل عظيم ، وهو الذى من أجله ينسين الجسد ويرتفعن بحبهن له فوق مناط الظنون .

لهذا لا نستغرب أن يقال أن قرينة بيلاطس كانت تحذر قرينها أن يمس ذلك الإنسان الصالح ، وأن تغلب محبة التقوى على محبة الدنيا فى نفوس تبعته وهجرت زينة الحياة . ومنهن الغوانى اللواتى تستدعيهن الحياة كل يوم بداع مطاع .

وقد وصف نفسه بأنه « وديع متواضع الفؤاد » وقال إن الوداعة مفتاح السماء فلا يدخلها غير الودعاء ، وتمثلت الوداعة فى كثير من أقواله وأفعاله ، ومنها الرحمة بالخاطئين والعاثرين ، وهى الرحمة التى تبلغ الغاية حين تأتى من رسول مبرأ من الخطايا والعثرات .

إلا أن هذا الرسول الوديع الرحيم كان يعرف الغضب حيث تضيع الوداعة والرحمة ، وكانت شيمته فى رسالته شيمة الرسل جميعا حين تعلو عندهم أواصر الروح على أواصر اللحم والدم ، وتتقدم حقوق الهداية على حقوق الآباء والأمهات .. « من هى أمى ومن هم أخوتى ؟ .. من يصنع مشيئة أبى الذى فى السموات هو أخى وأختى وأمى » .. « من ليس معى فهو على ومن لا يجمع معى فهو يفرق » .. « وإن كان أحد يأتى إلى ولا يبغض أباه وأمه وامرأته وأولاده وأخوته ، حتى نفسه ، فما هو بقادر أن يكون لى تلميذا » .

وهذه وأشباهها من الشروط الصارمة التى كان يفرضها على مريديه هى الشروط التى لا غنى عنها لكل دعوة مستبسلة أمام السيطرة والجبروت ،

ومهما يكن فيها من أساليب المجاز والكناية فالقول الصراح الذى لا خلاف عليه إن التجرد من أواصر المنافع والشهوات أول الآداب التى يتأدب بها الجنود فى كل ملحمة : جنود الحرب فى ميادين الصراع على فتوح الحكم والسياسة ، فما بالنا بجنود الحرب فى فتوح الروح ومطالب الكمال .

ولقد كان عليه السلام يأمرهم أن يقدموا على المخاطر فى سبيل الحق والهداية ولكنه كان يقيم لهم حدود المخاطرة حيث يجب الإقدام على الموت وجوبا لا مثوية فيه ، فالخطر على الروح إذا كان موت الروح فى الحسبان ، فإن لم يكن خطر على الجسد ولا على الروح فلا خير فى المخاطرة ... وكونوا بسطاء كالحمائم وحكماء كالحيات .

وفى إنجيل مرقس أن السيد المسيح نجا بنفسه إلى جانب البحر حين علم أن الفريسيين والهيروديين يأتمرون به لإهلاكه وفى سائر الأناجيل أنه كان يشكو حزنه وبثه حين أحدق به الخطر ، وأنه كان يدعو الله أن يجنبه الكأس التى هو وشيك أن يتجرعها ، وأنه كان يقول لتلاميذه : « نفسى جد حزينة .. امكثوا ها هنا واسهروا » .. وأنه كان يتعب عليهم حين يراهم نياما على مقربة منه وهو يعانى برجاءه وأشجانه ويقول لهم : ما قدرتم أن تسهروا معى ساعة واحدة ؟ .. ثم قال لهم آخر الأمر وقد حم القضاء : الآن ناموا واستريحوا !

فليس الإقدام على الجهاد أن تتجرد النفس من طبيعتها فى وجه المخاوف والمتالف ، وليس محظورا على النفس فى سبيل ذلك الجهاد أن تأخذ بالحيطة أو تلوذ بمن تحب وتستمد العون من عواطف المحبين ، وإنما المحظور عليها أن تخشى الخطر على الجسد حيث تجب الخشية على الروح ، وفى غير ذلك لا خشية ولا مخاطرة ولا ملام .

ومن تحصيل الحاصل أن يقال أن السيد المسيح خلق على فطرة أمثاله من أصحاب الرسالات الكبرى الذين لا ينقطعون لحظة عن الرياضة الروحية ، وهذه الرياضة الروحية هى التى تجعلهم منذ صباهم عرضة للقلق والتنقيب

فى أعماق ضمائرهم لعلهم يعرفون مداهم من الاقتراب أو الابتعاد عن طريقهم إلى الله . فهم يشرفون على النور حينا ويحتجبون عنه حينا ويعودون إلى طواياهم فى كل حين يحاسبونها على اشراقه أو احتجابه ، ويستبشرون تارة لأنهم يلمحون معالم الطريق ، وينحون على أنفسهم باللائمة تارة لأنهم يتهمونها بالزيغ عن الجادة والانحراف عن السواء ، وفيما بين هذا القلق وتلك البشارة تنمو النفس على الرياضة وتتهيأ للثبات والاستقرار وتتخذ العدة لليقين والإيمان .

لا ريب أن هذه الرياضة هى التى عناها كتاب الأناجيل بفترة التجربة فى البرية حيث تعيش الشياطين ، وما للشياطين هنا من وساوس غير وساوس القلق وصراع الفتنة وغواية الطمع بين الإقدام والإحجام ، حيث تطمئن النفس ساعة ثم تمتحن هذه الطمأنينة بالتجربة ساعة أخرى ، ثم تعاف التجربة لأنها تسليم بالشك حيث ينبغى التسليم بالثقة رسالة الله حقيقة بكل فداء وأهل لكل ثمن وكل جزاء ، ولكن من لك أيها الضمير ، انك أنت المختار لرسالة الله ؟ أو تطلب البرهان ؟ فمن أين لك أن تجمع بين طلب البرهان وبين صدق الإيمان .

وقد تغلب المسيح على هذه المحنة كما تغلب عليها الأنبياء المرسلون بعد قلق وجهاد وصبر أليم ، ونحسبه بعد ذلك كان يعالج القلق من هذا القبيل بالتسليم للواقع ، وكان يستلهم الحوادث إرادة الغيب حين تحتجب عنه هذه الإرادة ، فيترك الحوادث تمضى ويمضى معها وينتظر ما تحكم به المقادير وفى هذه المواقف يخيفه أن يحجم ويتهم ضميره بالإحجام مخافة العواقب ، فذاك مسعاه إلى بيت المقدس فى أخريات رسالته مرتين : مرة وهو يدخلها بين النذر والشباك وخيانة الأصحاب ودسيسة كانت هذه الخطوات من خطوات التسليم الذى ينطوى فيه حب الاستلهام والاستطلاع : خير من طلب البرهان وخير من النكوص ما لم يكن هنالك برهان ، وما قال قائل فى أمثال تلك المواقف ! ليفعل الله ما يشاء ، ألا وهو يترك للمقادير أن تظهر من مجرى الحوادث حيث تجرى بها مشيئة الله .

فى لحظات كهذه اللحظات يغوص الإنسان كله فى أعماق ضميره ، ولعل لحظة من تلك اللحظات هى التى قال فيها الناظرون إليه : إنه غائب عن نفسه ، أو هى التى صمت فيها لا يحير جوابا لأنه هو يترقب جواب الغيب المنظور مما عسى أن يكون عما قريب ، أو هى التى أقدم فيها لا يبالى بسلامته وعاقبة أمره ، ولم يكن فكره قاصرا عن استطلاع العواقب جميعا فى موقف من تلك المواقف الحاسمة ، ولكن المشكلة الكبرى كلها فى استطلاع العواقب ، فهل تراه لا يقدم على العواقب إلا ببضمان من البرهان ؟

إن أعمال أصحاب الرسالات لا تفهم على حقيقتها ما لم نفهم معها هذه القاعدة الأساسية فى طبيعة الرسل ، وهى أن الشك أخوف ما يخافونه ، وأن استبقاء الإيمان غاية ما يبتغونه ، وكثيرا ما يقدمون على جسام الأمور لأن التسليم أقرب إلى الإيمان ، ولأن الإحجام شك أو انتظار برهان ، والشك وانتظار البرهان يستويان فى بعض الأحيان .

وقد تواترت الروايات على أن السيد المسيح كان يبتهل إلى الله فى أخريات رسالته قائلا : « اللهم جنبنى هذه الكأس ، لكن كما تريد أنت لا كما أريد » .

وفى هذا الابتهال مفتاح كل عمل أقدم عليه بعد ذلك ، أو أقدم عليه فى مثل هذا الموقف فانه لم يتجنب الكأس كما يريد بل ترك لله أن يجنبه إياها كما أراد ، وموضع الشبهة فى نفسه الشريفة أن السلامة هى ما يريده ، وأن النكول هو طريقه إلى اجتناب الكأس ، فليكن مسيره إذن فى غير هذه الطريق ، وليكن التسليم هو طريق الإيمان .

الباب الثاني

الدعوة

تواريخ الأديان جميعا تثبت الحقيقة الواضحة التى لا مغزى لكتابة التواريخ مع الشك فيها ، ونعنى بالحقيقة الواضحة اطراد السنن الكونية فى الحوادث الإنسانية الكبرى . فلا يحدث طور من أطوار الدين أو الدنيا إلا سبقته مقدماته التى تمهد لحدوثه ، وجاء سريانه فى العالم على وفاق لوازمه ودواعيه .

وليست المسيحية شذوذا عن هذه القاعدة ، بل هى من أقوى الظواهر التى تؤيدها وتسرى فى مسراها ، وسنرى بعد الإحاطة بالفصول السابقة والفصول التالية أن الصلة لم تنقطع كل الانقطاع بين العصرين ، وأن العصر القديم كان يلتفت بنظره شيئا فشيئا إلى وجه العصر الجديد ، وسنرى غير مرة فى هذا الكتاب إن الدعوة المسيحية جاءت فى إبانها وفاقا لمطالب زمانها .

وليس أقرب إلى جلاء هذه الحقيقة من تلخيص صورة العصر كله فى كلمات معدودات نحصر بها آفاته البارزة ونهتدى بهذه الآفات إلى علاجها الموكول إلى العقيدة .

فما هى آفة العصر التى برزت فى التاريخ واتفقت عليها أوصاف المؤرخين الذين توقعوا الانقلاب فيه من طريق الدين أو من غير طريق الدين ؟

كانت له آفتان بارزتان : أحداهما تحجر الأشكال والأوضاع فى الدين والاجتماع ، والأخرى سوء العلاقة بين الأمم والطوائف مع اضطرارها إلى المعيشة المشتركة فى بقعة واحدة من العالم المعمور وعلى الخصوص تلك الأقاليم التى نسميها اليوم بالشرق الأدنى .

تحجرت الأشكال والأوضـاع وغلبت المظاهر على كل شىء ، وتهافت الناس على حياة القشور دون حياة اللباب ، فكل معانى الحياة عندهم سمت وزينة وأبهة ومحافل وشارات ، وانتقلت الحضارة من الداخل إلى الخارج أو من النفس إلى الجسد ، كما يحدث دائما فى أعقاب الحضارات ، تبدأ فى عالم الفكر والوجدان ثم تستفيض العمارة فتميل إلى التجسم والتضخم ، وتفقد من قوة النفس والضمير بمقدار ما تكسب من مظاهر المادة والمال .

تجمعت الثروة والكسل فى ناحية وتجمعت الفاقة والجهد المرهق فى ناحية أخرى . فغرق السادة فى الترف ، وغرق العبيد والارقاء فى الشقاء ، وفسدت حياة هؤلاء وهؤلاء .

وتحجر نظام المجتمع فأصبح أشكالا ومراسم خلوا من المعنى والغاية ، وتحجرت معه الشرائع والقوانين ، فلم يكن غريبا أن تنقش على حجارة وأن يرتفع ميزانها فى يدى عدالة معصوبة العينين ، وأن تفرغ الكفتان فتستويان لأنهما فارغتان !

وتحجرت العقائد الوثنية فى الدولة الرومانية وتحجرت العقائد الكتابية بين بنى اسرائيل فأصبح فرق الشعرة بين النصين يقيم الحرب الحامية على قدم وساق ، وأصبحت التقوى علما بالنصوص وبحثا عن مراسم الشريعة ، وغلب « المظهر » وإن اختلفوا على اللفظ والتأويل .

أشكال وقشور ، لا جوهر هناك ولا لباب .

وساءت العلاقة بين الأمة والأمة وبين الطائفة والطائفة ، وبلغ الحس بسوئها غايته ، لأن الذين يعانون من سوئها يعيشون فى نطاق واحد ويخضعون لحكم واحد ، فلا فكاك منه بحال .

دنيا آفتها مظاهر الترف ومظاهر العقيدة ، ومن وراء ذلك باطن هواء وضمير خواء ، فلا جرم يكون خلاصها فى عقيدة لا تؤمن بشىء كما تؤمن ببساطة الضمير ، ولا تعرض عن شىء كما تعرض عن المظاهر ، ولا تضيق بخلاف كما تضيق بالخلاف على النصوص والحروف وفوارق الشعرة بين هذا التأويل وذلك التحليل .

عقيدة قوامها أن الإنسان خاسر إذا ملك العالم بأسره وفقد نفسه ، وأن ملكوت السماء فى الضمير وليس فى القصور والعروش ، وأن المرء بما يضمره ويفكر فيه وليس بما يأكله وما يشرب به وما يلبسه وما يقيمه من صروح المعابد والمحاريب .

هل كانت للدنيا آفة غير آفة المظاهر والتناحر على المظاهر ؟

وهل كان لتلك الآفة خلاص غير ذلك الخلاص ؟

وهل كانت المسيحية إلا العقيدة التي تدعو إلى خلاصها من حيث يرجى، وهيهات لها في غيرة خلاص ؟

وتقطعت الأسباب بين الأمم وبين الطوائف وبين الآحاد ، واتسم العصر كله بالعصبية في السائد والمسود والحاكم والمحكوم .

الروماني سيد العالم بحقه ، والإسرائيلي سيد العالم بحق آلهه ، واليوناني والآسيوي والمصري كل منهم سيد الأمم وكل منهم مثال الهمجية ، والمولى يخرج العبد من زمرة الآدميين ، والعبد يمقت السيد مقت الموت أو يفضل الموت على الرق الذي يجمع عليه بين الذل و الألم والجوع ، وأبناء الأمة الواحدة طوائف طوائف تشيع بينها التهم وتعمها البغضاء .

ويأتي إلى هؤلاء البشير المنظور فماذا يقول لهم إن لم يقل لهم أن الله رب بني الإنسان وأنه هو ابن الإنسان ، وأن الحب أفضل الفضائل وأفضل الحب حب الأعداء ، وأن الكرم أن تعطي فوق ما تسأل وأن تعطي بغير سؤال ، وأن ملكوت السماوات لا تفتحه الأموال ، وأن ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، وأن المجد الذي يتنازعه طلابه لا يستحق أن يطلب ، وأن المجد الذي يستحق أن يطلب لا موضع فيه لنزاع .

ولم يأت هذا البشير فضولا على غير انتظار : أبناء قومه موعودون به في ذلك الزمن ، وأبناء الأقوام ينتظرون شيئا لا يعرفونه ولكنهم يعرفون أن زمانهم لا يطاق ، وأن حالهم لا بد لها من تحويل .

أفلست العبادات ، وجاء أحد المعبودين — قيصر رومة — فأحرق الأسفار والنبوءات ، ولم يبق منها إلا ما هو أقرب إلى الفن في محراب أبولون إله الفنون .

أما العبادة التي لم تفلس فقد كان رأس مالها كله نسيئة منتظرة .. وهذه علامات السداد يستبشر بها المصدق ولا يجحدها المنكر ، وإنما هو خلاف على العلامات ، وعلى مصداقها من العيان والسماع .

لقد كانت الدعوة طباق الزمن وقد بدأت فى أوانها لم تتقدم ولم تتأخر ، وكفى بذلك برهانا على موقعها الصحيح من التاريخ ؛ فقد كان بلاء الناس أنهم جربوا باطنهم وعمروا ظاهرهم ، فجاءهم الرجاء الذى يصلح لذلك البلاء : بشارة لا تبالى أن يخرب ظاهر الدنيا كله إذا سلم للإنسان باطن الضمير .

وهذه هى دعوة السيد المسيح كما ساقها الغيب وترقبها العالم الذى سيقت إليه ، ولو لم تكن هى طلبته يومئذ لما استولت عليه قبل أن تنقضى عليها أربعة قرون .

وقد لقيت الدعوة أشد ما يلقاه دين من مقاومة .. فلا يفهم من هذا أنها شاعت فى العالم الإنسانى على الرغم منه أو على غير حاجة منه إليها ، فإنما الدين المطلوب هو الدين الذى تعلو أسباب قبوله على أسباب رفضه . وليس هو الذى يقبله الناس جميعا طائعين مستسلمين كأنه غنى عمن يدعو إليه. ما من دعوة قط تستغنى من مبدأ الأمر عن الدعاة .

ولقد تصدى رسول الإخاء والسلام لدعوته وهو يعلم أنها أخطر الدعوات وأنها أخطر جدا من دعوة البغضاء والقسوة ، لأن الذى يدعو إلى الإخاء يدعو إلى اقتلاع جذور البغضاء ، والذى يدعو إلى السلام يدعو إلى تحطيم سلاح الأقوياء ، وليس اقتلاع جذور البغضاء بالأمر الهين وليس تحطيم سلاح الأقوياء علالة حالم وليس السبيل إلى ذلك سبيل إلى الرضى والوفاق .

لهذا كان يقول « جئت لألقى على الأرض نارا فحبذا لو تضطرم » . . . وكان يسأل تلاميذه ومبامعيه : « أتحسبوننى أتيت لأمنح الأرض سلاما ؟ » ثم يبادر فيقول : « كلا ! وإنما هو الصدام والانقسام خمسة فى البيت ينقسم ثلاثة منهم على اثنين ، واثنان على ثلاثة : ينقسم الأب على ابنه والابن على أبيه ، وتنقسم الأم على بنتها والبنت على أمها ، وتنقسم الحماة على الكنة والكنة على الحماة » .

ولقد كان كلام كهذا يقال على ألسنة بنى إسرائيل كما قال ميخا « ما فى الناس من مستقيم . كلهم يكمن للدماء وينصب الشباك . . لا تأتمنوا صاحبا . لا تثقوا بصديق وأوصد فمك عن تلك التى تضطجع فى حضنك ، إن الابن بأبيه مستهين ، وان البنت على أمها ثائرة . . والكنة على الحماة ، وللإنسان من أهل بيته أعداء » .

ولكن هذه الأقوال وما شاكلها كانت وصفا لما هو حادث ولم تكن نبوءة عما سيحدث من الشر فى سبيل الخير ، ومن البغضاء فى سبيل الإخاء ، ومن الحرب سعيا إلى السلام .

وقد صحت نبوءة الرسول فى بنى قومه فناصبوه العداء لأنه يبسط الدعوة إلى الإخاء ويعم بها « طيور السماء » وهم رمز للطراق فى جميع الأرجاء .

ومن الواضح أنه كان يؤثر قومه بالخير لو استمعوا إليه واتبعوه ، ولكنهم مدعوون إلى وليمة يرفضونها فمن حضرها بغير دعوة فهو أولى بها ، وكذلك ضرب لهم المثل بوليمة العرس وقد أرسل الداعى عبده فى طلب ضيوفه « فقال هذا إنى اشتريت حقلا وعلى أن أخرج فأنظره . . وقال ذاك : إنى اشتريت أزواجا من البقر وسأمضى لأجربها . . فغضب السيد وقال لعبده : اذهب عجلا إلى طرقات المدينة وأزقتها وهات إلى من تراه من المساكين . . فعاد العبد وقال لسيده : قد فعلت كما أمرت ولا يزال فى الرحبة مكان . قال السيد : فادع غيرهم من أعطاف الطريق وزواياه حتى يمتلىء بيتى فلن يذوق عشائى أحد من أولئك الذين دعوت فلم يستجيبوا الدعاء » .

ويمكن أن يقال فى وصف تلك الدعوة العامة كثير لا يحصى على حسب النظرة التى ينظر بها القارىء إلى كلام المسيح فى الأناجيل .

يمكن أن يقال أنها دعوة إلى حين ينتهى وشيكا بانتهاء العالم كله فى أمد قريب ، ويمكن أن يقال أنها دعوة ملكوت يدوم ولا يعرف له انتهاء .

ولكننا على التحقيق نطابق جوهرها كله إذا وصفناها بأنها « تغيير

أو جهة » وافتتاح قبلة ، ولا سبيل إلى الجمع بين الوجهتين ولا إلى التردد بين القبلتين ، فلن يخدم أحد سيدين ...

قبلة الروح أو قبلة الجسد .

قبلة الله أو قبلة « مأمون » [١] له المادة والمال .

معبد الضمير أو معبد الصخر والخشب .

هنا أو هناك ..

فالمهم هو الاتجاه أين يكون ، وإلى أى أمد يدوم ، وكل ما يلى ذلك من تفصيل فهو خطوات الطريق تتسع أو تضيق وتسرع أو تتريث متى استقبل السالك قبلته وأدار ظهره لما وراءه ، ولا بد من المفترق الحاسم بين القبلتين ، ولا بد من خيرة بين السيدين !

---

(١) كلمة آرامية ترمز إلى المطامع الدنيوية والشهوات الجسدية ، وتطلق الآن فى اللغات الأوربية على إله المادة والمال ..

اختيار القبلة

كان الموقف — كما قدمنا — على مفترق الطريق ، وكان على السالك أن يختار وجهته وقبلته ، ويحسب لها كل حسابها ، فيأخذها بكل ما لها وما عليها أو يرفضها بكل ما لها وما عليها ، ويجمع قلبه كله فى خدمة الرب الذى يعبده ، فليس فى مقدوره أن يعبد ربين وأن يدين بالخدمة والاخلاص لسيدين .

وعلى هذا الوجه وحده تفهم الدعوة المسيحية على جليتها ، ويزول اللبس عنها ، بل يزول عنها ما يبدو عليها من النقائض والإضداد . لأنها عند تصحيح الاتجاه تعتدل على طريق مستقيم .

إذا كان الجيل مقبلا على محراب « مأمون » بقلبه وقالبه ، فالوجهة الأخرى على الطرف الآخر من هذا المحراب .

إن عباد « مأمون » غارقون فى هموم الحطام ، لا يفرغون لحظة لغير الشهوة والطعام ، فالذى يستدبر هذه القبلة فلتكن قبلته حيث لا ظل لذلك المحراب ولا إنقاص لأركانه وأوثانه ، وحيث المطلوب كله هم الروح والضمير ، وحيث المنبوذ كله هم المادة والجثمان .

أو كما قال لهم الرسول البشير : « الحياة أفضل من الطعام ، والجسد أفضل من اللباس . . وزنابق الحقل تنمو ولا تتعب ولا تغزل ، وسليمان فى كل مجده لا يلبس كما تلبس واحدة منها ، فاذا كان العشب الذى يقوم اليوم فى الحقل ويطرح غدا فى التنور يلبسه الله فما أحراكم أن يلبسكم يا قليلى الإيمان ... » .

نعم . وإذا تهالكت أمم العالم على الطعام والشراب وقلق العيش فاطلبوا أنتم ما هو أفضل وأبقى ... أطلبوا كنوزاً لا تنفد فى سماواتها بحيث لا تنالها يد السارق ولا يبليها السوس .

من استدبر قبلة مأمون فهذه هي القبلة التي يتجه إليها ، وهذه هي غايتها القصوى ، وإن لم تكن هي كل خطوة في الطريق .

وعلى هذا الوجه يفهم السامع رسول الرحمة حيث يقول :

« ما هو بقادر أن يكون لي تلميذا من لا يقدر على أن يبغض أباه وأمه وامرأته وبنيه وأخوته ، بل يبغض نفسه .

« وما هو بقادر أن يكون لي تلميذا من لا يقدر على أن يحمل صليبه ويتبعني في طريقي » .

قائل هذا هو القائل :

« أيها السامعون : أحبوا أعداءكم ، احسنوا إلى مبغضيكم ، باركوا لاعنيكم ، ادعوا لمن يسيئون إليكم ، من لطمك على خدك الأيمن فحول له الأيسر ، ومن أخذ رداءك فامنحه ثوبك ، وكل من سألك فأعطه ، ومن أخذ ما في يدك فلا تطالبه ، وما تريدون أن يصنعه الناس لكم فاصنعوه لهم أنتم ، وأي فضل لكم أن أحببتم الذين يحبونكم ؟ أن الخطاة ليحبون من يحبهم .. وأي فضل لكم أن أقرضتم من يردون قرضكم ؟ أن الخطاة ليقرضون من يقارضهم .. بل تحبون أعداءكم وتحسنون وأنتم لا ترجون أجركم ... » .

وقائل هذا هو القائل :

« إن أخطأ أخوك فوبخه . وإن تاب فاغفر له ، وإن أخطأ اليك سبع مرات وتاب إليك سبع مرات فتقبل منه توبته » .

وهذا نقيض ذاك :

هذه الرحمة التي تعم الأعداء والأحباب نقيض البغضاء التي تشمل بها أحب الناس إلى الناس : الآباء والأمهات والأبناء وذوى الرحم والقربى .

أنهما تتناقضان غاية التناقض إلا على وجه واحد ، وهو توجيه النظر إلى قبلة غير القبلة ووجهة غير الوجهة ، وغاية قصوى غير تلك الغاية القصوى التي تستدبرها .

وإذا افترقت الطريقان ووجب عليك أن تمضي هنا أو هناك ، فلا جناح عليك أن تمضي حيث سددت خطاك ولو كرهت نفسك وحملت صليبك وانقطعت عن ذويك .

وما من أحد يأبى أن يحب ذويه أن يحبه ذووه إذا ساروا حيث سار واستقاموا معه حيث استقام ، فليس عن هذا يجرى الحديث ولا فى هذا موضع للنصيحة والتفضيل ، وإنما يجرى الحديث ويستمع النصح حيث يتعارض الطريقان ويتناقضان .

إنما يجرى الحديث ويستمع النصح حيث تتقابل القبلتان ، وحيث تمضى هنا مع الله هناك مع مأمون .

ولا تناقض فى هذا المفترق بين نصيحة من تلك النصائح أو آية من تلك الآيات ، فكلها على نهج واحد من أول الطريق إلى غايته ، ولهذه الغاية القصوى ينبغى أن يتحول من يممها بخطاه وآثرها بهواه .

وفى مثل من الأمثلة التى تعمر بها أقوال السيد المسيح عبر لهم عن الموقف كله بأن يحسبوا النفقة كلها قبل بناء حجر فى البرج الشامخ .

« من منكم — وهو يريد أن يبنى برجا — لا يجلس ليحسب نفقته ويعلم هل لديه ما يلزم لكماله ؟ » .

فهذا حساب التكاليف جميعا قبل وضع الحجر الأول فى أساس البناء ، وإلا فلا حجر ولا أساس ولا برج هناك ، وخير لمن تخذله القدرة وتعوزه النفقة أن يترك الأرض والحجر والبناء .

فمن نظر إلى الأرض فرأى شعابا تتقاطع ومفارق تختلف فليرفع نظره من تلك الشعاب ولينظر إلى الأفق الذى تنص إليه الركاب ، فهناك القبلة التى يتلاقى عندها ما تشعب ، وينتهى إليها ما اعوج أو استقام من الدروب .

ولقد كان المستمعون إلى السيد المسيح ، وأولهم تلاميذه وأتباعه يعجبون منه لأمرين : ترحيبه بالأطفال الصغار وخطابه للمنبوذين المحقرين ، فانتهرهم حين رآهم يبعدون عنه أطفال القرى وقال لهم :

« دعوا الأطفال يأتون إلى ولا تمنعوهم .. فمن لم يقبل على ملكوت الله طفلا فلن يدخل إليه » .

وقال لقوم أيقنوا أنهم أبرار واحتقروا المشهورين بالذنوب : « صعد اثنان إلى الهيكل يصليان ، فريسى وعشار ..

« فأما الفريسى فراح يقول فى صلاته : حمدا لك يا إلهى ! انى لست كسائر هؤلاء الخاطفين الظالمين الزناة ، ولا كمثل ذلك العشار ، أصوم فى اليوم مرتين وأؤدى حق العشر عن كل ما أقتنيه .

« وأما العشار فوقف من بعيد لا يشاء أن يرفع عينيه إلى السماء وقرع صدره وابتهل إلى الله : ارحمنى يا إلهى أنا الخاطىء .. فهبطا إلى بيتيهما هذا مستجاب وذلك غير مبرور » .

وتكررت هذه الأمثلة فتكرر معها العجب من المستمعين إليه من آمن به وأحبه ومن كفر به وحق عليه ، ولو أنهم إذ كانوا يعجبون ذلك العجب قد عرفوا رسالته واستقبلوا قبلته لما أنكروا عليه أن يشخص ببصره إلى بعيد ، وأن يزهد فى يومه ثم يمتد بالرجاء إلى غده ، فإنما فى الغد يوم أولئك الأطفال المرتقب ، وإنما يرجى لتبديل الحال من لا يعنيه من الحاضر إلا أن يزول .

وجماع القول أن الدعوة الجديدة ، كانت ككل دعوة جديدة غريبة مناقضة لما حولها ، ولكنها تنفض عنها كل غرائبها ونقائضها إذا نظرنا إلى القبلة التى تستقبلها فهنالك تلتقى الشعاب ويحسن المآب .

تجارب الدعوة

استوفت الدعوة تجربتها فى فترة قصيرة لم تطل أكثر من ثلاث سنوات — ولكنها كانت كافية . لأنها كانت فى الواقع تجربتين ودعوتين ، قام بهما رسولان مختلفان فى الطبيعة والطريقة : وهما يوحنا المعمدان (يحيى المغتسل) وعيسى بن مريم .

كان يوحنا المعمدان مثال الناسك الصارم الذى لا يحابى ولا يتردد ، ينذر كثيرا ويبشر قليلا ، ويضع الفأس على أصل الشجرة ، ولا يبالى أن يلقى بها حطبا فى الأتون .

ولد لشيخين كبيرين بعد يأس ، كلاهما من سلالة الكهانة أبناء هارون : وهما زكريا واليصابات .

وفى إنجيل لوقا شرح لقصة هذا المولد فى شيخوخة الأب والأم جاء فيه أن زكريا كان يتولى الخدمة الدينية فى نوبته فاصابته القرعة لدخول الهيكل وإطلاق البخور ، فطال مكثه فى المحراب وجمهور المصلين يترقب ويتعجب ، حتى عاد إليهم صامتا لا يتكلم ، فعلموا أنه قد حلت به الرؤيا داخل المحراب ، ثم روى أنه بصر على يمين المذبح بملك واقف فاضطرب وعرته رجفة فقال له الملك : لا تخف يا زكريا . إن الله قدأجاب سؤالك وستلد امرأتك ولدا وتسميه يوحنا وتفرح به ويفرح به كثيرون ، لأنه من بطن أمه ممتلئا بالروح القدس ويرد بنى اسرائيل إلى الههم ، ويتقدم بروح إيليا (إلياس) وقوته ..

وقد ذكرت قصة زكريا فى سورة آل عمران من القرآن الكريم :

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ
قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ
ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا
بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ

يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ
يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ
ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾

وذكرت فى سورة مريم « ذكر رحمة ربك عبده زكريا »

إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً
خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ
بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي
عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ
رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ
مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي
عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ
هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ
ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ
قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَٰيَحْيَىٰ
خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا
وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾
وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾

وقد نشأ الطفل منذورا للبتولة وذلك بمعنى وصفه فى القرآن الكريم بالحصور ، وكان عليما بالكتب الدينية ، يسمعها من أبويه ويتلوها فى خلواته ، وكان كثير العزلة شديدا على نفسه فى تهجده ونسكه ، فلما ظهر بالدعوة رآه الناس فى ثوب خشن من الوبر يلف حقويه بمنطقة من الجلد ، يصوم أكثر الأيام ويقتات من الجراد والعسل البرى . ويهيب بالناس فى صوت قوى صارم : توبوا واستعدوا . قد وضعت الفأس فى رأس الشجرة وكل شجرة

لا تأتى بثمر جيد تقطع وتلقى فى النار : صوت صارخ فى البرية كما قال الأنبياء الأقدمون .

ولم يكن يتقى حرجا فى كلامه عن ذى خطيئة أو دنس ، فراح ينحى بهذا الصوى القوى الصراح على الملك هيرود لأنه تزوج من هيرودية أخته وزوجها لا يزال بقيد الحياة ، فلما اعتقله الملك وجىء به إلى حضرته لم يسكت ولم يكفف عن التنديد به وبأخته وأمره بتطليقها فرارا من غضب الله .

وفى سهرة من سهرات اللهو التى تعود هيرود أن يحيها فى قصره ، رقصت بنت أخته (سلامة) بين يديه فاستخفه الطرب ووعد أن يعطيها سؤالها كائنا ما كان ، فلم تسأله شيئا غير رأس يوحنا فى طبق ، وأصرت على طلبها فأعطاها ما سألت وهو كاره ، ونجا بفعلته لأن يوحنا كان شديد اللسان على الكهان والفقهاء ، فتقبلوا تلك الجريمة بغير تشهير أو اعتراض .

وقد تنكر الكهان والفقهاء للرسول الثائر قبل أن يتنكر لهم ، كما يفعل الدينيون « المحترفون » عادة بالوعاظ الذين لا ينتسبون إليهم ولا يعيشون فى زمرتهم ، فكان يوحنا يصيح بهم « يا أولاد الأفاعى .. لا يهجسن باخلادكم أنكم تنتسبون إلى ابراهيم ... إنى أقول لكم أن الله قادر أن يخرج من هذه الحجارة أبناء لابراهيم » .

وكانت هذه أول صيحة من ذلك الرسول الثائر سمع فيها الناس أن الخلاص نعمة يسبغها الله على من يشاء ولا يخص بها أبناء سلالة دون سائر السلالات البشرية وكانت علامته على قبول المسيحيين لدعوته أن يذكر اسم الله ويرشهم بالماء ويمسح على رؤوسهم فهم بعد ذلك أهل للدخول فى زمرة التائبين وطلاب الخلاص ولو لم يكن لهم نسب فى آل يعقوب وابراهيم .

هذه الدعوة الصارمة لم تلبث أن اصطدمت بعماية والشهات وعناد الغرور ، ولكنها لم تذهب سدى بين الدهماء التى لا تضلها أهواء السيادة ، وبقى اسم يوحنا مقدسا محبوبا يخاف الأدعياء أن يجترئوا عليه ، فلما أراد الكتبة والناموسيون أن يحرجوا السيد المسيح بالأسئلة والمعميات رد عليهم حرجهم وقال لهم : أجيبونى (أولا) هل كانت رسالة يوحنا من السماء أم

من الناس ؟ فلم يستطيعوا جوابا لأنهم إذا اعترفوا برسالته اتهموا أنفسهم وإذا أنكروها غضب الشعب عليهم فصمتوا مفحمين .

وليس أدل على مكانة يوحنا من ثناء يوسفوس المؤرخ الكبير عليه ، وهو شديد الحذر من إغضاب ذوى الرأى والسلطان ، فقد قال عنه : « إنه كان إنسانا صالحا أوصى اليهود أن يبر بعضهم ببعض وأن يتقوا الله » . وهذه شهادة من المؤرخ يردد بها شهادة قومه ، وهى شهادة للرسول وشهادة على أنفسهم ، وقد باءت دعوة الرسول الصارم باحدى التجربتين اللتين مرت بهما دعوة الخلاص فى عصره ، فخرج الرسول الصارم من الدنيا وهو يعلم أن دعوة الخلاص ضائعة إذا انحصرت فى قبيل واحد ، وأن الخلاص مرهون بمن يطلبه ويخشى من فواته ، ولو لم يكن من ذلك القبيل .

* * *

وللسيد المسيح طبيعة أخرى غير طبيعة يحيى بن زكريا ، فلم يكن متأبدا ولا نافرا من الناس . بل كان يمشى مع الصالحين والخاطئين ، وكان يشهد الولائم والأعراس ، ولم يكن يكره التحية الكريمة التى تصدر من القلب ولو كانت فيها نفقة وكلفة ، ووبخ تلاميذه مرة لأنهم تقشفوا وتزمتوا فاستكثروا أن تريق إحدى النساء على رأسه قارورة طيب تشترى بالدنانير ، وقالوا : لماذا للفقراء ، فقال لهم عليه السلام « ما بالكم تزعجون المرأة ؟ إنها أحسنت بى عملا . وإن الفقراء معكم اليوم وغدا ، ولست معكم فى كل حين » .

هذه السماحة قد اصطدمت بعماية الشهوات وعناد الغرور كما اصطدمت بهما تلك الصرامة . وقد أحصى السيد المسيح على عصره هذه الصدمة وتلك الصدمة فقال : « إن يوحنا جاءهم لا يأكل ولا يشرب فقالوا به مس شيطان ، ثم جاء ابن الإنسان يأكل ويشرب فقالوا إنه إنسان أكول شريب محب للعشارين والخطاة » .

رسالة قد استوفت تجربتها بل تجربتيها ، وخرجت من التجربتين معا إنسانية عالمية تنادى من يستمع إليها ، وتعرض عمن أعرض عن دعوتها بل دعوتيها : دعوة الغيرة الصارمة الأبية ، ودعوة الغيرة السمحة الرضية ، ولو قدر لها أن تعيش فى قبيل واحد لاستمع لها ذلك القبيل فانعزلت معه ، فلم يسمعها العالمون.

الشـريعـة

كل مراجعة تاريخية لذلك العصر تنتهى من جانب البحث السياسى أو جانب البحث الاقتصادى أو جانب البحث الاجتماعى ، أو الدينى ، أو الثقافى إلى نتيجة واحدة : وهى أن ضحايا البذخ والرياء قد بلغوا فيه من كثرة العدد وسوء الأثر حدا يفوق احتمال عصر واحد ، فلا يطيق أن ينتقل بها إلى العصر الذى بعده دون أن يطرأ عليه طارىء ، ولن يكون ذلك الطارىء غير طارىء انقلاب شامل .

بلغ فيه ضحايا البذخ والرياء غاية ما يبلغونه فى عصر واحد ، وقد يقال أنهم ضحايا الرياء بألوانه الاجتماعية والنفسية ، فما كان البذخ إلا ضربا من الرياء الاجتماعى ، لأنه معلق فى جميع أحواله بفخفخة الظهور ، وسيان ولع النفوس بفخفخة الظهور الأجوف وولعها بالرياء .

وفى عصر كذلك العصر تلزم الرسالة .

لكنها رسالة لا تلزم لتأتى العالم بمزيد من الشريعة ، ولا بمزيد من تطبيق الشريعة . فقد تكون المضيبة كلها فى تطبيق الشريعة إذا جرت على سنة الرياء ، وغلب فيه النفاق على الصدق والانصاف .

إنما تلزم الرسالة فى أمثال ذلك العصر لتعطى العالم ما يحتاج إليه ، وتنقذ ضحاياه .

والآداب الإنسانية هى الحاجة العظمى حين ينخر السوس باطن العرف والشريعة ، وضحايا الرياء هم أول من يتلقف تلك الآداب الإنسانية ويشعر بتلك الحاجة العظمى .

أنها رسالة قلب كبير يشعر فيجذب إليه كل شعور ، ولا سيما شعور الضحايا والمظلومين .

ويوشك مع الظلم أن يكون كل منهم مظلوما ، لأن الجريمة كلها في جانب الحاكم لا في جانب المحكوم عليه .

وحيث يكون الظلم هو الآفة فالمتهمون هم أولى الناس بالرحمة والعطف والإنقاذ .

وقد كان المتهمون هم أولى الناس بالرحمة والعطف والإنقاذ في أحضان الدعوة الجديدة : أحضان الرسول المبشر بالخلاص والنجاة .

طوبى للحزانى . طوبى للمساكين . طوبى للجياع والظماء . طوبى للمطرودين في سبيل البر ، طوبى للودعاء والرحماء : « تعالوا إلى يا جميع المتعبين والمثقلين .. احملوا نيرى عليكم وتعلموا منى .. فتجدوا راحة لنفوسكم . لأن نيرى هين وحملى خفيف » .

أما الويل فهو ويل الشباعى الذين لا يعلمون أنهم جائعون ، والأغنياء الذين لا يعلمون أنهم معوزون ، والمتجبرين الذين لا يعلمون أنهم مساكين ، والمتكبرين الذين لا يعلمون أنهم منكسرون .

* * *

واستجاب ضحايا الرياء لصيحة الرسول الكريم على قدر شوقهم إلى العزاء ، وعلى قدر ما يحملونه من أوقار الشريعة العمياء ، والتقوى المزيفة ، وربما كان الأصح أن الرسول الكريم بذل عطفه لضحايا الرياء على قدر حاجتهم إليه وشعورهم براحته ورحمته ، وعلم أن الشكران على قدر الغفران ، وأن الأمل في التوبة على قدر الكرم في المحبة : « مدينان على أحدهما خمسمائة دينار وعلى الآخر خمسون . ليس لهما ما يوفيان ، فأجزلهما شكرا من سومح في الدين الكبير » .

وكانت ضحية الضحايا في ذلك العصر المرأة ، لأنها لم تزل ضحية الضحايا في كل عصر يطغى عليه البذخ من جانب ويطغى عليه الحرمان من جانب ، ويعم الرياء في كلا الجانبين ، ولم تزل في كل عصر كذلك العصر

تبوء بشقاء الفتنة على ألوانها : فتنة الغواية وفتنة الفاقة وفتنة الأسرة المنحلة وفتنة الحيرة التي تعصف بالثقة ... والطمأنينة الزم ما يلزم المرأة في كل زمان .

ونظرت تلك الفريسة التي لاحقتها اللعنة أحقابا بعد أحقاب ، وأطبقت عليها الفتنة في ذلك العصر خاصة آكاما فوق آكام — فاذا حنان طهور يغمر ضعفها ويجبر كسرها ويمسح اليأس من قرارة وجدانها ويشيع الأمل في رحمة الله بين جوانحها ، فعلمها درس من دروس الحب القدسي ، ما لم تتعلمه من دروس العقاب في شريعة المنافقين وموازين المقسطين ، وبرزت على صفحة الزمن في ساعة من ساعات ذلك العصر المريج صورة مشرقة زالت شرائع الهيكل ، وزالت شرائع رومة ، وهي باقية عالية : صورة الغفران ماثلة في شخص الرسول الكريم ، وصورة التوبة ماثلة في شخص فتاة منبوذة جاثية على قدميه ، تسكب عليهما الدمع والطيب وتمسحهما بغدائر رأسها .

والتفت السيد إلى تلميذه وإلى المتعجبين من حوله ، يتساءلون : كيف يزعم أنه نبي ويجهل أنها امرأة خاطئة ، فقال : « أتنظر إلى هذه المرأة ! إني دخلت بيتك فلم يكن لقدمي فيه مسحة من ماء ، ولكنها غسلتهما بالدموع ومسحتهما بشعر رأسها ، ولم تمنحني قبلة وهي منذ دخلت لا تكف عن تقبيل رجلي ، ولم تدهن رأسي بزيت ، وهي قد دهنت رجلي بالطيب .. ومن أحب كثيرا غفر له الكثير من خطاياه .. » .

توبة صادقة ورحمة مستجيبة لا غرو تضيع على الشريعة الكاذبة فرائسها ، وتخشى التقوى الزائفة على فخرها وكبريائها ، وويل لمن يفتح بابا للتوبة والرحمة ولا يبالي الأبواب التي فتحت للنقمة والعقاب .

* * *

منذ الخطوة الأولى التي خطاها السيد المسيح في التبشير برسالته أخذ على نفسه أن يعتزل « السلطة » ويتنحى لها عن ميدانها ، فلا يتصدى لها

بابطال أو بانقاذ : لا يبدلها ولا يدعي لنفسه ولايتها ، وحق لكل معلم قادر أن يسلك تلك الخطة فى زمنه ، فانه — كما تقدم — قد نشأ فى دنيا تشكو الكظة من الشرائع والأوامر والنواهى والحكام والمتحكمين : ما فاض من رومة الشرائع تملأه مراسم الهيكل وشعائره ومحللاته ومحرماته ، وما فاض من رومة ومن الهيكل ملأته سيطرة هيرود وأبنائه وأذنابه وتابعيه ، ولا حاجة إلى مزيد من الأحكام مع فساد الحكام ، فاذا وجب إصلاح بعضها فالخير من إصلاحه لا يساوى جهد الحرب التى تشنها طائفة ضعيفة على دولة الرومان ، وعلى دولة الهيكل وعلى الدويلة الأدومية اليهودية التى تشايع الدولتين وتعمل لحسابها بعد حساب هاتين القوتين ، ومن المحقق أن الشر الذى ينجم من ذلك الجهد أخطر وأفدح من الخير الذى يتأتى من ورائه ، أن تأتى ، وقد يدرك باصلاح الضمائر وتهذيب الآداب الإنسانية وتعليم الآحاد أمثلة من الأخلاق تهدى أصحابها حيث تضلهم الشرائع والقوانين .

إلا أنه بهذه الحيدة عن طريق السلطة قد ترك ميدانها فلم تترك له ميدانه ، وسرعان ما أقبلت عليه الجموع حتى أحست السلطة — سلطة الدين قبل كل شيء — بالخطر المقبل من ذلك الداعية المحبوب ، وكل داعية محبوب خطر على سلطة التقاليد والجمود .

جاءوا فى ميدانه بعد أن ترك لهم ميدانهم ، ووقع الاشتباك الذى لابد منه بين سلطة شعارها المبالغة فى الاتهام والبحث عن المخالفات والعقوبات ، وبين دعوة شعارها تيسير التوبة للخاطئين وتمهيد سبل الرجاء فى الغفران .

كان التبشير بالغفران والتوبة أكبر ذنوب الداعى الجديد ، لأن الخطايا والعقوبات بضاعة السلطان القائم ، وهى على كونها مصلحة مربحة ، باب للفخر والكبرياء .

فجاءوا يسوقونه إلى حيث أبى أن يساق ، وكان همهم الأكبر أن يثبتوا عليه أنه يبطل شريعة أو يتصدى لتنفيذ ذريعة ، فأعنتوا عقولهم فى البحث

عن المشكلات والألغاز التى يفتى فيها بما يخالف الشريعة الدينية أو القوانين السياسية ، أو يفتى فيها بما يخالف آداب الرحمة ووصايا السماحة والصلاح .

برز له مرة واحد من جموع السامعين فقال له : أيها المعلم ! مر أخى يقاسمنى الميراث ... وظن أنه يتولى هنا سلطة التقسيم بحق الكرامة على تلاميذه ومستمعيه ، فما زاد على أن قال : أيها الإنسان ، من أقامنى عليكما قاضيا أو حسيبا ؟

وتعمدوا وهو فى الهيكل أن يضطروه إلى موقف الحكم أو إنكار الشريعة ، فاقتحم عليه الكتبة والفريسيون دروسه ومعهم امرأة يدفعونها إلى وسط الحلقة ، وراحوا يتصايحون : أيها المعلم . هذه امرأة أخذت وهى تزنى ، وقد أوصانا موسى أن نرجم الزانية ، فماذا تقول أنت ؟

ماذا يقول هو ؟ ما بالهم يسألونه ويستأذنونه وهو لا يملك أن يمنعهم لو ذهبوا بها إلى قضاتها ؟ .. إن الشرك مكشوف على وجه الأرض . وليس منه مخرج فيما حسبوا وخمنوا ... أن قال ارجموها فذلك حق الولاية يدعيه ، وإن قال أطلقوها فتلك شريعة موسى ينكرها فى قلب الهيكل . فكيف الخلاص من جانبى الشرك ، ولو أنه مكشوف معروف .

سبق إلى ظنها كل خاطر إلا أنه ينتهى من القضية إلى حل لا يدعى به السلطة ولا ينكرها ، ولا ينساق فيه إلى مجاملة الرياء بالدين والكبرياء بالتقوى ، ولبثوا يترقبون ولا يدرون كيف يخرج من المأزق الذى دفعوه إليه ، وهو يستمع إليهم ويخط بأصبعه على الأرض حتى فرغوا من جلبتهم وسؤالهم ، فوقف قائما ورد عليهم رياءهم فى وجوههم وكسر الشرك بقدميه من كلا طرفيه ، وهو يقول لهم : « من كان منكم بلا خطيئة فليتقدم وليرمها بحجر » .

لا ينقض شريعة موسى ولا يدعى تنفيذها ولا يجامل رياءهم بل يدعهم هم يحاولون الخلاص من الحيرة والخجل بالروغان ! .

وبقيت المرأة المسكينة واقفة وحدها أمامه ، فسألها سؤال العارف :

أين المشتكون منك ؟ أما دانك أحد ؟ ... فقالت : لا أحد أيها السيد . فأرسلها وهو يقول : ولا أنا أدينك . فاذهبي ولا تخطئي .

نعم . لا يدينها ولا يحسب عليه أنه لا يدينها فى تلك القضية ولو كان هو قاضيها ، لأن القاضي لا يدين بغير شكوى ، وبغير شهود وبغير بينة !

وتناول مسألة الزواج والطلاق وقد بلغ من سهولتهما فى ذلك العصر أن تتصدع الأسرة وأن تصبح الزوجة أضيع من الخليلة فى عرف قومها ، فقال أن الزوج والزوجة جسد واحد لا يفصلهما الإنسان وقد جمعهما الله « ومن طلق امرأته إلا لعلة الزنا دفعها إلى الزنا ، ومن تزوج مطلقة فانه زان » .

ولم تحدث مناوشة قط من هذا القبيل بينه وبين المتفقهين من متخذى العلم صناعة وأحبولة إلا ارتدوا منها مفحمين ، وخرج منها مجيبا أحسن جواب بل أكرم جواب .

فلم يصعب عليه أن يحطم « الشرك السياسى » الذى نصبوه له ليسمعوا منه إشارة بإعطاء الجزية أو بعصيان الدولة ، وأراهم أنهم يتعاملون بنقود قيصر ويكنزون منها الثروة والمال ، فلماذا لا يعطون ما لقيصر لقيصر وما لله لله ؟

ولم يصعب عليه أن يسكت الصدوقيين والفريسيين معا والأولون ينكرون البعث والآخرون يؤمنون به جسديا وروحيا على السواء . فلما قيل له أن شريعة موسى توصى الأخ أن يبنى بزوجة أخيه المتوفى حفظا للأسرة ، وسألوه : لمن تؤول فى يوم القيامة زوجة تعاقبها سبعة أخوة ؟ خيل إليهم أنه لن يستطيع أن يجيب على هذا السؤال جوابا يرضى الصدوقيين أو يرضى الفريسيين ، فكان جوابه مفحما لهؤلاء وهؤلاء ، لأن الأحياء فى العالم الآخر لا يتزاوجون زواج هذا العالم ، ولا يتناسلون !

والحق أن الأناجيل لا تروى لنا من هذه المساجلات إلا ما نشهد أمثاله اليوم فى كل درس من الدروس العامة يتصدى فيه المتعالمون المتفيقهون لتعجيز المعلمين والوعاظ ، وإن اختلفت المقاصد من أسئلة السائلين فى كل حلقة على حسب الموضع والموضوع .

والحق أن قدرة السيد المسيح على الردود السريعة والأجوبة المسكتة لهي دليل آخر إلى جانب أدلة كثيرة على « الشخصية » التاريخية ، والدعوة المتناسقة ، لأنها قدرة من وراء طاقة التلاميذ والمستمعين ، بل هم يروونها ولا يفطنون إلى أهم البواعث عليها فى سياسة الرسالة المسيحية ، فان هذه الرسالة قائمة على اجتناب التشريع واجتناب التعرض له بالابطال أو الإبدال ، ووجهتها على الدوام أنها لا تدعى سلطة من سلطات الدنيا والدين ، وأن مملكة المسيح من غير هذا العالم وليست من ممالك الدول والحكومات .. كذلك قال لكهان الهيكل وكذلك قال لبيلاطس حاكم الرومان ، وعلى ذلك جرى أسلوبه فى كل أمر وفى كل موعظة . فهو أسلوب الآداب والمثل العليا وليس بأسلوب النصوص والقوانين ، وكلامه عن زنى المطلق وعن زنى العين التى تقلع إذا نظرت نظرة اشتهاء ، وعن خطيئة اليد التى تقطع إذا وقعت فى العثرات ، لا يحمله أحد على محمل التشريع وليس فى مسلك المسيح كله فى رسالته ما يجريه مجرى الالزام ، ومع هذا غلب على الرواة من يحسبه تشريعا مقصودا بحروفه ، وقل من الرواة من فرق فى فهمه بين أسلوب الشريعة المقصودة بحرفها وأسلوب الآداب الإنسانية التى ترتفع إلى الأكمل فالأكمل وتنفذ إلى المعانى من وراء الألفاظ ، ويرجع الأمر فيها إلى ضمير يحاسب صاحبه ولا يرجع إلى قاض يسمل عينا أو يدخل فى الصدور ليتبع فيها بواعث الاشتهاء ، ولو خلصت هذه المعانى إلى سامعيها جميعا كما عناها السيد المسيح لما ثبتت له كما ثبتت من اختلاف الفهم والتأويل .

شريعة الحب

الجمود والرياء كلاهما موكل بالظواهر — فالجمود يقف بصاحبه عند الكلمات والنصوص ، يخيل إليه أنها مقصودة لذاتها فتصبح شغلا شاغلا له يمعن فى تأويلها وتوجيهها واستخراج العقد والألغاز منها ، وينتهى الأمر به إلى اعتبارها مسألة براعة وفطنة واعتبار الأحكام والعقوبات فرصة للشارع لا يجوز أن تفلت من بين يديه ، وإلا كان ذلك مطعنا فى براعته وفطنته وهزيمة له أمام غرمائه المقصودين بتلك الأحكام والعقوبات .

ومن الجامدين من يفخر بعلمه بالنصوص والشرائع ، ويقيس علمه بمبلغ قدرته على خلق العقد والعقبات من خلال حروفها وسطورها أو من المقابلة بين سوابقها ولواحقها وبين مواضع الموافقة والمناقضة منها ، وتخلت هذا لكل « شريعة » صارت إلى أيدى الجامدين والحرفيين ، فقد أدركنا فى مصر أناسا من كتاب الدواوين يفخرون بقدرتهم على توقيف العمل بين المراجعات والردود ، اعتمادا على هذا النص أو تلك الحاشية ، وافتنانا منهم فى عصر العبارات ونبش الدفائن وإقامة الدليل من ثم على سعة العلم والغلبة فى ميدان الحوار ومجال اللف والدوران . .

ولا حساب للنفس البشرية بطبيعة الحال عند هؤلاء الجامدين الحرفيين ، فانما الحساب كله للنص المكتوب من جهة ولدعوى العلم والتخريج من جهة أخرى ، وإنما النفس البشرية هى الفريسة التى يتكفل العقاب باقتناصها ويتكفل العلم باغلاق منافذ النجاة فى وجهها ، ويقلبح فى غرور العالم المحيط بأسرار الشريعة وخفاياها أن تتمكن النفس المسكينة من الهرب وأن يرجع العقاب بغير فريسة .. وتلك خيبة للشرائع والقوانين ، خيبة لها أن تفتح منافذها ثم تتيح للضحايا والقرابين أن تفلت منها !

فالشارع الماهر فى عرف الجمود هو أقدر الشارعين على تهيئة الحبائل واقتناص الضحايا .

والفخر كل الفخر لخدام الشريعة أن يوفروا لها الصيد ويحكموا من حوله الشبكة .

وقد تنتفخ الأوداج بهذا الفخر علانية ، ويصبح أحق الناس بالمفخرة أقدرهم على إدانة الآخرين .

ويتمادى الأمر حتى تصبح الاستقامة براعة فى اللعب بالألفاظ وتعجيزا للجهلاء بالحيل والفتاوى ، وحتى يزول الجوهر فى سبيل الغرض ، ويزول اللباب فى سبيل القشور ، وتزول الاستقامة وطهارة الضمير فى سبيل الكلمات والنصوص ، وتزول الحقائق فى سبيل الظواهر والأشكال .

وإذا صار أمر الفضائل إلى الظواهر والأشكال تساوى فيها الصدق والرياء ، فان غاية الصدق والرياء معا شكل ظاهر باطنه خواء ، فلا فرق بين المرائى وبين الصادق فى فضيلته ، ما دامت الفضيلة جمودا لا حس فيه ولا حياة ولا اعتبار فيه للنفس البشرية وراء النصوص والأحكام ووراء الأوامر والنواهى ، ووراء العقاب والاحتيال .

إن الجمود والرياء كلاهما موكل بالظواهر

وعالم الظواهر غير عالم الضمير .

وهذان هما العالمان اللذان تقابلا وجها لوجه عند قيام الدعوة المسيحية :

عالم كله قيود وأشكال .

وعالم طلق من القيود والأشكال ، فى ساحة الضمير .

روى إنجيل متى فى الإصحاح الخامس أن السيد المسيح قال : « لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء . ما جئت لأنقض بل جئت لأكمل » .

وروت الأناجيل أنه عمل فى يوم السبت وسخر من المحرمات التى لا تدنس الإنسان ، وخاطب الناس بغير خطاب الناموس .

فهل نقض المسيح من تقدموه أو اتبعهم فى كل ما أبرموه ؟

إن شئت فقل إنه نقض كل شيء .

وإن شئت فقل إنه لم ينقض منه مثقال ذرة .

لأنه نقض شريعة الأشكال والظواهر وجاء بشريعة الحب أو شريعة الضمير .

وشريعة الحب لا تبقى حرفا من شريعة الأشكال والظواهر ، ولكنها لا تنقض حرفا واحدا من شريعة الناموس بل تزيد عليه .

وينبغى هنا أن نصحح معنى الناموس فى الأذهان ، فان معناه هو « القوام » الذى يقوم به كل شىء ، وناموس العقيدة هو الأصول الأبدية التى يقوم بها ضمير الإنسان ما دام للضمير وجود ، فلن يزال قائما — كما قال السيد المسيح — ما قامت الأرض والسماوات .

ولقد كمل المسيح شريعة الناموس حقا لأنه جاء بشريعة الحب ، وهى زيادة عليه .

إن الناموس عهد على الإنسان بقضاء الواجب . أما الحب فيزيد على الواجب ، ولا ينتظر الأمر ولا ينتظر الجزاء .

الحب لا يحاسب بالحروف والشروط ، والحب لا يعامل الناس بالصكوك والشهود ، ولكنه يفعل ما يطلب منه ويزيد عليه ، وهو مستريح إلى العطاء غير متطلع إلى الجزاء .

بهذه الشريعة — شريعة الحب — ، نقض المسيح كل حرف فى شريعة الأشكال والظواهر .

وبهذه الشريعة — شريعة الحب — رفع للناموس صرحا يطاول السماء ، وثبت له أساسا يستقر فى الأعماق .

وبهذه الشريعة — شريعة الحب — قضى على شريعة الكبرياء والرياء ، وعلم الناس أن الوصايا الإلهية لم تجعل للزهو والدعوى والتيه بالنفس ووصم الآخرين بالتهم والذنوب ، ولكنها جعلت لحساب نفسك قبل حساب غيرك ، وللعطف على الناس بالرحمة أو المغفرة ، لا لاقتناص الزلات واستطلاع العيوب .

وفى اعتقادنا أن « شخصية » السيد المسيح لم تثبت وجودها التاريخى وجلالها الأدبى بحقيقة من حقائق الواقع كما اثبتها بوصايا هذه الشريعة : شريعة الحب والضمير .

فكل كلمة قيلت فى هذه الوصايا فهى الكلمة التى ينبغى أن تقال ، وكل مناسبة رويت فهى المناسبة التى تقع فى الخاطر ولا تصل إليها شبهة الاختلاق .

يلزم فى شريعة الكبرياء والرياء من يتخذ الدين سبيلا إلى التعالى على الآخرين ، ويلزم فى شريعة الحب من يقول لذلك المتعالى على غيره المتفانى بنفسه : « لماذا تنظر إلى القذى فى عين أخيك ولا تنظر إلى الخشبة فى عينك ؟ ! » .

يلزم فى شريعة الفرح بالعقاب والسعى وراء العورات من يسوق المرأة الخاطئة فى المواكب ويخف إلى مواقف الرجم كأنما يخف إلى محافل الأعراس ، ويلزم فى شريعة الحب من ينهى ذلك الجمع المنافق ويكشف له رياءه ويرده إلى الحياء ، وقد ارتد إلى الحياء حين استمع السيد يناديه : « من لم يخطىء منكم فليرمها بحجر ... » .

ويلزم فى شريعة الرياء والكبرياء أن يفخر المصلى بصلاته وأن يعلن الصائم عن صيامه ويتخذه زيا ينم عليه بعبوسه وضجره ، ويلزم فى شريعة الحب من ينهى الناس عن صلاة الرياء وصيام الرياء لأنهم يحبون أن يصلوا قائمين فى الجامع وفى زوايا الشوارع ... ومتى صمتم أنتم فلا تكونوا عابسين كالمرائين ، فانهم يغيرون وجوههم ليظهروا للناس صيامهم فقد استوفوا أجرهم فلا أجر لهم ، وأما أنتم فمتى صمتم فادهنوا رؤوسكم واغسلوا وجوهكم ، لا يظهر صيامكم للناس بل لأبيكم المطلع فى الصدور » .

يلزم فى شريعة الرياء والكبرياء أن يفخر المعطى بالعطاء وأن يستطيل به على الفقراء ، وأن يصوت قدامه بالأبواق ويعلن صدقته فى الطرقات والأسواق ، ويلزم فى شريعة الحب أن يستتر أعمال المحسنين فلا تعلم الشمال ما تفعل اليمين .

فى شريعة الكبرياء يتقى المتكبر تقواه ليتكبر بها على المذنبين ويلوم المرشد المصلح لأنه يجلس مع العشارين والخطاة وفى شريعة الحب والضمير يقال للمترفعين بتقواهم ما ينبغى أن يقال لهم : إنما يحتاج المرضى إلى الطبيب وإنما يكون الحب على قدر الغفران .

وقد بلغت فتنة « الظواهر والأشكال » غايتها وطغت من الهيكل إلى البيت ، ومن المكتب إلى السوق ، ومن المنبر إلى المائدة . حتى لقمة الطعام أصبحت لا تحل أو تحرم إلا بمقدار ما يتلى عليها من الأوراد والعزائم ، وما تحاط به من الشعائر والمراسم ، وما يرسمه الكهان من أحكام الذبائح والولائم ، فبحق يصطدم هنا عالم الظواهر وعالم الضمير ، وبحق يقال للمتطهرين بغسل الأيدى والتلاوة على لقم الطعام وصحاف المائدة : « إن ما يدخل الفم لا يدنس الضمير ، وإن الدنس إنما يخرج من القلب الذى فيه الشر والزور والفسوق والكفران » .

* * *

ومجمل القول أن الخير كله كان فى حكم شريعة الظواهر والأشكال ، شريعة الكبرياء والرياء ، مسألة « امتياز رسمى » يحتكره أصحابه بفضل السلالة والعنصر ويرجع الأمر فيه إلى الموروثات والمأثورات .

فالفضل بين الأمم « امتياز رسمى » محتكر لإسرائيل لأنهم أبناء ابراهيم ، والفضل بين الإسرائيليين « امتياز رسمى » محتكر لأبناء هارون وأبناء لاوى أصحاب الكهانة بحق النسب والميراث ، والفضل فى الدين والعلم حرفة يحتكرها الكتبة والناموسيون أو فقهاء ذلك الزمان ، بل كادت محبة الله لشعبه المختار أن تكون « وثيقة فى صك مرسوم » تضمن الإيثار لذلك الشعب وإن هبطت به أعماله دون سائر الشعوب ... « فلا لأنكم أكثر الشعوب لازمكم الرب واختاركم فإنكم أقل من سائر الشعوب ، بل هى محبته وحفظه القسم الذى عاهد عليه آباءكم » .

فلما قامت الدعوة المسيحية بشريعة الحب والضمير كانت كلمتها هى الكلمة التى تقال فى كل ما ادعوه ، وما استأثروا به واحتكروه .

ليس الخير حكرا للنسب والسلالة « بل الذى يعمل بمشيئة الله هو أخى وأختى وأمى » .. « إن كثيرين يأتون من المشارق والمغارب ويتكئون مع ابراهيم واسحاق ويعقوب على أرائك الملكوت ، وأما بنو الملكوت فيطرحون إلى الظلامة بالعراء » .

وإنما الرحمة عمل ، لا نسبة ولا حرفة .. وضرب لهم مثلا : إنسانا « خرج عليه اللصوص فى الطريق فسلبوه وضربوه وتركوه بين الحياة والموت ، وعبر به كاهن فأهمله ومضى فى طريقه ، وجاء لاوى فمضى ولم يلتفت إليه ... ولكن سامريا رآه فأشفق عليه وضمد جراحه وأركبه على دابته وأتى به إلى فندق وأولاه عنايته ثم أخرج لصاحب الفندق عند سفره دينارين لينفقهما عليه ويعنى به ومهما ينفق عليه فهو موفيه عند مرجعه » ... قال السيد المسيح لتلاميذه وقد ضرب لهم هذا المثل : « أى هؤلاء الثلاثة أقرب إلى ذلك الصريع الجريح ؟ » والجواب الذى لا خلاف عليه بداهة ان السامرى المنبوذ أقرب إليه من أبناء هرون ومن اللاويين المصطفين ! .

وراح يجبه فطاحل العلماء التياهين بما علموه وحفظوه وتفننوا فيه من الغاز الفقه وأحاجى الشريعة، فقال لهم «إن الدين بما تعمل لا بما تعلم»... حذر أتباعه ومريديه أن يقتدوا بهم فى عملهم وأن يدعوا مثل دعواهم : « لأنهم يحزمون الأوقار ويسومون الناس أن يحملوها على عواتقهم ولا يمدون إليها أصبعا يزحزحونها ، وإنما يعملون عملهم كله لينظر الناس إليهم ، يعرضون عصائبهم ويطيلون أهداب ثيابهم ، ويستأثرون بالمتكأ الأول فى الولائم والمجالس الأولى فى المجامع ، ويبتغون التحيات فى الأسواق وأن يقال لهم : سيدى سيدى حيث يذهبون ... » .

ثم يهتف بأولئك المنافقين التياهين : « أيها القادة العميان الذين يحاسبون على البعوضة ويبتلعون الجمل .. إنكم تنقون ظاهر الكأس والصحفة وهما فى الباطن مترعان بالرجس والدعارة ... ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون — إنكم كالقبور المبيضة ، خارجها طلاء جميل وداخلها عظام نخرة » .

ولما تعالوا عليه بالأسئلة عن أسرار الكتب وألغاز الفرائض والوصايا ، وسألوه أيهما أعظم فى الناموس ؟ حسبوا أنه سينقب بين السطور ويطيل البحث بين الأسرار والألغاز ، ولكنه ترك السطور والنصوص وجمع لهم الدين كله والكتب جميعا فى كلمات معدودات : « أن تحب ربك بجماع قلبك ومن كل نفسك وفكرك ، وان تحب رقيبك كما تحب نفسك » .

هذا كل ما يلزم العابد الصالح أن يحتقبه من القماطر والأوراق ، ولا تكون العقبى أنه يهدر الفرائض والأحكام وأنه يستبيح ما لا يباح ، بل لعله يتشدد حيث يترخص النصوصيون والحرفيون ، كما يتشدد الإنسان حين يحاسب ضميره ويصنع فى سبيل الحب ما لا يصنعه فى سبيل الواجب ، وكل ما هنالك أن تصبح الفضيلة وحى نفس وحساب ضمير ، ولا يصبح قصاراها وحى القانون وحساب الصكوك والشروط ، وأساليب الروغان من بين السطور والحروف .

لا جرم كانت شريعة الحب والضمير أشد وأحرج من شريعة الظواهر والأشكال ، لأن الضمير موكل بالنيات والخواطر قبل الأفعال والوقائع ، ولأنه يحاسب صاحبه على همساته ووساوسه ولا يتركه حتى يعمل ما يضر أو يسوء .

« قيل للقدماء لا تقتل ومن يقتل وجب عليه العقاب . أما أنا فأقول لكم إن من يغضب على أخيه باطلا يأثم ويجزى ... فإن قدمت قربانك وذكرت حقا لأخيك عليك ، فدع قربانك أمام المذبح واذهب قبل فصالح أخاك » .

« وقيل للقدماء لا تزن . أما أنا فأقول لكم أن من ينظر إلى امرأة فيشتهيها فقد زنى بها فى قلبه ، فان كانت عينك اليمنى تلقى بك فى العثرات فأقلعها وألقها عنك فخير لك أن يهلك عضو لك من أن تهلك كلك ...

« وقيل للقدماء لا تحنث .. وأما أنا فأقول لكم لا تحلفوا .. وليكن كلامكم كله نعم نعم . لا لا . وما زاد على ذلك فهو من الشيطان .. » .

« وسمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن . وأما أنا فأقول لكم لا تقابلوا

الشر بالشر ، ومن لطمك على خدك الأيمن فحول له الأيسر .. ومن سخرك ميلا واحدا فأذهب معه ميلين ...

وسمعتم أنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك . وأما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم ، باركوا لاعنيكم ، أحسنوا إلى مبغضيكم . وادعوا لمن يسيء إليكم ويطردكم ، لكي تكونوا أبناء أبيكم الذى فى السماوات ، فإنه يطلع شمسه على الأشرار والصالحين ويرسل غيثه للأبرار والظالمين . وأى أجر لكم إن أحببتم من يحبونكم . أليس العشارون يفعلون ذلك ! فتعلقوا أنتم بالكمال ، فإن الله كامل . . يحب الكمال .

هذه شريعة تهدم كل عرف قائم وتعصف بكل شكل ظاهر ، ولكنها لا تهدم الناموس ولا تعصف بركن من أركانه ، وقد تزيد فرائضه ولا تنقص حرفاً منها حين تنقلها من الأوراق ومناظر العيان إلى الضمائر والقلوب ، لأن الإنسان يحاسب نفسه إذا أحب حساباً لا تدركه الشرائع ولا يطلع عليه القضاء . . .

وقد كان المصطدم بين الشريعتين حيث يتوقع وكما يتوقع ، وكان السجال بينهما هو السجال الذى تمليه شريعة الحب والضمير وشريعة الظواهر والأشكال ، ولم تسقط من ذلك السجال كلمة كانت منظورة من دغاء الرياء والكبرياء ، ولم يكن الجواب على كلمة منه غرضاً غير مقصود فى وجهته أو جزافاً يقوله كل قائل ويأتى لغير مناسبة ، ومن ثم تقول إن الشخصية التاريخية والدعوة المتناسقة لم تثبتا ببرهان أصدق من هذا البرهان ، وأن المصطدم بين الشريعتين لا يختلقه المختلق إن شاء ، لأنه من وراء طاقة المختلق أن يلحق طبيعة الشريعتين : شريعة الحب والضمير وشريعة الرياء والكبرياء ، ويدفع بهما حيث تندفعان وعلى عليهما ما تسألان عنه وما تجيبان .

تلك معالم واضحة ومقاصد بينة معروفة المنحى ، فإذا وقع اللبس مرة فليس أيسر من الحسم فى مواضع اللبس على ذوى النية الحسنة ، فبكل ما وافق

شريعة الحب والضمير وخالف شريعة الظواهر والأشكال فهو هنا ، وكل ما مشى فى سبيل الظواهر والأشكال وأعرض عن سبيل الحب والضمير فهو هناك ، ولن يطول اللبس فى معنى من معانى السيد المسيح إلا على عباد الألفاظ والنصوص ، وليس من الإنصاف ولا من حسن الفهم أن تحكم الألفاظ والنصوص فى الدعوة التى تزدريها وترجع بكل شىء إلى مقاصد الحب والضمير . ذلك كما قال السيد المسيح هو وضع الخمر الجديدة فى الزق القديم أو وضع الرقعة القشيبة على الثوب الرديم .

آداب حسية

كان « أوريجين » فيلسوفاً ملحوظ المكانة فى تاريخ الفلسفة والديانة المسيحية . ويرى الكثيرون أنه أكبر المفكرين الدينيين الذين نبغوا بين القرن الثانى والقرن الثالث للميلاد ، ومن لم يره كذلك فلا خلاف عنده فى حسبانه بين ثلاثة أو أربعة من كبار المفكرين فى عصره ، غير مستثنى منهم أساتذته الأولون .

هذا الرجل قرأ فى شبابه قول السيد المسيح أن أناساً يخصيهم الله وأناساً يخصيهم الناس وأناس يخصون أنفسهم فى سبيل الله ، فحمله على معناه الحرفى وجب نفسه ليقدم بعد ذلك على تعليم النساء وهو آمن ، ولكنه أدرك خطأه بعد ذلك وعدل عن هذا الفهم الحرفى لأقوال السيد المسيح .

إلا أن ثبوت هذه الرواية فى سيرة رجل من أعلام زمانه يبطل العجب من روايات كثيرة بقيت بين أخبار الدعوة المسيحية فى عصرها الأول ، فقد كان الرجل يفقأ عينه إذا علم أنها نظرت إلى امرأة نظرة اشتهاء ، وكان يمسخ جسده مسخاً إذا راودته الشهوات ، حتى ليتساقط منه الدود وهو بقيد الحياة ، فإذا كان شاب فى ذكاء « أوريجين » وقوة فطنته يفهم العظات المسيحية على هذا الوجه ، فلا عجب أن يشيع هذا الفهم بين طائفة من البسطاء الذين لا يبلغون مبلغه فى الفطنة والدراية .

لكن « أوريجين » نفسه قد عدل عن خطئه بعد زمن كما أسلفنا ، وسبقه وجاء بعده أناس من طبقته أيقنوا أن السيد المسيح قصد المعانى ولم يقصد الحروف حين أوصى بكف الأعضاء عن نزعات الجسد ، فلم يعن بفقء العين إلا ما نعنيه بقطع اللسان حيث نريد به السكوت أو الإسكات ، ولم يعن بقمع الجسد إلا ما نعنيه بقمع الرياضة والتربية ، وكانت كلمنت الإسكندرى يقول بحق إن السيد المسيح لا يعنى بنبذ المال أن نرفضه بتاتاً فى جميع الأحوال ، وإلا لم يكن الإحسان فضيلة من أكبر الفضائل فى

الوصايا المسيحية ، وجاء القديس أوغسطين بعد ذلك فنفى أن الدين يوجب الزهد على كل أحد ، مع استحسانه الزهد لمن يقدر عليه .

إلا أن الخلاف على فهم وصايا المسيح لم يزل قائماً بعد تفسيرها على هذا الوجه مرات فى أقوال حكماء المسيحية ، ولا يزال هذا الخلاف قائماً إلى عصرنا هذا فى الوصايا التى تدور على رفض الحياة خاصة ، وغير قليل من المتأولين ينحو منحى الدكتور « شويتزر » Schweitzer الذى يرى أن السيد المسيح قد أوصى الناس بتلك الوصايا لاعتقاده أن الساعة قريبة وأن الدنيا التى يهجرونها مقضى عليها بالفناء فى مدى سنوات ، فكل ما أوصى به الناس فالمفهوم منه أنهم على سفر وأن الزاد للعالم الآخر من غير هذا الزاد الذى يدخره المدخرون للدنيا الزائلة .

وفى اعتقادنا أنه لا محل للخلاف على الوصايا التى وجهها السيد المسيح لتلاميذه ورسله المتجردين لنشر الدعوة ، فإن كل دعوة فى عصر السيد المسيح أو فى عصرنا هذا ، وفى جهاد الدين أو جهاد الدنيا ، تحتاج من الدعاة إلى مثل ذلك التجرد ومثل ذلك الانقطاع عن الشواغل الأخرى ، ونظام فرق الفداء فى الجيوش الحديثة معلوم لا خلاف عليه ، وأول أحكامه أن يفكر « الجندى المجاهد » فى الموت قبل تفكيره فى الحياة .

إنما الخلاف على الوصايا حين تتجه إلى غير التلاميذ والرسل : إلى أبناء الدنيا الذين يعيشون فيها ويعملون لأنفسهم ولمن يعولونهم من أبنائهم وذويهم ، فهل يطلب من هؤلاء جميعاً أن ينقطعوا عن دنياهم ويرفضوا حياتهم ويتشبهوا بالطير والنبات فى اعتمادهم على الغذاء والكساء ؟

أقول حقاً أننى أفهم وصايا السيد المسيح جميعاً ولا أجد فى فهمها صعوبة على الإطلاق إذا أنكرنا الجمود على الحروف والنصوص كما كان ينكرها عليه السلام ، وإذا علمنا أنه عليه السلام قد قال كل شيء حين قال ولخص حكمته كلها فى هذا المقال : « ليس الإنسان للسبت ، وإنما السبت للإنسان » .

لقد كان هم السيد المسيح فى الإصلاح النفسى تغيير البواعث لا تغيير المقادير .

كان همه أن ينقل الآداب من محور إلى محور ، ولا قيمة للمسافات ولا للأبعاد إذا كان انتقال المحور هو المقصود .

كانت العروض هى المحور الذى تدور عليه حياة الأمم والآحاد فى عصره ، فوجب أن يكون الجوهر الصميم هو محور الحياة .

كانت « الأشياء » مقدمة على النفس الإنسانية ، فوجب أن تكون النفس الإنسانية مقدمة على الأشياء .

وجب أن يكون ربح النفس الإنسانية هو الغنيمة الكبرى ، لأن من ربحها فلا جناح عليه أن يخسر العالم .

وإذا كان « الحطام » هو محور الحياة فسيان الكثير والقليل : سيان من يطلب الدرهم الواحد ومن يطلب ملايين الدراهم ، فكلاهما مداره خطأ وسعيه عقيم .

إذا كانت « الشهوة » هى محور الحياة فسيان من يشتهى بعينه ومن يقوم ويقعد ويسهر وينام فى طلب اللذة والغواية ، فكلاهما فارغ لهذا المحور الذى يدور عليه .

ولكننا ننقل المحور ، أو ننقل القبلة كما أسلفنا فى فصل سابق ، فينتقل كل شىء ويتغير اللباب الأصيل من كل خلق .

إذا أصبح كسب النفس الإنسانية — كسب المحور — هو غاية الحياة فالذى يملك الملايين زاهد كالذى يملك العشرات أو الذى لا يملك شيئاً من الأشياء .

إذا تغير المحور فمسافة الفرسخ والميل كمسافة الشبر والقيراط .

وإذا بقى المحور فالبعيد كالقريب والقريب كالبعيد . . .

وتغيير المحور هو الذى عناه السيد المسيح .

وتغيير المحور لازم فى ذلك العصر ، لازم فى هذا العصر ، لازم فى كل زمن ينحرف فيه الاتجاه عن سوائه ، ولهذا كانت رسالة السيد المسيح نموذجا للرسالات ، ولم تكن آخر الرسالات فى الحياة الإنسانية .

لهذا نعتقد أن السيد المسيح كان يغير المحور تغييرا آخر لو أنه حضر الدنيا بعد عصره ببضعة أجيال ، ورأى الناس يغرقون فى تعذيب الجسد ويفرجون باطعامه للدود وهم بقيد الحياة .

بل لا حاجة بنا إلى الفرض هنا أو الاحتمال الذى يقبل الخلاف ، فان المسيح قد غير المحور هذا التغيير فى زمانه : غيره حين قبل انفاق الدنانير فى عطر تمسح به قدماه ، وحين قبل أن يشهد الأعراس ويضرب المثل لأتباعه فى أفراح الحياة ، وفى براءة كل فرح يأتى من القلب ويسر الجسد ولا يحزن الروح .

وما كان الإصلاح فى الدعوات الكبرى قط مسألة مقادير ومسافات : أنت تنهك نفسك لتكنز مليونا فحسبك أن تنهك نفسك لتكنز عشرة آلاف ، ولا تزيد .

أنت تتهالك على جميع اللذات فى جميع الأوقات ، فتهالك عليها أياما فى الأسبوع ، أو تهالك على بعضها دون سائرها فى جميع الأيام .

أنت مشغول الذهن بالعدوان والبغضاء فاشتغل بهما قليلا ولا تجعلهما شغلا شاغلا بغير انقطاع .

كلا . لم يكن الإصلاح فى الدعوات الكبرى قط مسألة مقادير ومسافات ، وإنما كان على الدوام مسألة « محور » ينتقل ، أو مسألة « باعث » يتغير ، وعلى الدنيا بعد ذلك أن تعرف شأنها فى مسافاتها ومقاديرها ، حتى يبلغ بها الانحراف غايته فتعود أو يعاد بها إلى محورها الذى انحرفت عنه أو إلى محور جديد .

إننا لا ننصف السيد المسيح بل ننصف أنفسنا حين نعتقد أنه كان يدرك ما يقول وهو يقول : « من أخذ منك رداءك فاعطه قميصك مع الرداء » .

أترى السيد المسيح كان يفوته أن الرداء والقميص اللذين يعطيهما المعطى هما الرداء والقميص اللذان يأخذهما الآخذ أو يسلبهما السالب ؟

كلا . ما كان يفوته ذلك ولا ريب ، ولا أدنى ريب .

ولكن النفس الإنسانية هى المقصود ، وليس المقصود هو الرداء أو القميص .

المقصود هو أن ترفع النفس الإنسانية فوق أشيائها ، بمثل من الأمثلة ، يصح أن يكون هذا المثل ويصح أن يكون مثلا سواه !

فليكن العطاء حبا وطواعية ، لأن من يعطى مجبرا أو يعطى مالا يهمه أن يعطيه يفقد شيئا ولا يملك نفسه .

وليس كذلك من يعطى لأنه يريد العطاء : انه يكسب ما أعطاه ولا يضيعه ، لأن غنى النفس يقاس بما تعطيه ، وغنى الجسد يقاس بما يأخذه ، ومن كان لا يبالى أن يعطى العالم كله ليربح نفسه فأخلق به أن يربح نفسه بقليل من العطاء .

أراد السيد المسيح أن يعبد الإنسان سيدا واحدا ، ولا يعبد سيدين ، وهذا كل ما أراد .

فمن يملك أموال الدنيا غير عابد للمال فلا جناح عليه .

ومن يعبد الله ويستعبد المال فلا جناح عليه .

ومن حاول غير ذلك فهو غير مستطيع ، وليس قصاراه أنه غير مشكور أو غير مأجور .

ونحسب أن النهى عن عبادة سيدين قد أقام الحد واضحا سهلا بين ما هو مباح وما هو محظور فى طلب الدنيا ومتاعها وزينتها . فلا حرج على إنسان يملك المال العريض وهو لا يعبد المال ولا يقدم نفسه قربانا على هيكله ولا نجاة لإنسان يملك درهمين ولا يناله منهما بغير عبادة المال .

ويحسن بنا على الجملة أن نذكر أن السيد المسيح لم يقصد إقامة مجتمع في مكان مجتمع . ولكنه قصـد إلى تهذيب آداب إنسانية يعتصم به ضمير الفرد وضمير الأمة ، وأقامها على أساس واضح في وصايا متعددة لا تضارب بينها .

فالجسم أفضل من الطعام واللباس .

والإنسان أفضل من السبت .

وغنيمة النفس أربح من غنيمة العالم .

ومملكة الضمير في قرارة كل إنسان أبقى من ممالك العروش والتيجان .

وبساطة الإيمان أصلح من حذلقة العلماء والحفاظ ، ولولا هذه الحذلقة لما استعصى على حد أن يفهم ما يسمع من وصايا السيد المسيح وما جرى مجراها في كل زمن ، فمن دأب الحذلقة على الدوام أن تجتهد لكيلا تفهم وليس من دأبها أن تجتهد مرة لكي تفهم ، وعندها في كل آونة سبب لتعطيل كل فهم وسبب لتعطيل كل عمل وسبب للظهور يصرفها آخر الأمر عن بواطن الأمور . وهذه الحذلقة هي التي حالت بين المتحذلقين قديما وبين كل عمل بكل وصية ، فليس عندها مستمع لنبي ولا لحكيم .

إن الحذلقة هي التي أبت أن تفهم حين قال القائل : إن العصفور المبكر يجد الدودة قبل غيره ... أفليس في هذا الكلام شيء يفهمه السامع ؟ بلى . وفيه نصح لمن يريد أن يسمع ويعمل . ولكن الحذلقة هي التي قالت في جواب تلك النصيحة : إن الدودة لو لم تبكر قبل العصفور لما أكلها العصفور .

إن الحذلقة تقول هذا لأنها لا تعمل ، فهل تراها كسبت شيئا حين خسرت العمل ؟ . كلا فان سخريتها تستقيم إذا كان التأخير أسلم للدودة من التبكير ، ولكنهما يستويان على الأقل ، إن لم يكن التأخير خليقا أن يعرض الديدان لمئات المناقير ومئات العيون ، بدلا من فرد منقار وفرد عين .. !

كذلك يقول السيد المسيح : من طلب منك رداءك فاعطه قميصك مع الرداء ، فتقول الحذلقة ولماذا يحق للطالب أن يملك القميص والرداء معا ولا يحق لمن يعطيهما أن يحتفظ بهما فى حوزته ؟

أفليس فى قول السيد المسيح ما يفهم ؟ بلى . فيه ما يفهم وما يصحح فهما على ضلال ، ولكن الحذلقة لا تريد أن تفهم ولا أن تعمل ، ولا تريد إلا ظهورا « على حساب » الفهم والعمل كما يقولون ، ولولا ذلك لما غاب عنها أن الجديد فى الأمر هو امتحان المعطى الذى يقتدى به فى الإحسان ، وإن طالب الرفد لا خلاف عليه ولا على قيمة عمله من الفضيلة ، وإنما الخلاف الذى يحتاج إلى جديد هو قيمة الإعطاء من فضيلة السماحة والإيثار .

.. لقد كانت الدنيا تدور على محور الشره والشر والبغضاء والنفاق ، فحسن ولا شك أن تدور على غير ذلك المحور ، وإذا انتقلت منه إلى محور القناعة والخير والحب والصدق فلا مشاحة فى قياس المسافات ولا تقدير المقادير . .

بل نقول إن الرسالة كاملة وافية ولو لم يكن هذا الانتقال إلا إلى حين وفى حيز محدود ، فإنما العبرة باضافة هذه القيم الجديدة إلى حساب الإنسانية ، وشأن الإنسانية بعد ذلك جديد .

ملكوت السموات

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾

هذه آية كريمة لها مرجع من تاريخ كل دعوة ولا سيما الدعوات الدينية الكبرى ، وما من شيء هو أدعى إلى التدبر الطويل وما تستطيع ، وشأن الرسل بعد ذلك وما يستطيعون من تجديد الرسالة كلما انحرفت الجادة أو احتاج ضمير الإنسان إلى محور من المقابلة بين مقاصد أصحاب الدعوات وبين الغايات التي تنتهي إليها دعواتهم على غير قصد منهم ، بل على خلاف ما قصدوا إليه ، ثم يمضي الزمن وتنطوي المقاصد والغايات فيبدو أن طريق الدعوات كان أهدى من طريق أصحابها ، كأنما الدعوات والدعاة معا وسيلة مسخرة تسير في عنان الحكمة الأبدية ، دون أن يعلم الدعاة أو يعلم المستجيبون لها إلى أين تسير ، وإلى أين يسيرون .

ماذا لو أن أهل مكة عقلوا فاستجابوا إلى الدعوة المحمدية ولم يدخل المسلمون مكة دخول الغالبين المنتصرين ؟

إن الهجرة من مكة إلى المدينة كانت فاتحة الفتوح الإسلامية ، فلو أنها ارتفعت من تاريخ الإسلام لتغير ذلك التاريخ ، ولكنه لا يستفيد فيما نعتقد بزوال ذلك الحادث الذي كان محسوبا من العقبات ، بل أكبر العقبات في صدر الإسلام .

وماذا لو أن بني اسرائيل في عصر السيد المسيح قبلوه وصدقوه وفتحوا له أبواب الهيكل مرحبين مؤمنين ؟

كان غاية الأمر أن نبيا من الأنبياء يضاف اسمه إلى أسماء الأنبياء في كتاب العهد القديم ، وتبقى اسرائيل في عزلتها كما كانت ، ويبقى العالم كله

كما كان من هذه الناحية ، وتبقى الناصرة كما كانت فى التاريخ : منسية لا تذكر ، أو تذكر كما تذكر أصغر القرى التى تحكمها رومة الخالدة : رومة القياصرة والجبارين المتألهين .

فما لا ريب فيه أن السيد المسيح قد أراد اسرائيل بدعوته الأولى ، ومن البديه أن يريدهم قبل أن يريد أحدا غيرهم ، لأنهم عشيرته الأقربون ، ولأنهم أصحاب الكتب التى تبشر بالخلاص وترقب الرسول المخلص من وراء الغيب .

وقد كان السيد المسيح يعظ التلاميذ ويقول لهم : ماذا تركتم للأمم ؟ لأنهم أبناء أمة أولى بها أن تستمع إلى الحق من أبناء الأمم كافة ، وهم غير مختارين .

وقد كان يرسل التلاميذ للدعوة وينهاهم أن يدخلوا السامرة ، ويحذرهم على العموم أن يطرحوا اللآلىء تحت أقدام الخنازير .

وعلى رفقه فى الخطاب كان ينتهر المرأة الفينيقية التى أرادت منه كرامة من تلك الكرامات التى يخص بها أبناء يعقوب ، لأنه ليس بالحسن أن يؤخذ الخبز من أبناء البيت ليلقى به إلى الكلاب .

وكان هذا الإيثار بديها كما قلنا من وحى الفطرة ووحى الكتب والدراسة ، وكان كذلك حكمة من حكم الدعوة التى يراد لها النجاح ، فإن المساواة بين العشيرة الأقربين وبين الغرباء الموتورين كانت خليقة أن تقصى الأقربين ولم يكن يقينا ولا شبيها باليقين أن تدنى إليه أحدا من أولئك الغرباء الموتورين ، الذين يحاربونه ويحاربون قومه ويبادلونهم سوء الظن وتارات الانتقام .

فماذا لو استجاب المدعوون إلى الدعوة على أحسن مجال وأيسر احتمال ؟ ماذا لو استجابوا بغير عناد وبغير استشهاد !

إن استجابوا جميعا إلى الدعوة فقد دخلت الدعوة فى نطاق « العصبة العنصرية » ولم يتغير بها شىء فى غير ذلك النطاق المحدود .

وإن لم يستجيبوا جميعا ، واستجابت منهم فئة من فئات شتى ، فغاية الأمر أنها فرقة تضاف إلى فرق الفريسيين والصدوقين والآسين والغلاة ، بل قد حدث فعلا أن فئة من بنى اسرائيل قبلت المسيحية على أنها « طائفة يهودية » سميت بالطائفة « الابيونية » أى طائفة الفقراء والدراويش ، ثم ذهبت هذه الطائفة فى الغمار فلا هى إلى اليمين ولا إلى اليسار ، ولم يبق لها نصيب فى تاريخ اليهود ، ولم يبق لها نصيب فى تاريخ المسيحيين !

بل حدث فعلا أن كنيسة مسيحية يهودية هجرت بيت المقدس إلى شرق الأردن ، اعتزلت كنائس اسرائيل وأقامت شرقا حيث تحرم الإقامة على سائر اسرائيل ، وظلت ردحا من الزمن لا هى اسرائيلية خالصة ولا هى مسيحية خالصة ، ثم ذهبت فى الغمار كما ذهب الابيونيون .

لقد مر بنا المثل الذى ضربه السيد المسيح للمدعوين المتخلفين : مثل الأمير الذى أولم الولائم ، وأرسل إلى الصفوة المختارين من الأقرباء والصحاب يدعوهم أن يفرحوا معه ويشاركوه فى طعامه وشرابه فلم يجبه منهم أحد ، وتعلل كل منهم بعلة تؤخره إلى ما بعد يوم الوليمة ، فأقسم لا يحضرنها أحد بلغته الدعوة ، وليملأنها بمن حضر ومن لم يحضر ، ومن تزويه الأزقة أو تقذف به الطريق ، وأبى أن يبقى مكان على المائدة خلوا من ضيف ، وأصبح كل طارق ضيفا مقبولا على الرحب والسعة ، وهكذا تعمر وليمة السماء التى يتأخر المدعوون إليها ، ويتقدم إليها من هم أحق بها ، لأنهم يشتهون ما يعافه المدعوون المتبطرون .

قال السيد المسيح لمن دعاهم والحف فى دعواهم فأنكروه وألحفوا فى انكاره : « إن الحجر الذى رفضه البناءون صار على رأس الزاوية .. إن ملكوت الله ينتزع منكم ويوهب لأمة تؤتيه ثماره .. من سقط على ذلك الحجر رضه ومن سقط الحجر عليه سحقه .. هناك يكون البكاء وصرير الإنسان ، هناك يدعى الكثيرون ولا ينتخب إلا القليلون » .

ومنذ استحكمت النبوة بينه وبين الجامدين والمتعصبين قلت وصاياه التى

تختص بها « الأمة » ويفردها بين الأمم ، وكثرت فى وصاياه الآداب الإنسانية التى يستحق بها الإنسان ملكوت السماوات ، فردا فردا كائنا ما كان شأن الأمة التى ينتمى إليها ، وفهم السامعون من الملكوت أنه حق لمن يقصده من بنى الإنسان أجمعين .

غير أن ملكوت السماوات لا يفهم على صورة واحدة من روايات الأناجيل المتعددة ، بل لا يذكر بلفظ واحد فى جميع الأناجيل ، فان مرقس ولوقا يذكرانه باسم ملكوت الله ، ومتى يذكره باسم ملكوت السماوات ، ويتفق أحيانا أن يذكر فى جميع الأناجيل باسم ملكوت ابن الإنسان .

كذلك يبدو من بعض الأقوال إنه حاضر على الأبواب ، وإن من الأحياء السامعين من لا يذوق الموت حتى يرى ابن الإنسان آتيا فى ملكوته .
(١٦ متى)

ويبدو من أقوال أخرى إن المدى بعيد وإن الضلال فى دعواه طويل الأمد « لا يضلنكم أحد . فان كثيرين سيأتون باسمى فيضل بهم كثير . وسوف تسمعون بحروب وأنباء ولا يحين الحين بعد .. بل تقوم أمة على أمة ومملكة على مملكة وتحدث مجاعات وأوبئة وزلازل فى أماكن شتى ، وهذه كلها بوادر الأوجاع ، ويسلونكم يومئذ إلى الضيق فتقتلون وتبغضكم جميع الأمم فى سبيلى .. ثم يأتى أنبياء كذبة كثيرون ويضلون كثيرين ، وتفتر محبة كثيرين ، ولكن الصابرين إلى المنتهى ينجو ، وينادى ببشارة الملكوت هذه فى أنحاء المسكونة شهادة لجميع الأمم » . (٢٤ متى)

وأحيانا يأتى الكلام عنه كأنه قريب ولكنه مفاجىء مجهول الموعد : « اسهروا إذن لأنكم لا تعلمون فى أية ساعة يأتى ربكم .. ولو عرف رب البيت فى أى هزيع يأتى السارق ما سرق .. فاستعدوا أنتم كذلك . لأنه فى ساعة لا تخطر لكم يأتى ابن الإنسان » .

ومن النبوءات ما يقول إن ابن الإنسان نفسه لا يعلم باليوم والساعة (١٣ مرقس) وإن بوادره وشيكة أن تظهر فى هذا الجيل .

ويشار إلى الملكوت أحيانا بمعنى مشيئة الله وأوامره وفرائضه : « اطلبوا أولا ملكوت الله وبره » (٦ متى) « وقد أعطى لكم أن تعرفوا ملكوت السماوات » (١٣ متى) .

وأحيانا يطلق على الرسالة التي يتعلمها التلاميذ من السيد المسيح : « أجعل لكم ملكوتا كما جعل لى أبى ، ويقول لوقا أن التلاميذ والأتباع كانوا يحسبون والسيد المسيح ذاهب إلى بيت المقدس إن ملكوت الله عتيد أن يظهر فى الحال » (١٩ لوقا)

وقد رأينا فى كتب التعليقات والتفسيرات أن هذه الصفات المتعددة تستغرب وتثير البلبال بين ذوى الآراء ، كأنها أمر غير منتظر فى تقديرهم ، وهى فى اعتقادنا أقرب شيء إلى البداهة وطبائع الأمور .

فيجب أن نقدر أولا أن السيد المسيح قد أشار حتما إلى الملكوت الذى يفهم كل سامع أنه هو العالم الآخر ، وأنه يأتى فى نهاية هذا العالم ، وأنه إذا أشار إلى ذلك الملكوت رجع السامعون بالبداهة إلى النبوءات التى جعلت له علامات وإلى كلام المفسرين والمترقبين الذين قرنوا تلك العلامات بنهاية الألف الرابعة أو نهاية الألف السادسة ، واختلفوا هل يأتى المسيح المرتقب ثم يعود ، أو ينتهى العالم الأرضى بمجيئه ولا يكون مرجعه بعد ذلك فى هذا العالم الأرضى المعهود .

وطبيعى جدا أن يتكلم السيد المسيح عن ملكوت السماوات بهذا المعنى وأن يرجع السامعون إلى تلك النبوءات ، ولا موضع للاستغراب فى هذا الصدد . بل الغريب أن يخلو كلام السيد من هذا النذير ، سواء ظهر فى ذلك الوقت أو ظهر بعده فى زمن تتطلع فيه الأنظار إلى النهاية وإلى تحقيق النذر والبشائر والعلامات .

فاذا أدخلنا هذا الملكوت بهذا المعنى فى تقديرنا فليكن فى الحساب أنه باب من أبواب اللبس بينه وبين الملكوت بمعانيه الأخرى ، ولا سيما

الملكوت الذى تقوم عليه رسالة السيد المسيح خاصة ، كما هو الواقع فى جميع الرسالات .

فى رسالات الأنبياء الداعين إلى العالم الآخر جميعا ملكوت رضوان يتحقق فى السماء وملكوت يعمل له الناس فى هذه الحياة أو رسالة يستمعون لها فى هذا العالم فيستحقون بها الملكوت فى العالم الآخر .

هذا الملكوت أيضا — ملكوت الرسالة المسيحية أو ملكوت ابن الإنسان — يقع فى البال حتما إن السيد المسيح قد تكلم عنه ووصف لأتباعه مطالبه ووصاياه .

ولا بد من لبس هنا مع اللبس الذى يحدث من توجيه المعنى حينا إلى ملكوت القيامة ، وتوجيهه حينا إلى الملكوت القيامة .

أما اللبس فى فهم الملكوت الذى يدور على الرسالة المسيحية — أو رسالة ابن الإنسان — فمرجعه من جهة إلى تطور الدعوة على حسب قبول المستمعين لها فالملكوت فى الدعوة التى يختص بها الاسرائيليون غير الملكوت فى الدعوة التى لا يختصون بها ، بل لعلهم يطردون منها ، وتعم الأمم أجمعين »

ومرجع اللبس من جهة أخرى إلى سمو الرسالة على مدارك السامعين ، ولا مناص من هذا اللبس إذا دعى .

رسالة أسمى جدا مما ترقبوه وتطلعوا إليه واستطاعوا أن يفهموه .

ولا نر أن المسافة الشاسعة بين نفس السيد المسيح وبين نفوس التلاميذ والأتباع قد برزت فى موضع من المواضع بروزهم فى الأسئلة التى توالت منهم عليه وفى الحيرة التى دلت عليها هذه الأسئلة ، حتى نيقوديموس عضو المجمع الأعلى لم يفهم معنى الملكوت الذى يستدعى من الإنسان أن يولد ولادة ثانية ويدخل إليه إنسانا جديدا كما يدخل الطفل الوليد إلى هذا العالم ، وحتى بعد بلوغ الدعوة ختامها ظل التلاميذ يحسبون أن الملكوت يأتى بدولة بنى

إسرائيل : « فسألوه قائلين : يارب ! هل فى هذا الوقت ترد الملك إلى إسرائيل ؟ فقال لهم : ليس لكم أن تعرفوا الأزمنة والأوقات التى أودعها الأب سلطانه .. لكنكم ستنالون قوة متى حل عليكم الروح القدس ، وستكونون شهداء لى فى أورشليم وفى اليهودية جميعا ، وفى السامرة ، وإلى أقصى المسكونة .

ونعود فنقول إن اللبس طبيعى جدا فى هذا الموقف بين مقصد المتكلم ومدارك السامعين ، وإن هذا التفاوت البعيد هو الذى يؤدى بنا إلى فهم الملكوت كما أراده السيد المسيح ، لأنه ملكوت لم يكن فى طاقة التلاميذ أن يخلقوه ويصوروه ، وكل ما فى استطاعتهم أن يذكروا له أوصافا متفرقة سمعوها فسجلوها والتقطوها كما يلتقط السامع ألفاظا من لغة لا يفهمها ، فإذا أمكننا بعد ذلك أن نخرج تلك الألفاظ مفردات متناسقة مفهومة على صورة واحدة فتلك هى الآية على صحة تلك الصورة ، وأنها هى الوصف المقصود .

والأناجيل قد ذكر وصفا متناسقا للملكوت فى مواضع شتى : ذكرت مملكة ليست من هذا العالم ، وذكرت مملكة قائمة فى ضمير الإنسان فى كل زمان ، إذا ربحها فهو الغانم وإذا خسرها فالعالم كله لا يجديه ، وذكرت مملكة لا يدخلها الإنسان إلا بنفس طاهرة صافية كنفس الطفل البرىء ، وذكرت مملكة لا يفتحها السيف لأنه ما بالسيف يؤخذ فبالسيف يضيع . « ولما سأله الفريسيون متى يأتى ملكوت الله ؟ أجابهم : انه لا يأتى بمراقبة . ولا يقول قائل هوذا هاهنا وهوذا هناك ، لأنه هو الآن فى داخلكم » .
(١٧ لوقا)

فالذين استغربوا الأوصاف ولم يروا فيها إلا التناقض والشكوك ! ماذا يصنعون بهذه الصورة المتناسقة ؟ وعلى أية صورة كانوا ينتظرون أن تأتى غير هذه الصورة مع التفاوت بين مدارك المعلم ومدارك التلاميذ ، ومع حضور الملكوت فى أذهان السامعين بمعنى القيامة وروده أحيانا فى كلام السيد المسيح بهذا المعنى ؟ بل كيف كانوا ينتظرون أن تأتى على غير هذه

الصورة مع تطور الدعوة تطورا لابد منه بين كلام موجه إلى أمة خاصة وكلام موجه إلى جميع الأمم ؟

إن الخلاصة المغربلة موجودة بين السنابل والحبوب ، ولكن العيب فى الغربال الذى لا يعمل عمله وفى حامل الغربال الذى ينسى أن الغربال لازم وان هذا موضع لزومه على التخصيص .

إذا جاءنا رجل لا يعرف اللغة الصينية ، ووضع أمامنا خطوطا وأشكالا ، وتسنى لنا أن نخرج من تلك الخطوط والأشكال كلمات تتم بها جملة مفهومة ، فتلك آية الآيات على صدق الصورة المنقولة ، وتلك الصورة إذن أحق بالاعتماد عليها من كلام الناقل الذى يستطيع أن يزيد على الكلام أو ينقص منه ، أو يدخل عليه التحوير والتبديل حسب هواه .

* * *

تحولت الدعوة من خاصة إلى عامة ، ومن أمة واحدة إلى سائر الأمم ، بل إلى « الإنسان » فردا كان ، أو عنوانا يشمل كل إنسان .

وحدث هذا التحول والعالم الإنسانى متهيىء للدعوة الجديدة من أعماق وجدانه ، وإن لم يكن يسيرا عليه أن يفهمها حق فهمها ، أو يسبر أغوارها .

والعالم الإنسانى يتهيأ لهذه الدعوات على حسب حاجته إليها ، ولا يلزم على الدوام أن يفهمها كما يلزم أن يحتاج إليها أو إلى شىء من قبيلها .

مثله فى ذلك مثل التربة التى ينفعها المطر لأنها مهيأة له متعطشة إليه ، ولا محل هنا للحديث عن الفهم وسبر الأغوار .

كانت العلاقة العالمية ، أو العلاقة الإنسانية قد وجدت من وراء أسوار الأمم والأقوام ، ولكنها قد وجدت فى بقاع من الأرض ولم توجد فى سرائر الضمير ، ولعل الناس قد اختبروا منها أضرار العداء والبغضاء وكبرياء الجنس ونفور العصبية ، قبل أن يختبروا منها بمزايا الوحدة ويتطلعوا من ورائها إلى الاخوة والصفاء .

بل تحطمت أسوار الأمم والأقوام أمام وطأة الشقاء قبل أن تتحطم أمام دعوة الاخوة والصفاء ، فاتسعت رقعة العالم المتوحد لأناس من جميع العصب والسلالات ، لا يشعرون بينهم بوحدة غير وحدة العبودية والضنك ، أما فى ربقة الرق الصراح أو فى ربقة أخرى لا تقل عنها فى القسوة والنقمة ، وهى ربقة الحرمان والقنوط .

وقد كان من العسير أن يتمخض العالم الوثنى عن رسول يجمع الأقوام إلى دين واحد ، لأن تاريخ الوثنية لم يعهد فيه أن يخرج للدنيا رسلا تملؤهم الحماسة الروحية وتفيض منهم على من حولهم فضلا عن البعيدين عنهم ، ولم يعرف التاريخ قط داعية وثنيا تجرد للتبشير والإنذار غير حافل بالموت ولا مرتدع بما يلقاه من زواجر الإرهاب والوعيد ، وكل ما يحدث فى الأديان الوثنية أن تغلب الدولة التى تدين بها على الشعوب المقهورة فتحملها على طاعة أربابها كما تحملها على طاعة قوانينها وأحكامها ، وتفرض عليها العبادات التى تتصل بالشعائر العامة والمحافل الرسمية ثم تترك لها بعد ذلك ما يروقها أن تعبده من الأرباب والأصنام .

أما الحماسة الروحية التى كانت لازمة لتوحيد العقيدة فى العالم الإنسانى فلم تعهد قط فى غير الأديان الكتابية أو الأديان الإلهية ، ولم يكن لها رسل قط غير الرسل المؤمنين بإله أعظم من الدنيا وأعظم من الدول وأعظم من كل موجود .

ولحكمة من الحكم الخالدة وجد هذا الرسول مطرودا فى قومه ، ولم يوجد بينهم مقصور الدعوة عليهم ، فوجد فيه العالم بغيته فى ساعة الحاجة إليه ، وانها لآية من الآيات التى يطول عندها تدبر الباحثين والمؤرخين ، لأنها من التوفيقات التى يكون القول بالمصادفة فيها أصعب وأعجب من القول بالتدبير والتقدير .

وتم على يد هذا الرسول نقيض ما يتم على أيدى الوثنية فى صولتها وسلطانها ، فإن الوثنية تتغلب لأنها دين الدولة الغالبة ، أما هذه الرسالة —

رسالة الملكوت السماوى — فقد نشأت فى عشيرة قبيلة ذليلة ، تحكمها تارة دولة الرومان الغربية ، وتحكمها تارة أخرى دولة الرومان الشرقية ، فلم تمض غير أجيال معدودات حتى غزت الدولتين واستوت على العاصمتين ، وصح ما رووه عن جوليان — سواء قاله أو لم يقله — فانتصر « الجليلى » بملكوته السماوى على ممالك القياصر ، وضم القياصر إلى حاشيته ، فمنه يأخذون ما أخذوه باسم قيصر وما أخذوه باسم الله ! .

الباب الثالث

أدوات الدعوة

قدرة المعلم :

إذا انتشرت دعوة من الدعوات الكبيرة فى العالم ثبت من انتشارها شيئان على الأقل ، وهما أن العالم كان عند انتشارها محتاجا إليها ، ومستعدا لسماعها ، وهما شيئان مختلفان لا يذكران فى معرض الترادف والتماثل ، لأن الحاجة إلى الدعوة كالعلة ، والاستعداد لسماعها كالشعور بالعلة أو كالاستعداد لطلب الدواء وقد يتفقان فى وقت واحد ، وقد توجد العلة ولا يوجد معها طلب الدواء ولا قبوله إذا عرض على العليل .

وجملة ما يفهم من العصور التمهيدية التى لخصنا الكلام عليها فيما مضى أن العالم فى عصر الميلاد كان محتاجا إلى الدعوة المسيحية ، مستعدا لسماعها ، سواء قصرنا الكلام على عالم إسرائيل أو عممناه العالم أجمع .

فعالم إسرائيل كان يؤمن بالمسيح المنتظر وبموعده فى تلك الحقبة من الزمن ، والعالم المعمور كان يؤمن إيمانا « سلبيا » بافلاس الوثنية واقفار النفوس من الرجاء ، وكان عامته فى بؤس ويأس ، وخاصته مستسلمين للمتاع أو مستسلمين للتصوف ، من كان منهم يفكر دان بالابيقورية أو دان بالرواقية ، ومن كان مطبوعا على التدين والبحث فى شئون الغيب ، دان بنحلة خاصة من النحل السرية التى تحل فيها المراسم والشعائر محل الفرائض والعبادات .

وقد يكون الكثيرون من الخاصة بمعزل عن الابيقورية والرواقية والنحل السرية ، فهم إذن فى حالة الخواء الذى يسبق الامتلاء ، وأسلم ما يقال عنه فى صدد العقيدة المقبلة أنه لا يملك القوة على مقاومتها بقوة مثلها ، وأنه قد يتفتح بقبولها فيكون شعور الخواء من أسباب الإقبال عليها والرغبة فيها .

كان العالم فى عصر الميلاد محتاجا للعقيدة مستعدا لسماعها ما فى ذلك ريب ، ولكنه مع هذه الحاجة وهذا الاستعداد لم يكن خليقا أن يظفر بتلك العقيدة عفوا صفوا بغير جهاد من رسلها ودعاتها ، وبغير كفاية عالية فى أولئك الرسل والدعاة .

لم يكن احتياج العالم للعقيدة ولا استعداده لسماعها مغنيا للعقيدة عن أدوات الفلاح والنجاح . وأولها قدرة الداعى على كسب النفوس واجتذاب الأسماع والغلبة على ما يقاومه من المكابرة والعناد .

وقد كانت هذه القدرة موفورة فى معلم المسيحية ، وبحق سمى المعلم ونودى به فى مختلف المجامع والمحافل ، لأن مهمته الكبرى كانت مهمة تعليم وإيحاء روحى حيوى من طريق التعليم .

نودى المسيح بالمعلم فيما روته الأناجيل مرات : ناداه بهذا اللقب تلاميذه كما ناداه به خصومه ومن يستمعون له غير متتلمذين وغير مخاصمين .

وكان نداؤهم له بهذا اللقب لأنهم يجدون فى كلامه علما واسعا بالكتب والأسفار ، وبديهة حاضرة فى الاستشهاد بها والتعقيب عليها ويكفى ما بين أيدينا من الأناجيل للجزم بأنه كان يرتل المزامير وكان يحفظ كتب ارميا واشعيا وحزقيال فضلا عن الكتب الخمسة التى نسبت إلى موسى عليه السلام، وفضلا عن اختلاف المذاهب فى تطبيق الوصايا والأحكام .

ويرجح بعض المؤرخين أنه كان يعرف اليونانية وأن الحديث الذى دار بينه وبين بيلاطس كان بهذه اللغة ، لأن اليونانية كانت شائعة فى عصره بين أبناء الجليل ، وكان كثير من اليهود خارج الجليل لا يفهمون العبرانية ولا الآرامية ويحتاجون إلى ترجمة الكتب المقدسة باللغة اليونانية ، ومنهم من كان يحج إلى بيت المقدس فى الأعياد ، ومن أبناء الجليل اليهود من كانوا يسافرون إلى الاسكندرية وبلاد الإغريق ولا يتفاهمون بغير اليونانية مع أبناء جلدتهم هناك ، فلا غرابة فى معرفة السيد المسيح باليونانية كما كان يعرفها الكثيرون من أبناء الجليل ، ولكن المحقق أنه كان يعرف العبرية الفصحى التى تدرس بها كتب موسى والأنبياء ، وأنه كان يعرف الآرامية التى كان يتكلمها كلام البلغاء ، وأنه إذا عرف اليونانية فإنما كانت معرفته بها معرفة خطاب ولم تكن معرفة دراسة ، لأن أقواله خلت من الإشارة إلى مصدر واحد من مصادر الثقافة المكتوبة بتلك اللغة ، ولأن

العبارات التى جاءت فى الأناجيل اليونانية منسوبة إليه تشف عن أصلها الآرامى بما فيها من الجناس أو من قواعد البلاغة وإيقاع الألفاظ .

على أن هذا العلم كله بالثقافة الموسوية الإسرائيلية لم يكن فريدا بين أحبار اليهود فى تلك الآونة ، فربما كان فى بيت المقدس يومئذ مئات من الكتبة والفريسيين حفظوا من تلك الكتب ما حفظ السيد المسيح : واقتدروا على الاستشهاد بها والتعقيب عليها بعارضة قوية وبديهة حاضرة ، ولم تكن لواحد منهم كفاية المعلم الذى يبث الحياة الروحانية فى النفوس وينفث فى الخواطر تلك الراحة التى تشبه راحة السريرة ، حين تتناسق فيها الأنغام التى كانت متنافرة قبل أن تجمع وتصاغ .

لقد كانت اللغة التى حملت بشائر الدعوة الأولى لغة صاحبها بغير مشابهة ولا مناظرة فى القوة والنفاذ .

كانت لغة فذة فى تركيب كلماتها ومفرداتها ، فذة فى بلاغتها وتصريف معانيها ، فذة فى طابعها الذى لا يشبهه طابع آخر فى الكلام المسموع أو المكتوب ، ولولا ذلك لما أخذ السامعون بها ذلك المأخذ المحبوب ، مع غلبته القوية على الأذهان والقلوب .

كانت فى تركيبها نمطا بين النثر المرسل والشعر المنظوم ، فكانت فنا خاصا ملائما لدروس التعليم والتشويق وحفز الذاكرة والخيال ، وهو نمط من النظم لا يشبه نظم الأعاريض والتفعيلات التى نعرفها فى اللغة العربية ، لأن هذا النمط من النظم غير معروف فى اللغة الآرامية ولا فى اللغة العبرية ، ولكنه أشبه ما يكون بأسلوب الفواصل المتقابلة والتصريعات المرددة التى ينتظرها السامع انتظاره للقافية ، وإن كانت لا تتكرر بلفظها المعاد .

كان أسلوبه فى إيقاع الكلام أسلوبا يكثر فيه الترديد والتقرير ، وليس فى الترجمة العربية ما يدل عليه من قريب ، ولكنها مع التأمل تدل عليه من بعيد ، كما فى هذا المثال :

« اسألوا تعطوا .

« اطلبوا تجدوا .

« اقرعوا يفتح لكم .

« لأن من يسأل يأخذ ، ومن يطلب يجد ، ومن يقرع يفتح له الباب .

« من منكم يسأله ابنه خبزا فيعطيه حجرا .

« أو يسأله سمكة فيعطيه حية .

« أو يسأله بيضة فيعطيه عقربا .

« فاذا كنتم — وأنتم أشرار — تحسنون العطاء للأبناء ، فكيف بالأب الذى فى السماء يعطى الروح القدس لمن يسألون » .

أو كما فى هذا المثال :

« كما فى أيام نوح كذلك يكون فى أيام ابن الإنسان .

« كانوا يأكلون ويشربون ويزوجون ويتزوجون ، إلى اليوم الذى دخل الفلك وجاء الطوفان وأهلك الجميع .

« كذلك فى أيام لوط كانوا يأكلون ويشربون ويبيعون ويغرسون ويبنون ، ولكن اليوم الذى خرج فيه لوط من سدوم أمطرت نارا وكبريتا من السماء فأهلك الجميع .

« هكذا يكون فى اليوم الذى يظهر فيه ابن الإنسان .

« فى ذلك اليوم من كان على السقف وأمتعته فى البيت فلا يهبط إليها ليأخذها .

« ومن كان فى الحقل فلا يرجع إلى الوراء . ألا تذكرون امرأة لوط ؟

« من طلب الخلاص لنفسه يهلكها ، ومن أهلكها يحييها .

« أقول لكم فاستمعوا : فى تلك الليلة يكون اثنان على فراش واحد فيؤخذ أحدهما ويترك صاحبه .

« وتكون اثنتان تطحنان ، تؤخذ احداهما وتترك الأخرى .

« ويكون اثنان فى الحقل يؤخذ هذا ويترك ذاك .

« ... حيث تكون الجثة هناك تجتمع النسور » .

* * *

وقريب من هذين المثالين نذيرة لأورشليم :

« يا أورشليم . يا أورشليم !

« يا قاتلة الأنبياء ، وراجمة المرسلين .

« كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها .

« ولم تريدوا .

« هو ذا بيتكم رهين بالخراب » .

وقريب منه نذيره لبنات أورشليم :

« يا بنات أورشليم !

« لا تبكين على ، وعلى أنفسكن وأولادكن فابكين .

« أيام يقولون طوبى للعواقر والبطون التى لم تلد والثدى التى لم ترضع .

« أيام ينادون الجبال أن تسقط عليهم ، والآكام أن تكون غطاء لهم .

« إن كان بالغض الرطب يصنع هذا ، فباليابس ماذا يصنعون ؟ » .

* * *

هذه النماذج فيها نقص الدلالة على أسلوبه فى تركيب اللفظ وسياق التذير والتذكير .

أما أسلوب المعنى فقد اشتهر منه نمط الأمثال فى كل قالب من قوالب الأمثال ، ومنه القالب الذى يعول على الرمز ، والقالب الذى يعول على الحكمة ، والقالب الذى يعول على القياس ، والقالب الذى يعول على

التشبهات ، وكلها تتسم بطابع واحد هو طابعه الذى انفرد به بين أنبياء الكتب الدينية بغير نظير ، وإن كانوا قد اعتمدوا مثله على ضروب شتى من الأمثال.

فمن نماذج المثل الذى يعول على الرمز مثل الزارع والبذور « زارع خرج ليزرع وفيما هو فى الطريق سقط بعض البذور فجاءت طيور السماء وأكلته ، وسقط بعضها فى مكان محجر خفيف التربة فنبتت على الأثر ثم لم يلبث أن أشرقت عليه الشمس فاحترق ، وإذ لم يكن له عمق فى جوف الأرض جف ، وسقط بعض البذور بين الشوك فطلع الشوك وخنقه فلم يثمر ، وسقط غيرها فى الأرض الجيدة فأعطى ثمرا يصعد وينمو ، فأتى واحد بثلاثين وآخر بستين وآخر بمئة . من له أذنان للسمع فليسمع » .

ومن نماذجه مثل فتيات العرس : « يشبه ملكوت السماوات عشر عذارى أخذن مصابيحهن وخرجن للقاء العريس : خمس منهن فطنات وخمس غافلات . أما الغافلات فقد أخذن المصابيح ولم يأخذن معها زيتا ، وأما الفطنات فأخذن الزيت فى آنيتهن مع المصابيح ، وأبطأ مقدم العريس فغلبهن النعاس جميعا ، ثم علت الصيحة عند منتصف الليل : هاهو ذا العريس قد أقبل فاخرجن للقائه ، فالتفتت الغافلات إلى مصابيحهن تنطفىء وسألن زميلاتهن قليلا من زيتهن فأجبنهن : لعله لا يكفينا فاذهبن واشترين حيث يباع . وفيما هن ذاهبات قدم العريس ... وصحبته الحاضرات المستعدات إلى محفل الزفاف ، ثم جاءت الغائبات وقد أغلق الباب وطفقن ينادين . افتح لنا يا سيد ... افتح لنا يا سيد . فأجابهن من أنتن ؟ إنى لا أعرفكن ! » .

ومنه قوله : « أنا خبز الحياة .. من يقبل على لا يجوع » .

ومن نماذج المثل الذى يعول على الحكمة : « لا تطرحوا الدر أمام الخنازير » .. « بالكيل الذى تكيلون يكال لكم » ... « أيها المداوى داو نفسك » .. « خمر جديدة فى زقاق قديمة » .. « لا تدع يسارك تعلم عما تصنع يمينك » .. « من ثمارهم تعرفونهم » .. « لا كرامة لنبى فى وطنه » .

ومن نماذج المثل الذى يعول على القياس : « إن كنتم تحبون من يحبونكم فأى فضل لكم ؟ أليس ذلك شأن العشارين ؟ » .

ومنه فى تبكيت من ينكرون عليه صحبة الخاطئين : « لا حاجة بالأصحاء إلى طبيب ، إنما المرضى محتاجون إلى الأطباء » ، ومنه : « إن كان النور الذى فيك ظلاما فالظلام كم يكون » ! .

ومن نماذج المثل الذى يعول على التشبيهات خطابه لتلاميذه « أنتم ملح الأرض ، فان فسد الملح فبماذا يصلح ؟ أنه لا يصلح إذن إلا لأن يلقى على التراب ويداس . أنتم نور العالم ، ولا خفاء بمدينة قائمة على رأس جبل ، وما من سراج يوقد ليوضع تحت المكيال ولكنه يرفع على المنار يستضىء به جميع من فى الدار » .

ومن نماذجه : « لا تكنزوا لكم كنوزا على الأرض حيث يفسد السوس والصدأ وحيث ينقب السارقون ويسرقون . بل اكنزوا لكم كنوزا فى السماء حيث لا سوس ولا صدأ ولا لصوص . وحيث يكون الكنز يكون القلب » .

وقد أثر عن السيد المسيح فى جميع الأمثال حب المقابلة بين الأضداد لجلاء المعانى وتوضيح الفوارق من وراء هذه المقابلة : « يرون القذى فى أعين غيرهم ولا يرون الخشبة فى أعينهم » .. « يحاسبون على البعوضة ، ويبلعون الجمل » .. « فى الظاهر جدران مبيضة وفى الباطن عظام نخرة » .. « غنى يدخل باب السماء كحبل غليظ يدخل فى سم الخياط » .

ومعظم هذه الأمثلة تأتى فى مناسباتها عفو الخاطر ، جوابا على سؤال ، أو تعقيبا على حادث عارض ، أو تقريعا لمكابر ، فيندر أن يسترسل فيها المعلم البصير إلى غير المناسبة التى توحيها ، ولهذا يرجح بعض الشراح المحدثين أن الأمثلة المتوالية فى المقاصد المختلفة لم تصدر عنه فى سياق واحد أو جلسة واحدة ، وان الخطبة على الجبل — وهى أحفل الخطب بالمقاصد والموضوعات

— جمعت من متفرقات كانت منجمة على حسب الموضوعات فى أوقاتها ومناسباتها .

وإذا كانت طائفة من عظات السيد المسيح جاشت بنفسه فى أوقات مناجاتها فانتظمت فيها كما تنتظم المعانى المنسوقة فى البديهة المهمة فقد كانت سرعة البديهة تسعفه فى غير هذه الأحوال ، فتجرى كلماته فى مجراها المألوف على نسق سهل قد يظن به التحضير لأنه منتظم غير مرسل ، ولكنه فى الواقع لم يكن محضرا قبل ساعته ، وغاية ما يعرض له من التحضير أن الفكر الذى يجود به لم يخل قط من التفكير فيه وأنه تعود التفكير فى المواقف المتشابهة فانسبكت قوالب التعبير فى بواطن قريحته غير مقصودة ولا متكلفة ، وهى عادة يعرفها من تعودا التفكير ، والتعبير وحضور الشعور بينهم وبين الجماهير ، وقد سمعت خطباء جادوا بأبلغ آياتهم الخطابية فى لحظة من لحظات الارتجال الفياض بين الشعور المتجاوب والحماسة المنبعثة من القائل والمستمعين ، فهم مرتجلون يخيل إليهم قبل غيرهم أنهم يسمعون كلاما معهودا ، ويوشك أن يتساءلوا : أين يا ترى سمعوه قبل الآن ؟ والواقع أنهم نقلوه من وعيهم الخفى إلى وعيهم الظاهر فكان شأنهم كشأن سامعيه فى استغرابه ، والواقع أيضا أن الناس حين يستمعون إليه يرونه غريبا وقريبا فى وقت واحد : غريبا لأنه كان يساورهم ولا يدركونه ، وقريبا لأنهم تمثلوه بفضل بلاغة القائل بعد استعصائه على الإدراك .

× × ×

ومن كان كالسيد المسيح تربى منذ طفولته على التلاوة فى كتب الأنبياء وتتابعت على سمعه ولسانه أصداء المزامير المرتلة ، والأمثال المرددة ، واستقامت فطرته على الوحى والإيحاء فليس أقرب إليه من أن ينطلق بكلام يحيك فى الأسماع بهاتف الصحف الأولى وهو من نبع فؤاده واملاء بديهته ، وهذه هى البديهة التى كان يعنيها حين يوصى تلاميذه بالاعتماد على الطبع وترك الاهتمام بالتزويق ، والتنميق قبل الساعة التى تدعوهم دواعيها للخطاب .

ولعل سامعي العظات الدينية فى عصر المسيح قد سمعوا الأمثال فى قوالبها مرات كثيرة ، ولعلهم كانوا يعاودون سماعها كلما دخلوا معبدا أو استمعوا إلى خطيب فى غير المعابد ، فإن نقاد البيان العبرى والآرامى يردون هذه الصيغ البيانية إلى عصور قديمة سبقت مولد المسيح بمئات السنين . فلم يكن المسيح مبدعا للأمثال ولا لقوالبها التى تعول على الرموز أو الحكم أو التشبيهات أو منطق القياس ، ولكن الأمر المحقق أن سامعى ذلك العصر لم يعرفوا قط أريحية كتلك الأريحية التى كانت تشيع فى أطوائهم وهم يصغون بأسماعهم وقلوبهم إلى ذلك المعلم المحبوب الذى كان يناجيهم بالغرائب والغيبيات مأنوسة حية يحسبون أنها حاضرة فى أعماقهم لم تفارقهم ساعة أو بعض ساعة ، لفرط ما كان يغمرهم من حضوره المشرق ويستولى عليهم من عطفه الطيب وحنانه الطهور .

ومن البيان ما يروع ويهول ويخيل إلى سامعه أن يبتعد من مصدره كلما أصغى إليه ، ومنه ما يجذب ويقرب ويخيل إلى سامعيه أن كل كلمة منه ترفع حاجزا أو تدنى مسافة وتزيل وحشة بين القائل والسميع .. من هذا البيان كان بيان المعلم المحبوب القدير على تقريب سامعيه بالعطف والإفهام ، فمن فهم قريب ومن لم يفهم غير بعيد ، وفى وسعنا أن نتخيل أولئك المستمعين البسطاء يقبلون على الاستماع وهم فى ظلام الجهالة لا يدرون ماذا سيسمعون ثم تتفتح فى أذهانهم الخواطر ، وتتفتق فيها الأشياء وتتبين الفوارق بين أضداد فينجاب الظلام سدفة بعد سدفة ويعقبه النور قبسا وراء قبس ، ويداخلهم على مهل شعور الأعمى الذى يسترد بصره مشدوها بالرؤية لأول مرة ، أو شعور المدلج الذى يصحب الليل من السحر إلى الفجر إلى الصباح : هداية فى رفق ورحمة ، واقتراب فى غير عناء ولا اقتحام .

فى وسعنا أن نتخيل أولئك البسطاء يقتربون من معلمهم بالفهم والمعرفة ، أو يقتربون منه بالعطف والمودة .

وفى وسعنا أن نتخيل من ثم فضل الرسول فى الرسالة . فلا رسالة فى

الحق بغير رسول ، ولا سبيل إلى قيام المسيحية بغير مسيح ، فإن مصدر الرسالة الروحية هو زبدتها وجوهرها ، وهو الأصل الأصيل فى قوتها ونفاذها ، وكل ما عداه فروع وزيادات .

لقد كان لب الرسالة المسيحية فى لب رسولها المسيح : هداية إنسان لا صولة له على أحد غير العطف والإلهام ومكاشفة القلوب والأفهام ، ولو لم يكن فضل الرسول هو فضل الرسالة لقد كان يوحنا هو الأولى بالسبق فى الميدان لأنه صاحب السبق فى الدعوة وصاحب السبق فى الشهادة ، ولكنها دعوة كانت تنتظر صاحبها ، وصاحبها هو المسيح ،.. وكانت حاجة العالم كله إلى الدعوة المطلوبة لا تكفى بغير صاحبها القادر عليها .. والصالح لإقامتها ، لأن صاحب الحاجة لا يملك بالبداهة ما هو محتاج إليه .

إخلاص التلاميذ

فضل التلاميذ الأول فى كل دعوة أنهم دعاة ، أى أنهم شركاء للمعلم فى نشر الدعوة .

أما الفضل الأول للتلاميذ فى الدعوة المسيحية فهو أنهم مستجيبون ، فلم يكونوا قادة يدعون غيرهم إلى صفوفهم ، بل كانوا فى الواقع هم الصف الأول السابق إلى الاستجابة ثم تلته صفوف أخرى من أمثاله، ليس فيهم قائد ولا مقود ، وكلهم فى قبول الدعواة سواء .

كان فضل التلاميذ فى الديانة المسيحية أنهم أول القابلين ، ولا بد أن نعلم هذا الفارق بين طبيعة القابلين وطبيعة العاملين .

فالتلاميذ بالنسبة إلى السيد المسيح هم أمته الصغرى ، كبرت مع الزمن على هذا المثال ، فأصبحوا أمة كبيرة تحتذى بتلك الأمة الصغيرة فى الاستجابة ، فهم سابقون أعقبهم لاحقون من قبيلتهم وهم الصف الأول فى الجيش الواحد ، وليسوا هم جيشا يقابل جيشا آخر بالدعوة فيلبيه وينضوى إليه .

كانوا نموذج الأمة المسيحية فى أول الرسالة ، ومضى على الأمة المسيحية عدة أجيال وهى لا تخالف هذا النموذج فى التكوين ولا فى الطراز ، ومن هنا نقول أن التلاميذ لم يكونوا دعاة فرضوا عقيدتهم على أناس غيرهم ، ولكنهم وغيرهم جميعا مستجيبون للدعوة فوجا بعد فوج ورعيلا وراء رعيل .

إن الدعوات قادة ومقودون .

ولكن التلاميذ فى الدعوة المسيحية لم يكونوا قادة لغيرهم ، بل كانوا هم السابقين من صفوف تلاحقت وتعاقبت ، لا فرق فى بنيتها بين أولين وآخرين .

وليس فى سيرتهم الأولى ما يفهم منه أنهم مميزون بصفة القيادة فهم جميعا من بيئة واحدة . وربما كانوا جميعا من سلالة متقاربة أو بيوت

متجاورة . كأنهم وقعت عليهم القرعة بين المتشابهين والمتماثلين ، ثم امتازوا بعد ذلك بالتعليم والتدريب على يدى السيد المسيح .

وكان السيد المسيح ينظر إلى بعضهم فيقول له : اتبعنى . فيتبعه ولا يظهر عليه انه أفضل من غيره بمزية عقلية أو نفسية إلا أن تكون المزية التى يتوسمها فيه السيد فيدعوه من أجلها ، وهى مزية الإصغاء والاتباع .

ولم يبد منهم أنهم أقدر على فهمه من الآخرين ، فلو أصابت القرعة اثنى عشر آخرين لكانوا فى مثل قدرتهم على التعلم واستعدادهم للقبول ، لأن كفاءتهم ولا شك هى الكفاءة الوسطى فى كل طائفة بهذا العدد ومن هذه البيئة ، فلم يكن منهم علم بارز لا يتكرر بهذه النسبة فى أية جماعة يقع عليها النظر للوهلة الأولى ، فلا يقال فى واحد منهم أنه واحد من مائة أو واحد من ألف لا يتكرر ، أو أن واحد منهم تعلم ما لا يتعلمه أمثاله لو حضروا كما حضر على معلمهم القدير . بل كل ما يقال أنه مجند يشبه غيره من المجندين ، والفضل للقائد بعد ذلك فيما ظفر به من التدريب والتهذيب .

وقد وقع عليهم الاختيار كما جاء فى الأناجيل .

ولكن لا يبدو من ذلك الاختيار أنه كان اختيارا نادرا أو مستعصيا على القائد الحكيم الحصيف ، ولعل العامل الأكبر فيه أنهم مختارون من طائفة متعارفة متآلفة ، وأن اجتماعهم هكذا خير وأصلح من اجتماعهم بددا من بيئات متباعدة ، فان المتآلفين أولى بمصاحبة بعضهم بعضا من المتباعدين .

ونحسب أن التشبيه بالتجنيد هنا خليق أن يقرب إلى الأذهان هذا المعنى الذى نرى له المكان الأول فى فهم الدعوة وأسباب سريانها .

فالمجندون يقترعون ، وكلهم متماثلون فى شروط التجنيد ، ولكنهم مع هذا يعرضون على القائد فيعزل منهم فئة متجانسة فيما يراه ، وكل الفئات الأخرى تضارعها على الجملة فى شروط التجنيد .

لم يكونوا طينة من البشر غير طينة السواد لولا تلك النفحة العلوية التى نفثها فيهم روح المعلم القدير .

كان يعرف عيوبهم ، وكانوا فى أمانتهم واخلاصهم لا يغالطون أنفسهم فى تلك العيوب :

كان يخاطبهم فلا يفهمونه فيسألونه مزيدا من التوضيح ، وكان يخامرهم الشك فيحسه منهم فلا ينكرونه ، وربما فاتحوه بالشك ابتداء وسألوه أن يزيدهم إيمانا ، فيزيدهم ويعلمهم كيف يتقون أمثال هذه الشكوك .

ولم يحسب قط أنهم طود لا يتزعزع وأنهم عزيمة لا تتضعضع وأنهم يواجهون المحنة فى كل حال ولا يدركهم ضعف النفس يوما أمام هول من الأهوال .

فقد أنبأهم أنهم سيتخلون عنه ، وقد ناموا وهو يسألهم أن يسهروا معه ، وقد لامهم غير مرة لأنهم يتنافسون على السبق أو لأنهم يستبطئون جزاءهم على الإيمان ، أو لأنهم — بعد وعظهم وتذكيرهم — لم يزالوا يفرقون بين الناس ويدينون بشريعة غير شريعة الحب والغفران ، ولم يكن على اليقين ينتظر منهم أكثر مما نظر ، أو تفوته منهم فى أوائلهم حالة ظهرت له فى أواخرهم ولكنه علم المطلوب منهم كله فوجد فيه الكفاية : علم أنهم نموذج لغيرهم يتكرر على مثالهم ، وليس مطلوبا من الناس فى العالم الواسع أن يدركوا مقاما من الإيمان فوق مقام الإخلاص وحسن الاستعداد لإصلاح العيوب ، وهذا المقام قد أدركه التلاميذ يوم وكل إليهم أن يسيحوا فى أرض الله ويجعلوا من أنفسهم مثلا يقتدى به المخلصون .

فهو لم يقصد إعدادهم ليخرجهم طرازا معصوما لا عيب فيه ولا مأخذ فيه ، ولكنه قصد اعدادهم ليحسنوا القدوة ويجمعوا حولهم من يسلك مسلكهم ، ويستقبل معهم قبلتهم ، ويكلفوا أنفسهم غاية ما يستطيعون ، وقد يستطيع من يقفوهم فوق ما استطاعوه .

* * *

ومن العبارات ذات المغزى الكبير فى الإنجيل أن المسيح مضى شوطا بعيدا فى دعوته ولم يقل لهم أنه هو المسيح المنتظر . فشاع ذكره فى القرى

وتساءل الناس عنه : من يكون ؟ فمنهم من يقول إنه يوحنا المعمدان قد بعث من الموتى ، ومنهم من يقول إنه إلياس ، ومنهم من يقول أنه نبى مبعوث ، والمسيح لا يقول للتلاميذ إنه المسيح . بل سألهم بعد شيوع ذكره وتسائل الناس عنه : وأنتم من تقولون أنى أنا هو ؟ فأجابه بطرس : أنت المسيح . فانتهره وأوصاهم ألا يذكروا ذلك لأحد فى رواية إنجيل مرقس .

أما فى إنجيل متى فقد روى أن بطرس قال : « أنت هو المسيح ابن الله الحى » فأجاب يسوع وقال : طوبى لك يا سمعان ابن يونا . أن مخلوقا من لحم ودم لم يعلن لك ولكنه أبى الذى فى السموات ، وأنا أقول لك أنك أنت بطرس (١) وعلى هذه الصخرة ابنى كنيستى وأبواب الجحيم لن تقوى عليها ، وأعطيك مفاتيح السموات فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطا فى السماوات ، وكل ما تحله على الأرض يكون محلولا فى السماوات ثم أوصى تلاميذه ألا يقولوا لأحد أنه هو يسوع المسيح » .

أما فى انجيل لوقا فالرواية أقرب إلى رواية إنجيل مرقس : « وفيما هو يصلى على انفراد كان التلاميذ معه فسألهم قائلا ماذا تقول الجموع عنى ؟ فأجابوا أنهم يقولون يوحنا المعمدان ، وآخرون يقولون إلياس وآخرون يقولون إن نبيا من القدماء قام . ثم سألهم : وأنتم من تقولون ؟ فقال بطرس : مسيح الله . فانتهرهم وأوصاهم ألا يقولوا ذلك لأحد » .

والرواية فى يوحنا أقرب إلى تصوير ما قدمناه ، فان السيد المسيح أحس أن الناس يتراجعون عنه « وأن كثيرا من تلاميذه رجعوا إلى الوراء ولم يمشوا معه ، فقال للاثنى عشر : ألعلكم أنتم تريدون أيضا أن تذهبوا ؟ فأجاب سمعان بطرس : يا رب ! إلى أين نذهب ؟ كلام الحياة الأبدية عندك ، ونحن قد آمنا وعرفنا أنك أنت المسيح ابن الله الحى . فأجابهم : ألست أنا اخترتكم .. وواحد منكم شيطان » ! .

---

(١) الكلمة الآرامية صفا بمعنى حجر كما فى العربية وبطرس « بيتر » هى ترجمة الكلمة باليونانية .

وقد تسمى كثيرون باسم التلاميذ فقال لهم كما جاء فى انجيل يوحنا :
« قال يسوع لليهود الذين آمنوا به إنكم إن ثبتم فى كلامى كنتم بالحقيقة تلاميذى ، وتعرفون الحق والحق يحرركم . فأجابوه : أننا ذرية إبراهيم ولسنا عبيدا لأحد فكيف تقول أنكم ستصيرون أحرارا ؟ قال : الحق الحق أقول لكم أن كل من يعمل للخطيئة فهو عبد للخطيئة ، والعبد لا يبقى فى البيت أبدا . إنما يبقى فيه الابن إلى الأبد . فان حرركم الابن فبالحقيقة تكونون أحرارا .. أنا عالم أنكم ذرية ابراهيم . لكنكم تريدون قتلى لأن كلامى لا يقع منكم موقعا .. أنا أتكلم بما رأيت عند أبى وأنتم تعلمون ما رأيتم عند أبيكم . فأجابوه : إن أبانا ابراهيم . قال : لو كان أباكم لعملتم عمله ولكنكم الآن تطلبون دمى وأنا إنسان كلمكم بالحق الذى سمعه من الله . هذا لم يعمله ابراهيم وأنتم تعملون أعمال أبيكم . فقالوا له : إننا لم نولد من سفاح لنا أب واحد هو الله . قال : لو كان الله أباكم لكنتم تحبوننى لأننى خرجت من قبل الله وأتيت إليكم . إننى لم آت من نفسى بل هو أرسلنى ...أنتم من أب واحد هو إبليس ... » .

فأجابه اليهود : « لحسن تقول إنك سامرى بك شيطان . وبعد أن قال لهم : إن من يحفظ كلامى لن يرى الموت عادوا يقولون الآن تبين لنا أن بك شيطانا . قد مات ابراهيم وأنت تقول : إن حفظ أحد كلامى لن يذوق الموت . من تجعل نفسك ؟ ألعلك أعظم من أبينا ابراهيم الذى مات » .

والعبرة من هذه القصة أن السيد المسيح مضى فى دعوته زمنا ولم يذكر لتلاميذه أنه هو المسيح الموعود ، وأنه كان يعلم ممن يطلبون التتلمذ عليه أنهم لا يدركون ما يقول ، ولا يفرقون بين لغة الحس ولغة الروح أو لغة المجاز ، وأنه أشفق يوما أن ينفض عنه تلاميذه المختارون كما انفض هؤلاء الذين أرادوا أن يحسبوا أنفسهم من التلاميذ وزعموا أنهم مثله فأنكر عليهم دعواهم وقال لهم : إنما بنوة الله بالأعمال وإنما أنتم بأعمالكم أبناء إبليس !

وقد علم المسيح أنه لن يبقى طويلا مع طلاب التلمذة عليه إلى الأبد ، وأنه لن يبقى معهم حتى يبلغوا من الدراية والإيمان تلك الغاية المثلى التى ليس

فوقها غاية فان صمد معه أناس يضعفوا تارة ولا يحسنوا فهمه تارة أخرى ولكنهم يحسنون الظن ويترقبون الأمل فى الخلاص من هــذا الطريق ، فأولئك على علاتهم خير من المتلمذين الذين يسيئون الفهم ويستكبرون ويأتمرون به ليقضوا عليه .

* * *

والشائع أن التلاميذ كانوا طائفة من صيادى السمك فى بحر الجليل ، والمفهوم من هذا عند أناس ممن يعرفونهم بالصناعة على السماع أنهم فى طبقة عمال الصيد الأميين ، ولكنه فهم متعجل مبنى على قياس غير صائب . إذ الواقع أنهم كانوا طائفة تقرأ وتكتب وتتردد على مجامع الوعظ والصلاة وتراجع ما قيل عن النبوءات ، لم يبلغوا فى العلم مبلغ الفقهاء فى زمانهم ، وهو خير لأنهم لو كانوا من فقهاء زمانهم لراكبهم الغرور وقابلوا الدعوة بالتحدى والمكابرة . ولكنهم لم يبلغوا كذلك مبلغ الأمية الجاهلة فى الغباء وكان منهم من نسميه فى عصرنا هذا بكاتب الحسابات أو مأمور التحصيل وهو متى العشار صاحب الإنجيل المعروف باسمه ، وقدرته على كتابة إنجيل « باللغة اليونانية كما هو الأرجح » قدرة لا تتأتى لغير المثقفين ومنهم يوحنا الذى ينسب إليه الإنجيل الرابع ، وهو ابن خالة المسيح أو من بنى خئولته ، وكان صاحب عمل ناجح فى تجارة السمك يشاركه فيه أخوه يعقوب كما يؤخذ من إنجيل مرقس حيث يقول : أنهما تركا أباهما فى السفينة مع الإجراء وذهبا وراء السيد المسيح .

ومنهم جيدمس قريب المسيح ويوحنا و « ابن الرعد » كما سماه المسيح لقوته فى الإنذار وتشديد النكير ، ومنهم بطرس وهو متكلم جرىء صلب العزيمة مدرب على حمل السلاح كما يؤخذ من بعض أخبار الإنجيل ، وكلهم كانوا على استعداد للمناقشة والمساجلة ومخاطبة الناس فى أمر الدعوة ، وأكثرهم واجه الموت فى عمله لنشر الدعوة ولم يحفل بمقاومة ذوى البأس والسلطان .

وقد استمالت الدعوة إليها فى عصر المسيح وبعد عصره طائفة من المثقفين

العلماء مثل نيقوديمس عضو المجمع الأعلى ، ومثل الطبيب لوقا صاحب بولس الرسول ، ومنهم بولس الرسول نفسه وهو أستاذ فى فقه الدين عالم بالتواريخ ، وأكثر هؤلاء المثقفين مالوا إلى الدعوة عطفا على التلاميذ المجاهدين الذين نكلت بهم السطوة الغاشمة ، لأنهم خارجون على نظام من العقيدة والعادة يحتقره أولئك المثقفون ولا يجهلون فعل المحاسبة الروحية فى تقويضه أو الإجهاز عليه .

* * *

ومن المعاصرين من يحلو له أن يحسب السيد المسيح داعيا إلى الفوضى السياسية متحللا من النظام ، لشدة إنحائه على الشريعة والجامدين عليها والمنافقين باسمها ، وفاتهم أن الشريعة الفاسدة فى أيدى الجامدين أو المنافقين هى الفوضى فى صورة أخرى ، ومن يدحضها وينحى عليها لن يكون من الفوضيين ولا أعداء النظام .

أما البينة فى الواقع على سخف هذا الحسبان فهو تنظيمه لتلاميذه وترويضه لهم على الطاعة وانكار الذات ، وتقسيمه للأعمال فى مجتمعه الصغير — مجتمع التلاميذ — بين أمين للصندوق ، ومباشر لمطالب الجماعة ، وراع يرعى القطيع فى غيبة السيد ، وهم فئة قليلة لا تجاوز العشرين مع حسبان التلاميذ وغيرهم من الطارئين .

وأدخل من هذا فى باب التنظيم أنه اختار أولا اثنى عشر تلميذا ثم اختار بعدهم سبعين وأوصاهم أن ينطلقوا[1] بالدعوة اثنين اثنين فى كل اتجاه ، وأنهم حين عادوا من رحلتهم أخذهم ناحية فى الجبل ليستمع منهم ويراجع أعمالهم ، ويزيدهم من الوصية والإرشاد .

وقد جعل كل مناسبة للدعوة مناسبة لتعليم أولئك التلاميذ المختارين ، وكان يحذرهم على الدوام من الفتنة الموبقة التى يتحطم عليها نظام كل جماعة وهى فتنة التنافس على الرئاسة ، فعلمهم أن الأول فيهم هو خادمهم الأول ، وضرب لهم مثلا فذا فى تاريخ الدعوات ليوقوا جماعتهم غواية الرئاسة كلما ذكروه ، فجمعهم فى محفل ليغسل أقدامهم بيديه ، ونفر بعضهم أول الأمر

ولكنهم عادوا فأذعنوا حين علموا العبرة التى عناها بهذه القدوة ، وقال الذين نفروا أول الأمر من هذا التقليد أنهم يودون لو يأمرهم بأن يطيعوه فى غسل الأيدى والرءوس .

وحصر جهده كله فى تعويدهم « إنكار الذات » وهو فضيلة الفضائل فى الأعمال العامة ، فعلمهم أن يعملوا ولا ينتظروا جزاء على عملهم ، ثم أذن لهم أن يقبلوا ضيافة البيوت التى يدخلونها لدعوة أهلها ، ولكنه قال لهم : « لا تحملوا كيسا ولا مزودا ولا أحذية ... وأى بيت دخلتموه فقولوا سلام .. وأى مدينة دخلتموها ولم يقبلوكم فاخرجوا إلى سبلها وانفضوا غبارها من أرجلكم » .

وكرر لهم الوصية بالبساطة فى العمل والكلام فأمرهم « ألا يشغلوا بالهم كيف ومتى يتكلمون لأنهم يلهمون فى تلك الساعة ما يقولون ، وليسوا هم المتكلمين بل هو روح أبيهم يتكلم فيهم » .

ولم يخف عنهم أنهم ملاقون ويلا من الناس فليكونوا حكماء كالحيات وبسطاء كالحمام . أما إذا جد الجد فلا يخافن من يهلك الجسد وليخافن من يهلك الروح .

وقد أثمرت رياضة الحب فى تدريب هذا الجند الروحانى ما لا تثمره رياضة القسوة والصرامة فى تدريب جنود القتال فخرجوا يعملون وهم يعلمون أن الوفاء فى أداء الأمانة يصغرهم أمام أنفسهم ، ويصغرهم أمام الله ، وليس أقسى على النفوس من الشعور بهذا الصغار .

وما هو إلا أن حان موعدهم ليعملوا وينتشروا فى الأرض حتى خرجوا إلى كل وجهة وأبعدوا الرحلة فى كل مكان معمور ، فمنهم من وصل إلى جزر الهند الشرقية كالرسول توما ، ومنهم من وصل إلى سكيثية وآسيا الصغرى كالرسول اندراوس ومنهم من شغل بنفسه فى البلاد الأوربية فأرسل صحابته إلى أفريقية الشمالية ، وعمت الدعوة مصر وبلاد العرب والعراق ، فضلا عن الدعوة فى فلسطين .

ولكنهم لم يحفلوا بخطاب أبناء اليهودية كما حفلوا بخطاب « الأمم » فى الجليل وآسيا الصغرى والاسكندرية ، وأفادهم التمهيد الذى سبقهم به طوائف اليهود وأصحاب النحل السرية فى تنظيم الدعوة ، فعملوا كما كان يعمل الآسون والغلاة الغيورون ، يخرجون اثنين اثنين وينشرون الخلايا فى كل بقعة ، ويحفظون الصلة بين تلك الخلايا بالمراسلة والزيارة ، وهنا يصح أن يقال أن الدعوة الجديدة استفادت من الدعوات التى سبقتها فى العصر السابق لعصر الميلاد ولا جرم يكون أكبر النجاح الذى أصابوه ملحوظا فى آسيا الصغرى والاسكندرية حيث عرف من قبل نظام الخلايا والسياح المتنقلين من الوعاظ .

كذلك يبدو أثر « الحالة العالمية » فى انتشار الدعوة الجديدة من ظاهرة رائعة تكررت فى كل أمة . فقد كان المدعوون إلى الدين الجديد من جماهير الناس سراعا إلى القبول ، حراصا على المعاونة والتأييد ، ولم يصب الرسل خطر إلا من قبل « السلطة » الغالبة ، حيث تصطدم عبادة القياصرة بعبادة الله .

وكان أشدهم حماسة لدينه يلجأ إلى المجاملة رجاء أن تكسبه هذه المجاملة بعض المؤمنين الذين يعرضون عن الدعوة إذا واجهتهم الصراحة بغير تقية ، فكان بطرس فى انطاكية يجامل المحافظين ولا يعاشر أبناء الأمم كلما أحس حوله بقوم من « آل يعقوب » فوبخه الرسول بولس علانية وحذره من مخالفة الدعوة فى سبيل مرضاة الناس .

على أن بولس نفسه كان يتألف القلوب ببعض المجاملة ، وكان كما قال فى سفر كورنثوس الأول « ... استبعدت نفسى للجميع لكى أربح الأكثرين وصرت لليهودى كيهودى لأربح اليهود وللناموسيين كالناموسيين ولغيرهم كأننى بغير ناموس ... صرت لكل كل شيء لعلى استخلص من كل حال قوما ... » .

ومن ثم ولا شك خالط المسيحيين الأول أناس ممن تحولوا إلى المسيحية من الوثنية ، ونقلوا معهم بعض عاداتها وشعائرها ، وشملهم الاغضاء حينا لعلهم بعد هجر الوثنية يستقيمون على منهاج الدين الجديد .

ومن بدع القرن العشرين سهولة الاتهام كلما نظروا فى تواريخ الأقدمين. فوجدوا فى كلامهم أنباء لا يسيغونها وصفات لا يشاهدونها ولا يعقلونها ، ومن ذلك اتهامهم الرسل بالكذب فيما كانوا يثبتونه من أعاجيب العيان ، أو أعاجيب النقل والرواية ، ولكننا نعتقد أن التاريخ الصحيح يأبى هذا الاتهام لأنه أصعب تصديقا من القول بأن أولئك الدعاة أبرياء من تعمد الكذب والاختلاق ، فشتان عمل المؤمن الذى لا يبالى الموت تصديقا لعقيدته ، وعمل المحتال الذى يكذب ويعلم أنه يكذب وأنه يدعو الناس إلى الأكاذيب ، مثل هذا لا يقدم على الموت فى سبيل عقيدة مدخولة وهو أول من يعلم زيفها وخداعها ، وهيهات أن يوجد بين الكذبة العامدين من يستبسل فى نشر دينه كما استبسل الرسل المسيحيون . فاذا كان المؤرخ الصادق من يأخذ بأقرب القولين إلى التصديق أن الرسل لم يكذبوا فيما رووه وفيما قالوا أنهم رأوه أو سمعوا ممن رآه ، وليس بالمخالف للمعهود فى كل زمن أن يصدق الإنسان عيانا ما يصدقه فى قرارة نفسه ، وبخاصة حين يجمع الألوف على تصديقه ولا يوجد بين قائليه وسامعيه من يحسبه من المستحيل .

وليذكر أدعياء التمحيص فى عصرنا هذا أننا نطلب من الرجل فى القرن الأول للميلاد أن يكذب إنسانا لغير سبب وهو يطمئن إليه ولا يتهمه بالتلفيق والاختلاق . ومن التكذيب لغير سبب فى ذلك العصر أن يبادر السامعون إلى تكذيب الرواة كلما تحدثوا عن المعجزات ، فذلك شبيه فى عصرنا هذا بمن يكذب إنسانا لأنه سمعه يتحدث عن ظاهرة فلكية وصناعية لا غرابة فيها ولا سيما إذا كان المتكلم غير معهود فيه أن يتعمد الكذب والاختلاق .

إن أسخف السخف أن يقال إن دينا من الأديان قام على الأعاجيب والخوارق . ان تصديق الخوارق والأعاجيب هو نفسه إيمان كأقوى الإيمان وما خلت دعوة دينية قط من أحاديث هذه الخوارق والأعاجيب ما يعقل منها وما لا يعقل ، ولكن لم يحدث قط إقبال كذلك الإقبال الجارف الذى

تلقى به الناس رسل المسيحية ، لأنهم تلقوهم بنفوس مقفرة متعطشة ونظروا أمامهم فرأوا قوما مثلهم يؤمنون غير مكترثين لما يصيبهم وغير متهمين فى مقاصدهم ، فأصغوا إليهم وآمنوا كايمانهم ، ولولا ثقة المسيح عليه السلام بهذا الإقبال لما أوصى تلاميذه أن يذهبوا حيث يستمع لهم وينفضوا عن أقدامهم غبار كل بلد يتلقاها بالصدود والنفور .

الأناجيل

الإنجيل كلمة يونانية بمعنى الخبر السعيد أو البشارة ، وقد تداول المسيحيون فى القرن الأول عشرات النسخ من الأناجيل ثم اعتمد آباء الكنيسة أربع نسخ منها بالاقتراع — أى بكثرة الأصوات — وهى إنجيل مرقس وإنجيل متى وإنجيل لوقا وإنجيل يوحنا ، مع طائفة من أقوال الرسل المدونة فى العهد الجديد .

ويرجح المؤرخون المختصون بهذه المباحث أن الأناجيل جميعا تعتمد على نسخة آرامية مفقودة يشيرون إليها بحرف « ك » مختزلة من كلمة كويل Quelle بمعنى الأصل ، ومنهم من يسمى هذه النسخة « لوجيا » Logia بمعنى الأقوال ، ويردون بها الأقوال الشفوية التى سمعت ثم كتبت على القول الراجح عندهم باللغة الآرامية ، ويعللون اتفاق متى ولوقا فى بعض النصوص باعتمادهما معا على تلك النسخة المفقودة .

أما الأناجيل الموجودة الآن فقد كتبت جميعا باليونانية العامة Koine ولوحظ فى ترجمتها أنها تعتمد على نصوص آرامية وتحافظ على ما فيها من الجناس وترادف المعانى والمفردات ، وتتفق الآراء على أن هذه الأناجيل لا تحتوى كل ما فاه به السيد المسيح ، إذ جاءت فى أعمال الرسل التى تضمنها العهد الجديد كلمة منسوبة إلى السيد المسيح لم ترد فى الأناجيل وهى « تذكروا كلمات المسيح : إن العطاء مغبوط أكثر من الأخذ » .. وجاءت فى الأناجيل الأخرى التى لم تعتمد كلمات من هذا القبيل ، وكشفت أوراق بردية فى مصر ترجع إلى منتصف القرن الثانى لا تشبه الأناجيل المعتمدة فى نصوصها .

وتتفق الآراء أيضا على أن نسختين من الأناجيل كتبهما مسيحيان لم يجتمعا بالسيد المسيح ولم يسمعا منه ، وهما نسخة مرقس التى دون فيها ما سمعه من بطرس الرسول بغير ترتيب وعلى غير قصد منه أن تجمع فى

كتاب . وقد كتبها فى رومة بعد مقتل الرسول وليس معه أحد من التلاميذ ، ويتراوح تاريخ كتابتها بين سنتى سبع وستين وسبعين .

والنسخة الأخرى هى نسخة لوقا صاحب بولس الرسول ، دون ما فيها ما سمعه منه ، ولعله أضاف إليها جزءا من النسخة المفقودة ثم جزءا من إنجيل مرقس بعد اطلاعه عليه ، وكانت كتابتها على الأرجح سنة ثمانين .

أما إنجيل يوحنا فهو آخر الأناجيل كتابة ومراجعة ، وأكثر النقاد على أنه مكتوب بقلم يوحنا تلميذ السيد المسيح ، وآخرون يعتقدون أنها بقلم يوحنا آخر كان فى أفسس ولم ير السيد المسيح .. لأن يوحنا تلميذ المسيح هو صاحب سفر الرؤيا المؤلف على أصح الأقوال فى سنة ست وتسعين ، ولا يظن أن مؤلفا واحدا يكتب فى وقت واحد كتابين بينهما مثل ذلك التباين فى المنهج والفحوى .

على أن الأب فرار فنتون مترجم الإنجيل « طبعة اكسفورد » يعن له أن إنجيل يوحنا هو أقدم الأناجيل ، وأنه كتبه أولا بالعبرية بين سنة ثلاثين وسنة أربعين ثم نقله إلى اليونانية ، ولكن تأخر الزمن الذى كتب فيه هذا الإنجيل ثابت من تفصيله بعض ما اجملته الأناجيل ، وزيادته فى التعبيرات الفلسفية ، وتوسعه فى شرح العقائد التى أثرت عن بولس الرسول ، ولا يظن أنه كتب قبل سنة ست وتسعين .

والترتيب المفضل عند المؤرخين أن إنجيل مرقس هو أقدم الأناجيل ، ثم يليه إنجيل متى فإنجيل لوقا ، وهى الأناجيل الثلاثة التى اشتهرت باسم أناجيل المقابلة ، لامكان المقابلة بين ما فيها من الأخبار والوصايا على اختلاف الترتيب ، مع العلم بأنها كتبت فى الأصل مرسلة بغير أقسام وبغير مواضع للوقت والإلحاق ، ولم تقسم إلى اصحاحات قبل القرن الثالث عشر للميلاد

وليس من الصواب أن يقال أن الأناجيل جميعا عمدة لا يعول عليها فى تاريخ السيد المسيح لأنها كتبت عن سماع بعيد ولم تكتب من سماع قريب فى الزمن والمكان ، ولأنها فى أصلها مرجع واحد متعدد النقلة والنساخ ،

ولأنها روت من أخبار الحوادث ما لم يذكره أحد من المؤرخين : كانشقاق القبور وبعث موتاهم وطوافهم بين الناس وما شابه ذلك من الخوارق والأهوال .

وإنما الصواب أنها العمدة الوحيدة فى كتابة ذلك التاريخ ، ومواطن الاختلاف بينها معقولة مع استقصاء أسبابها والمقارنة بينها وبين مثاراتها ، ورفضها على الجملة أصعب من قبولها عند الرجوع إلى أسباب هذا وأسباب ذاك .

فإنجيل متى مثلا ملحوظ فيه أنه يخاطب اليهود ويحاول أن يزيل نفرتهم من الدعوة الجديدة ، ويؤدى عباراته أداء يلائم كنيسة بيت المقدس فى منتصف القرن الأول للميلاد .

وإنجيـــل مرقس على خلاف ذلك ملحوظ فيه أنه يخاطب « الأمم » ولا يتحفظ فى سرد الأخبار الإلهية التى كانت تحول بين بنى إسرائيل « المحافظين » والإيمان بالإلهية المسيح .

وإنجيل لوقا يكتبه طبيب ويقدمه إلى سر كبير ، فيورد فيه الأخبار والوصايا من الوجهة الإنسانية ، ويحضر فى ذهنه ثقافة السرى الذى أهدى إليه نسخته وثقافة أمثاله من العلية .

وإنجيل يوحنا غلبت عليه فكرة الفلسفة وبدأه بالكلام عن « الكلمة » Logos ووصف فيه التجسد الإلهى على النحو الذى يألفه اليونان ومن حضروا محافلهم ودرجوا معهم على عادات واحدة .

وسواء رجعت هذه الأناجيل إلى مصدر واحد أو أكثر من مصدر ، فمن الواجب أن يدخل فى الحسبان أنها هى العمدة التى اعتمد عليها قوم هم أقرب الناس إلى عصر المسيح ، وليس لدينا نحن بعد قرابة ألفى سنة عمدة أحق منها بالاعتماد .

ونحن قد عولنا على الأناجيل ولم نجد بين أيدينا مرجعا أوفى منها للدرس

حياة الرسول والإحاطة بأطوار الرسالة وملابساتها ، ولكننا نتبع فى مراجعتها طريقة غير التى درج عليها مؤرخو الوقائع والأخبار ، فلا نراجعها من حيث هى وقائع تاريخية ولا من حيث الأخبار ونسأل عما وراءها من الإبانة عن شخصية الرسول . وفى هذه المراجعة تنفعنا الوقائع المستغربة كما تنفعنا الوقائع المألوفة وتهمنا الأغراض المقصودة وغير المقصودة ... فهل وراء هذه الأخبار « شخصية متناسقة » مفهومة ؟ إن كانت هناك علامات على تلك الشخصية المتناسقة فحسبنا ذلك من جميع الوقائع والأخبار . وعلينا أن نفهم هنا أن النقائض فى هذه المراجعة قد تكون من أسباب التصديق ، ولا تكون من أسباب الشك والإنكار ، ثم يتأتى لنا أن نجعل هذه الشخصية نفسها محكا لكل واقعة ولكل خبر ولكل كلمة مروية : فما خرج من السواء فهو فضول .

ومن الأمثلة على الاختلاف بين هذه الطريقة وبين طريقة المؤرخين الذين يطلبون الوقائع لذاتها إلى الغرائب هنا شيء يجب أن نبحث عنه إن لم نجده ماثلا بين أيدينا ، فان خلو هذا التاريخ من الغرائب هو الذى يستغرب وليس هو المألوف الذى يدعو إلى الترجيح أو اليقين . وهل يخلو من الغرائب سجل قوم يؤمنون بها ولا يشكون فى وجودها ؟

ونحب هنا أن نبين موقفنا من الخوارق والمعجزات حيث وجدت فى تواريخ الأديان ، فنحن نسأل هل هذه المعجزة لازمة فى تفسير مسألة من المسائل ؟ فان كان تفسير المسالة ميسورا بغيرها فلا حاجة بنا إلى الجدل فى إمكانها أو استحالتها ، لأن التفسير الذى يقبله كل إنسان يغنى عن التفسير الذى يضطرنا إلى امتحان الممكنات وامتحان الرواة .

أما رأينا نحن فى إمكان المعجزات فهو رأينا فى إمكان جميع الأسباب فان العقل قاصر عن تعليل الحوادث بأسبابها ، وليس من العقل أن يقال أن هذه الأسباب المسماة بالطبيعة هى العوامل الفعالة فى إيجاد الأشياء ، وأصح ما يقال فيها قول الغزالى رحمه الله أن الأسباب والمسببات تحدث معا ،

ولا تزيد علاقتها بعضها ببعض على علاقة المصاحبة والتوافق فى الأوقات ، وإلا لزم أن تكون المادة ألوفا من المادات ، كل منها مستقل بخصائصه ومؤثراته وعلاقته بالمواد الأخرى ولا يقول بذلك عقل سليم . فاذا كان العقل لا يعلل الأسباب الطبيعية فمن الشطط أن يتعجل بانكار المعجزات والجزم باستحالتها .

ومتى ناقشناها فلتكن مناقشتنا لها كمناقشة الأسباب : هل هى لازمة لتفسير هذه المسألة ؟ وكما نقول هل هذا السبب لازم نقول أيضا : هل هذه المعجزة لازمة للفهم والتفسير ؟ وبهذا القسطاس يجب أن توزن الحوادث ويدرس تاريخ الأديان وغير الأديان .

ونحن لم نتعرض للمعجزات التى وردت فى الأناجيل لأن تفسير الحوادث متساق لنا بغيرها ، فليس فى الأناجيل أن معجزات الميلاد حملت أحدا على الإيمان بالرسالة المسيحية بعد قيام السيد المسيح بالدعوة ، وكثيرا ما نقرأ فيها أن المعجزة لا تقنع المكابر ، وأن الجيل الشرير يطلب الآية ولا يعطاها ، وأن المنكرين كانوا يعجبون لما يرونه أحيانا ولكنهم كانوا يزعمون أنه من فعل الشيطان ، بل كان من أسباب التعجيل بمصادرة المسيح أنه كما قال الكهنة يصنع كثيرا من المعجزات .

وبعد فمن الحق أن نقول إن معجزة المسيح الكبرى هى هذه المعجزة التاريخية التى بقيت على الزمن ولم تنقض بانقضاء أيامها فى عصر الميلاد : رجل ينشأ فى بيت نجار فى قرية خاملة بين شعب مقهور ، يفتح بالكلمة دولا تضيع فى أطوائها دولة الرومان ولا ينقضى عليه من الزمن فى إنجاز هذه الفتوح ما قضاه الجبابرة فى ضم إقليم واحد ، قد يخضع إلى حين ثم يتمرد ويخلع النير ، ولا يخضع كما خضع الناس للكلمة بالقلوب والإحساس .

الباب الرابع

الختام

عنى الشراح الإنجيليون عناية دقيقة مضنية بترتيب الحوادث فى سيرة السيد المسيح عليه السلام كما تستمد من روايات الأناجيل ، ولكنهم لم يصلوا إلى ترتيب متفق عليه ، لأن سياق الحوادث مختلف فى الأناجيل الأربعة ، وبعض الأناجيل قد سجلت ما سمعه كتابها فى أوقات متفرقة حسبما عرض لهم من مناسبات الرواية لا حسب تسلسل الأزمنة التى وقعت فيها الحوادث ، فلم يتفق ترتيب الكتابة وترتيب الحدوث .

على أن حوادث السيرة فيها ما يظهر منه أنه مقدمات وما يظهر منه أنه نتائج لاحقة لتلك المقدمات ، فاذا حسبنا بعضها نتيجة لبعض على حسب المعقول من آثار الحوادث ، أمكن على الترجيح متابعة السيرة المسيحية فى خطوطها الكبرى ، ولا يضيرنا بعد استقامة هذه الخطوط أن تختلف أوضاع الحوادث التى يمكن أن تضاف إلى كل فترة دون أن يتغير سياق السيرة كله أو يتغير جوهر الموضوع الذى تدور الحوادث عليه .

كان لقاء المسيح ليوحنا المعمدان مفرق الطريق فى السيرة المسيحية .

ولم تذكر لنا الأناجيل من أخبار نشأة المسيح عليه السلام قبل ذلك اللقاء غير حادثتين اثنتين ، إحداهما حادثة السفر إلى مصر وهو رضيع ، والأخرى حادثة السفر إلى بيت المقدس وهو فى الثانية عشرة من عمره .

روى الحادثة الأولى إنجيل متى فقال إن « ملاك الرب ظهر ليوسف فى حلم قائلا : قم وخذ الصبى وأمه واهرب إلى مصر .. لأن هيرود مزمع أن يطلب الصبى ليهلكه ، فقام وأخذ الصبى وأمه ليلا وانصرف إلى مصر ، وبقى فيها إلى وفاة هيرود » ثم قال : « وقتل هيرودس جميع الصبيان الذين فى بيت لحم وتخومها من ابن سنتين فما دونهما » .

ولم يذكر خبر هذه المذبحة فى غير إنجيل متى ، ولا يعرف الآن سبب وجود الأسرة فى بيت لحم — وهى من الناصرة — لأن الإحصاء الذى أشار إليه إنجيل لوقا وقال إنه سبب انتقال كل أسرة إلى منبتها قد تقرر فى السنة

السادسة للميلاد وحدثت من جرائه ثورة عنيفة على عهد والى سورية كرينيوس .

أما الإنجيل الذى توسع فى وصف طفولة السيد المسيح فهو إنجيل لوقا الذى روى أخبار ختانه وتسميته والسفر به إلى بيت المقدس : « فلما تمت ثمانية أيام ليختنوا الصبى سمى يسوع .. » وتمت أيام التطهير حسب الشريعة الموسوية « فصعدوا به إلى أورشليم ليقدموه للعرب .. ويقدموا ذبيحة زوج يمام أو فرخى حمام » وهى القربان المقبول من الفقراء .

قال إنجيل لوقا : « وكان أبواه يذهبان كل سنة إلى أورشليم فى عيد الفصح ، فلما كانت له اثنتا عشرة سنة صعدوا إلى أورشليم كعادة العيد ، وبقى الصبى عند رجوعهما فى أورشليم ويوسف وأمه لا يعلمان . وإذ ظناه بين الرفقة ذهبا مسيرة يوم وكانا يطلبانه بين الأقرباء والمعارف ، ولما لم يجداه رجعا إلى أورشليم يطلبانه ، فوجداه بعد ثلاثة أيام فى الهيكل جالسا فى وسط المعلمين يسمعهم ويسألهم ، وكل الذين سمعوه بهتوا من فهمه وأجوبته ، فلما أبصراه دهشا وقالت له أمه : يا بنى . لماذا فعلت بنا هكذا .. فقال لها : « لماذا كنتما تطلبانني ؟ ألم تعلما حيث ينبغى أن أكون فيما لأبى » . فلما يفهما الكلام الذى قاله لهما ، ثم نزل معهما وجاء إلى الناصرة وكان خاضعا لهما ... وكان يتقدم فى الحكمة والقامة والنعمة عند الله والناس » .

ولا يذكر الإنجيل شيئا عن نشأة الصبى بعد ذلك إلى أن بلغ الثلاثين وظهر يوحنا « بعمودية التوبة لمغفرة الخطايا » وحينئذ جاء يسوع من الجليل إلى الأردن ليعتمد منه — كما ورد فى إنجيل متى — فمنعه يوحنا قائلا : أنا محتاج أن أعتمد منك وأنت تأتى إلى ؟ فأجابه يسوع تسمح الآن ، لأنه هكذا يحمل بنا أن تستوفى كل بر . فسمح له ، فلما اعتمد يسوع صعد للوقت من الماء ، وإذا السماوات قد انفتحت له فرأى روح الله نازلا مثل حمامة وآتيا عليه ، وصوت من السماوات يقول : هذا هو ابنى الحبيب » .

وفى إنجيل غير الأناجيل الأربعة المعتمدة — وهو إنجيل العبريين — رواية

عن هذه الفترة من سيرته عليه السلام جاء فيها أن أمه وإخوته قالوا له إن يوحنا المعمدان يوالى التعميد لغفران الخطايا فهلم بنا إليه ليعمدنا . فقال لهم : « أى خطيئة جنيت حتى أذهب إليه لتعميدى ! اللهم إلا أن يكون هذا القول الذى قلت » .

وليس فى الأناجيل ولا فى غيرها خبر عن تعليم السيد المسيح فى طفولته قبل الثانية عشرة وبعدها . ولكنه بالقياس إلى نظام التربية فى ذلك العصر يبدأ فى مكتب ملحق بالبيعة فى كل قرية كبيرة يشرف على بيعتها « حزان » أو « خزان » بمعنى الخازن والحارس ، ويندر فى المكتب حصول التلميذ على النسخ المخطوطة من الكتب الدينية غير نسخة البيعة المعدة للتلاوة منها فى الصلوات وللاستعانة بها على تعليم التلاميذ الصغار ، ومعولهم جميعا على الحفظ والاستظهار .

لقد كانت كل أسرة يهودية تتمنى فى ذلك العصر أن يخرج منها المسيح المنتظر ، وقد سمى الطفل يسوع أو « يهوشع » على هذا الأمل ، لأن الاسم مركب من كلمتين تفيدان معنى سعى « يهوا » أو نجدة « يهوا » أو خلاص « يهوا » فتربى الطفل تربية دينية خالصة ، ولا يصعب علينا تعليل سفر الأسرة إلى بيت لحم عند مولده ، لأنها تنتظر المعجزة هناك ، حيث ورد فى أسفار من النبوءات أن بيت لحم هى مولد المسيح الموعود ، لأنها موطن داود .

ولا يبعد أن الصبى المبارك ، وكان فى الثانية عشرة من عمره ، قد وعى جميع الدروس التى يتعلمها الصغار فى مدارس القرى واستمع إلى شىء جديد من فقهاء الهيكل وأحباره ، فتاقت نفسه إلى استيعابه ونسى أهله وموعد عودتهم إلى قريتهم وهو يتنقل بين دروس الفقهاء والأخبار .

ويغلب على الظن أنه كان على صلة وثيقة بيوحنا المعمدان وأن يوحنا قد رآه وعرفه وعرف فضله وطهارة سيرته قبل أن يلقاه فى الأردن عندما تصدى لرسالة التعميد ، وهى بطبيعتها رسالة إعداد وتمهيد .

ومن البديهى أن كلمات يوحنا الفتى ابن الثلاثين فى ساعة التعميد لم

تذهب بغير صداها فى نفسه الواعية ، فمن أيسر آثارها فى مثل تلك النفس أن تعزز فيها الأمل وتدعم فيها اليقين تبعثها على التأمل فيما خلقت له وفيما ترجوه ويرجى منها بين البشائر والنذر التى ترددت يومئذ فى كل مكان ، وعلى كل لسان .

وخلوة البرية هى إحدى نتائج تلك التحية النبوية ، وهى خلوة التجربة والامتحان والتساؤل والاستيثاق التى عالجها كل نبى قبل أن يصدع بما أمر به ، وقبل أن يستيقن أن ما أمر به من عند الله .

ونعتمد فى وصف هذه التجربة على رواية إنجيل متى حيث يقول : « إنه عليه السلام بعد أن صام فى البرية أربعين نهارا وأربعين ليلة جاع أخيرا فتقدم به المجرب وقال له : إن كنت ابن الله فقل لهذه الحجارة تصير خبزا . فأجابه : مكتوب أنه ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان ، بل بكلمة تخرج من فم الله . ثم أخذه إبليس إلى المدينة المقدسة وأوقفه على جناح الهيكل وقال له : إن كنت ابن الله فاطرح نفسك من عل ، لأنك موعود أن يوصى ملائكته بك ليحملوك على أيديهم فلا تصطدم رجلك بحجر . قال يسوع ومكتوب أيضا ألا تجرب الرب إلهك . ثم أخذه إبليس إلى جبل عال وقال له أعطيك هذه جميعها إن سجدت لى .. قال يسوع : أغرب عنى أيها الشيطان ، فانه مكتوب للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد .. » .

قال إنجيل متى بعد ذلك : ولما سمع يسوع أن يوحنا أسلم لهيرود انصرف إلى الجليل وترك الناصرة وسكن فى كفر ناحوم ، وابتدأ رسالته داعيا إلى التوبة ، لأنه قد اقترب ملكوت السماوات .

كان لقاء يوحنا المعمدان مفرق الطريق فى السيرة المسيحية كما أسلفنا ، فكانت سيرة الفتى المؤمن قبل ذلك اللقاء تأهبا واستعدادا وأملا ، وكانت سيرته بعد اللقاء رياضة وامتحانا وعزيمة ، وردته كلمات النبى النذير إلى طويته يسبر أغوارها ويمتحن صبرها ويسائلها ويسائل الغيب ليهديه إلى كنه رسالته ومصدر بعثته ، وتوسوس له التجربة أن يطلب الآية ويلمس الدليل .

وكل تجربة من هذه التجارب التى مثلتها بساطة الرواية الإنجيلية تدور على سر الرسالة المسيحية وما أحاط بها فى كتب القدامى من البشائر والمواعيد : ألم يكن رجاء الناس من المسيح الذى ينظرونه أن يعم الخير ويبطل العناء فى طلب الأرزاق ويصبح الخبز لقى لمن يطلبه كحجارة الطريق ؟ ألم يكن من مواعيد المسيح أن يقبل على السحاب محمولا على أجنحة الملائكة ؟ ألم يكن من مواعيده ملك العالم بالتاج والصولجان ؟ ... كل تجربة من هذه التجارب كانت هى التجربة التى تساور ضميرا مشغولا بالرسالات المسيحية ، واقفا على قمة الإيمان وشفا الهاوية فى لحظة واحدة ، تغريه من هنا رسالة جسد وسلطان ومساومة على البراهين والآيات ، وتعصمه من هنا رسالة روح وقداسة ويقين لا يساوم على البرهان .

أتكون كلمات يوحنا للمسيح أول وحى نبوى بالرسالة المسيحية ؟ .

واضح غاية الوضوح أن هذه الكلمات الحية لم تطرق مسامعه إلا وقد فتحت فى نفسه الصافية بابا للتأمل والتساؤل ، وأن فترة الخلوة فى البرية على أثر ذلك كانت فترة اعتكاف لاستخلاص الحقيقة من أعماق الضمير والاستعانة بالصيام والتهجد على مناجاة الغيب والاستقرار على عزيمة خالصة للإقدام على خطوة حاسمة يريدها الله ويبطل فيها الإبهام والإحجام .

وعندنا أن أنفس خبر يعين على التعريف بمنهاج الإيمان فى نفس الرسول العظيم هو هذا الخبر عن تجربة الوحدة فى البرية ، فهو يفسر لنا مواقف السيد المسيح جميعا قبل الإقدام على خطواته الحاسمة ، أو يفسر لنا منهاج الإيمان بدواعى العمل فى ضميره السليم .

انه إذا أقدم على أمر من الأمور الحاسمة أطال التفكير فيه ، ولم يزل يطيل التفكير فيه ويقلب وجوه الروية والمراجعة حتى يخطر له أن العمل مرهون بانتظار آية يستوثق بها من إرادة الله ، وعندئذ يبادر إلى نبذ هذا الخاطر بغير هوادة ، لأن العامل الذى يتوقف عمله على انتظار آية ضعيف

الإيمان ، ومن كان قوام نفسه أن مثقال حبة خردل من الإيمان ينقل الجبل من مكانه ويخلع الشجر من منبته فلن يكون إيمانه معتمدا على آية يراها قبل أن يعمل عمله ويتجرد لمقصده ، وبخاصة حين يبدو للنفس أن الآية منتظرة لاتقاء الخطر وضمان الأمان . فالخطر إذن أحب من الشك ، وكل شيء إذن أسلم من الأمان الذى لا يأتى إلا بضمان من البرهان .

وكلما بلغ السيد المسيح من تفكيره ورويته هذا الحد الفاصل فمنهاجه الجدير به هو استخارة الحوادث واستلهام الغيب من هذا الطريق ... ليفعل ما يتوقاه ولا يشترط شرطا للوقاية ، وليفعل الله ما يشاء ، فما يجرى بعد ذلك كله هو إرادة الله .

خرج السيد المسيح من العزلة إلى الرسالة ، ولم يقل لأحد أنها رسالة مسيح ، بل سكت عن ذلك حتى تسامع الناس بدعوته وأصبح له أكثر من ثمانين تلميذا يبشرون برسالته ويستمدون الهداية من وحيه .

واصطبغت رسالته الأولى فى الجليل بصبغة مميزة وهى صبغة الرسالة القومية إلى إسرائيل ، وحرص عليه السلام أشد الحرص ألا يثير الناس على السلطان الحاكم ولا يثير السلطان الحاكم عليه ، فكان يؤثر المباعدة والتقية ما استطاع ، حتى بلغ الكتاب أجله وآن أن يمضى فى خطوة أخرى بعد الخطوة الأولى التى انتقل بها من العزلة إلى الدعوة بين بنى إسرائيل ، فهذه الخطوة التالية هى الدعوة الإنسانية العامة وهى استخارة للحوادث واستلهام للغيب فى ميدان أوسع وأبقى ، وعلى الصفة التى ثبتت له فى طوية ضميره وهداه إليها وحى الله ، ولم يبق إلا أن تؤيدها حوادث القدر كيف شاء .

أما الصفة التى ثبتت له عليه السلام فى طوية ضميره فقد تكررت فى كلامه عن نفسه على صور شتى ، فهو نور العالم وخبز الحياة ، والكرامة الحقيقية ، وهو ابن الله وابن الإنسان .

والأبوة الإلهية قد وردت فى مواضع متعددة من كتب الأنبياء فجاء

فى سفر التكوين أن الملائكة أبناء الله « وأن أبناء الله رأوا بنات الناس حسنات فاتخذوا منهن زوجات » (٦ تكوين) .

وورد فى كلام موسى عليه السلام أن بنى إسرائيل جميعا أبناء الله حين قال لفرعون « دع ابنى يخرج » ووردت بهذا المعنى فى كتب أخرى كسفر التثنية حيث جاء فيه « أنتم أبناء الله » (تثنية ١٤) وأشير إلى الشعب كله بأنهم أبناؤه وبناته (٣٢ تثنية) .. ووردت كذلك غير مرة فى المزامير حيث قيل « قدموا للرب يا أبناء الله » (٢٩) و « من يشبه الرب بين أبناء الله » (٨٩) .

وكذلك وردت فى هوشع وجاء فيه من خطاب الشعب « أنتم أبناء الله الحى » .

أما فى العهد الجديد فمخاطبة الله باسم الأب وردت فى الصلاة التى تبتدىء بدعاء الله « أبانا الذى فى السماوات » وحيث قال السيد المسيح للتلاميذ أن « أباكم واحد هو الذى فى السماوات » وحيث تكلم عن ولادة الروح وولادة الجسد ، وكل ولادة للروح فهى بنوة لله .

أما ابن الإنسان فقد وردت فى كتب العهد القديم باللغة الآرامية وباللغة العبرية ، وهى بالآرامية « بارناشا » من بار بمعنى ابن وناش بمعنى إنسان ، وهى بالعبرية « ابن آدم » وتطلق فى كلتا اللغتين على الإنسان الخالص أو على الإنسان من حيث هو نوع يقابل أنواع الأحياء .

وقد وردت تسعين مرة فى سفر حزقيال حيث يخاطب « يهوا » ذلك الرسول فيناديه بابن الإنسان .

ووردت مرة فى سفر دنيال بلسان جبريل وهو يخاطب النبى باسم ابن الإنسان (٨) .

ووردت فى هذا السفر باللغة الآرامية حيث يتكلم عن مخلوقات بصور الحيوانات ثم ينبىء عن رسول يأتى فى صورة إنسان رآه النبى فى رؤى الليل « على سحاب كابن إنسان » جاء بسلطان لن يزول .

أما فى كتب العهد الجديد فقد وردت فى مواضع بمعنى « الإنسان » منها قول السيد المسيح فى إنجيل متى « كل خطيئة وتجديف يغفر للناس ، ومن قال كلمة على ابن الإنسان يغفر له ، وأما من قال على الروح القدس فلن يغفر له لا فى هذا العالم ولا فى العالم الآتى » (١٢) .

وقد جاءت أحيانا مرادفة لضمير المتكلم « أنا » حين يتكلم السيد المسيح عن نفسه : فجاء فى لوقا ١٢ ... « كل من اعترف بى قدام الناس يعترف به ابن الإنسان قدام ملائكة الله » وجاء فى متى ١٠ « كل من يعترف بى قدام الناس أعترف أنا أيضا به قدام أبى الذى فى السماوات » .

وورد فى متى ١٦ « إنه لما جاء يسوع إلى نواحى قيصرية فيلبس سأل تلاميذه قائلا : من يقول الناس إنى أنا ابن الإنسان ؟ » .

وورد فى مرقس ٨ « ثم خرج يسوع وتلاميذه إلى قرى قيصرية فيلبس وفى الطريق سأل تلاميذه قائلا : من يقول الناس إنى أنا ؟ » .

فهى فى بعض الأناجيل مرادفة أو بديل من ضمير المتكلم حين يتكلم السيد عن نفسه ، ولا بد أن يلاحظ هنا أن التلاميذ قد عرفوا استخدامها فى هذا السياق فلم ينادوا السيد المسيح قط باسم ابن الإنسان .

وقد وردت حينا بمعنى يشبه معناها فى نبوءة دنيال حيث قال « كما يجمع الزوان ويحرق بالنار هكذا يكون فى انقضاء العالم ، يرسل ابن الإنسان ملائكته فيجمعون من ملكوته جميع المعاثر والآثمين » (متى ١٣) .

وهى إشارة كإشارة دنيال إلى يوم الدينونة ، وصيغتها بالآرامية واحدة فى الموضعين .

هذه هى الأسماء التى تسمى بها السيد المسيح فى إبان دعوته الأولى أو عند نهايتها ، وفى أثناء هذه الدعوة كان يدعى بالمعلم الصالح أحيانا فيقول : « لماذا تدعونى صالحا ؟ ليس أحدا صالحا إلا واحد ، وهو الله » .

وعند نهايتها سأل تلاميذه عما يقوله الناس عنه ، فلما قال له بطرس إنك أنت المسيح ابن الله باركه ثم أمرهم بالكتمان .

وغني عن القول أن هذه الأسماء إنما كانت تفهم كما تعود قراء الكتب الدينية أن يفهموها في ذلك الحين ، ولم يوص السيد المسيح تلاميذه أن يفهموا منها غير ذلك حين يذكرون « ابن الله » أو « ابن الإنسان » .

* * *

لو جرت الأمور في مجراها الذي استقامت عليه الدعوة في الجليل من بعد الرسالة المسيحية لمضت هذه الرسالة في طريقها سنوات دون أن تشتبك في حرب صراح مع دولة الكهانة في بيت المقدس .

ولكن الحوادث حكمت حكمها في السنة التي تحسب الآن سنة ثلاثين للميلاد ، وحان موعد عيد الفصح وزيارة بيت المقدس كما جرت عادة الأسر اليهودية ، ومنها أسرة السيد المسيح : أمه وأخوته وذوو قرباه .

وكان عليه السلام يجاري أسرته في هذه الشعائر التي لا ضير فيها ، ولم يكن يضيق على الناس في المحافظة على المأثورات التي تعودوا أن يحتفلوا بها ويفرحوا فيها بالاجتماع وتبادل التهنئات ، وإنما كان ينكر من المأثورات ما كان فيه حجر على الضمائر أو مفاخرة بالتقوى الكاذبة والنفاق المكشوف ، وفيما عدا هذا كان يشارك أسرته في أفراحها القومية ويذهب إلى الهيكل ويأمر بشراء القربان ، بل يأمر بسداد الفرضة التي كانت تفرض على كل رأس من رؤوس بني إسرائيل .

وفي سنوات مضت زار بيت المقدس ولم يذكر قط أنه تخلف عنه في إحدى السنوات منذ بشر برسالته في الجليل ، وكان يذهب مع أصحابه القلائل ثم يعود إلى الجليل دون أن تحس زيارتهم سدنة الهيكل وذوو الشأن في العاصمة الدينية ، ودون أن يشتبك الفريقان في نضال .

لكن كيف يكون الذهاب إلى بيت المقدس في هذه السنة ؟

إنه لا يذهب إلى العاصمة هو وأصحابه كما كانوا يذهبون في السنوات الماضية .

إنهم يعدون الآن بالألوف فى أنحاء الجليل ، وإذا قدرنا أن نيفا وثمانين مسيحيا يعدون من التلاميذ فالمسيحيون الذين لا يعدون منهم قد يبلغون عشرة أضعاف هذا العدد أو يزيدون .

فكيف يذهب هؤلاء المئات مع معلمهم إلى بيت المقدس خفية يتسللون إليها ولا يعلنون ولاءهم للمعلم الذى يحج معهم إلى المدينة ؟ ولماذا هذا التسلل وهذا الاختفاء ؟

هنا موقف من المواقف التى نسميها مواقف استلهام الغيب واستخارة الحوادث .

أيذهب إلى بيت المقدس مع مئات التلاميذ والأتباع منكرا لرسالته حذرا من إعلانها مع هذا الجمع الذى لا يسهل معه التخفى والاستتار .

وماذا يقع من أثر التخفى والاستتار فى نفوس المؤمنين برسالته الروحية إن لم تقل برسالته المسيحية ؟

أيؤمن أحد منهم أن رسالة روحية أو مسيحية تعم العالم فى الخفاء ، وتستتر لسبب من الأسباب ، فضلا عن السبب الذى يسبق إلى الأذهان لأول مرحلة ، وهو الحذر والاتقاء !

وجب الذهاب إلى بيت المقدس ووجبت العلانية ولا محيد عن الواجبين ، ولتكن الآية الإلهية ما تسفر عنه الحوادث بعد حين .

وأدل شىء على أن الموقف الأخير فى الرسالة المسيحية كان على منهاج السيد المسيح فى أمثال هذه المواقف — موقف استخارة الحوادث — أنه عليه السلام سهر ليلة الوداع يصلى ويناجى ربه قائلا : « اعبر عنى هذه الكأس يا أبتاه .. كما تريد أنت لا كما أريد » .. ثم أيقظ تلاميذه النيام وقال لهم : « اسهروا وصلوا لئلا تدخلوا فى تجربة . أما الروح فنشيط وأما الجسد فضعيف » .

وقد أعد عدته لمواجهة أعدائه حيث لابد أن يواجهوه ، وأعد العدة

لاستبقاء عزيمة تلاميذه ، فطفق يهيء أذهانهم لاحتمال ما يلاقونه من بلاء ، وصرف عن أذهانهم غزوة فتح تنجلي عن غلبة عاجلة على دولة الكهانة الدنيوية . فليوطنوا أنفسهم إذن على أسوأ ما يكون ، بل لا ييأسوا إذا غلبهم الضعف فتفرقوا عنه ، ولا يخامرهم الظن أنهم إذن قد خسروا المعركة وانهزموا هزيمة الضياع . فهذا الضعف مقدور يتبعه لا محالة نصر قريب .

وتروى الأناجيل أنه عليه السلام دخل إلى بيت المقدس على ظهر اتان كما جاء فى بعض النبوءات عن مركب المسيح الموعود ، وأنهم كانوا يحملون السعف أمامه ويفرشون ثيابهم تحت أرجل مطيته ، ويهتفون بهتاف النصر الذى يحفظه اليهود منذ الطفولة ، ويتغنون به فى المواكب والمحافل لذكرى داود ، وذكرى مجده المستعاد إلى آخر الزمان .

ويفهم من وصايا السيد المسيح أنه ظل فى بيت المقدس يرعى للكهناء والفقهاء مكانتهم ولا يقلقهم على ما هم حريصون عليه من حقوقها ودعاواها ، ففى إحدى هذه الوصايا يقول مخاطبا الجموع والتلاميذ : « على كرسى موسى جلس الكتبة والفريسيون فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وافعلوه ، ولكن حسب أعمالهم لا تعملوا لأنهم يقولون ولا يفعلون » .

ولم تسمع منه فى رواية الأناجيل كلمة واحدة يغير بها ما اختطته لنفسه فى حكمته المأثورة عما لقيصر وما لله ، فكل ما سمع منه فى بيت المقدس يعيد ما أسلفه من بيان الملكوت الذى يدعو إليه ، وأنه من غير هذا العالم ، ولا شأن له بسلطان التيجان والعروش .

* * *

.. إلا أنه من اللحظة الأولى فى بيت المقدس لمس مكامن الإشراك التى ترصد له فى كل خطوة ، وعرف من الأسئلة التى كانت تنهال عليه أن القوم يأتمرون به لإهلاكه ، إذ كانت هذه الأسئلة جميعا تنزع إلى هدف واحد وهو استدراجه إلى كلمة تثبت العصيان والتمرد على الدولة أو كلمة تثبت « الكفر » وتقضى الشريعة ، وكانت أجوبته كلها على ما تعودوه فى

فى مواضع العنت والإحراج تستند إلى حجته وتستقيم مع غايته ورسالته وتخجل من يحاول إحراجه وتهتك ما يستره من حجب الرياء ، ولا يبعد أنه قد سمع من بعض رؤساء الهيكل تفصيل المؤامرة المحبوكة ، لأن أحدهم وهو — نيقوديموس — كان يزوره ليلا ، ولعله واحد من كثيرين .

ثم حدث ما لا بد أن يحدث فى عيد كذلك العيد ، بين أناس متنمرين وأناس متجردين لدعوة جديدة يتطوعون لنشرها ويتحمسون لصاحبها ، فاشتبك السيد المسيح وسماسرة الهيكل فى معركة أدبية لم تلبث أن انقلبت إلى معركة يدوية ، فقلب عليه السلام موائد الصيارفة وباعة الضحايا وصاح بهم وبسماسرة الهيكل يذكرهم أنهم فى بيت الله ، وأنهم نقلوه من معبد صلاة وطهارة إلى مغارة لصوص .

وكانت هذه هى الوقعة الفاصلة على ما يظهر ، وربما سعى إليها السيد المسيح تقريرا للموقع على وجه من الوجوه ، فامتلأت الصدور الموغرة واتخذت من درء الفتنة ذريعة إلى العمل العاجل ، وبدأ العمل على النحو الذى تفرقت فيه أقوال النقلة والرواة .

وهنا ينتهى دور التاريخ ويبدأ دور العقيدة .

فليس للتاريخ كلمة راسخة فى خبر من الأخبار التى أعقبت حادثة الهيكل وحركت كهانه للبطش والنكاية .

ففى حادثة الاعتقال لا يدرى متتبع الحوادث من اعتقله ومن دل عليه ، وهل كان معروفا من زياراته للهيكل أو كان مجهولا لا يهتدى إليه بغير دليـــل .

وفى حادثة المحاكمة يجرى الخبر على أنه حوكم بالليل وصدر الحكم فى يوم واحد ، ويجرى نظام القضاء الموسوى على تحريم المحاكمة الليلية واسقاط كل حكم يصدر فى قضايا الدم بعد جلسة واحدة فى يوم واحد ، ولا ينفذ الحكم فى هذه القضايا إلا إذا صدر بالإجماع .

وفى حادثة التنفيذ يجرى الخبر على أنه قد تم على الرغم من إعلان الحاكم الرومانى براءة المحكوم عليه ، ويقول إنجيل يوحنا إن تسليمه للتنفيذ كان فى نحو الساعة السادسة ، ويقول إنجيل مرقس أنها كانت الساعة الثالثة فصلبوه »

وقد بحث الأستـــاذ ريشارد هزباند Husband فى كتابه « محاكمة المسيح » تواريخ عيد الفصح فى خمس سنوات من سنة سبع وعشرين إلى سنة ثلاث وثلاثين ، فتبين أنه كان يوم خميس سنة ثلاثين وكان يوم جمعة سنة ثلاث وثلاثين ،والأخبار تجرى على أن المحاكمة والصلب حدثا يوم جمعة وأن تناول عشاء الفصح كان مساء خميس ويوافق السادس من شهر أبريل . أما السنوات الأخرى غير سنتى ثلاثين وثلاث وثلاثين فقد جاء العيد فيها يوم الأربعاء سنة سبع وعشرين ويوم الاثنين سنة ثمان وعشرين ويوم الأحد سنة تسع وعشرين ويوم الثلاثاء سنة احدى وثلاثين ويوم الاثنين سنة اثنتين وثلاثين .

ومن الأخبار عن يوم التنفيذ أن الأرض زلزلت وأن القبور تفتحت وخرج منها القديسون فتح فى اليوم التالى فلم توجد .

وروى نقلة الأخبار أن القبر يمشون بين الناس فيه جثة ، وأن السيد المسيح ظهر للتلاميذ مرات وقال لهم لما توهموا أنه طيف « جسونى وانظروا فإن الروح ليس له لحم وعظام » ... « وسألهم أعندكم هنا طعام ؟ فناولوه جزءا من سمك مشوى وشيئا من شهد عسل فأخذ وأكل » ٢٤ لوقا .

وقد تناول هذا الموضوع طائفة من أقطاب العلم واللاهوت كالقس شاين الإنجيلى Cheyne والأستاذ هنريك بوليس Poulus أستاذ اللغات الشرقية بجامعة جينا والدكتور ويجال المختص بالدراسات الأثرية فى مصر والشرق الأدنى والدكتور هوجو تول Toll السويدى وغيرهم من علماء الدين والدراسات التاريخية فانتهوا إلى التفرقة فى أخبار هذه الفترة بين وجهة التاريخ ووجهة الاعتقاد .

ومن الأخبار التاريخية خبر لا يصح إغفاله فى هذا الصدد ، لأنه محل نظر كبير . وهو خبر الضريح الذى يوجد فى طريق « خان يار » بعاصمة كشمير ويسمونه هناك ضريح النبي أو ضريح عيسى ، وروى تاريخ الأعظمى الذى دون قبل مائتى سنة أن الضريح لنبى « اسمه عوس آصاف » ويتناقل أهل كشمير عن آبائهم أنه قدم إلى هذه البلاد قبل ألفى سنة ، وينقل المولوى محمد على فى ترجمته للقرآن الكريم عن كتاب عربى يسمى « اكمال الدين » محفوظ من ألف سنة عن اسم « عوس آصاف » مذكور فيه وأنه قال عنه أنه رحالة ساح فى بلاد كثيرة ، وأن كتاب « برلام ديو شافاط » فى صفحة (١١١) يذكر عن عوس آصاف أنه صاحب « بشرى » وأنهم يحفظون مثلا من أمثاله فى تعليمه يشبه مثل السيد المسيح عن الزارع والبذور .

ولقد أورد المولوى محمد على هذا التعليق فى تفسير الآية الكريمة :

وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ۝

وأورد تعليقا يقرب منه فى تفسير قوله تعالى :

إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ

وغيرهما من الآيات القرآنية التى تناولت حياة عيسى ابن مريم عليه السلام .

* * *

وبعد فهذا الكتاب مقصور على غرض واحد ؟ وهو جلاء العبقرية المسيحية فى صورة عصرية ، نفهمها الآن كما نفهم العبقريات على أقدارها وأسرارها وقد قل فيها نظير هذه العبقرية العالية فى تواريخ الأزمان قاطبة . ولا يزال هذا الغرض الحميد متسعا للتوفية والتجلية من نواح عدة ، فان كتب لنا أن نوفق لزيادة شىء إلى هذه الذخيرة القدسية ، فذلك حسبنا وكفى .

ولا حاجة بنا فى هذه الصفحات إلى إثارة الجدل فى مسائل لا ترتبط بالمقصد الذى قصدناه وقصرنا الرسالة عليه .

ولا نستطيع كما أسلفنا أن نقرر على وجه التحقيق من الناحية التاريخية كيف كانت نهاية السيرة المسيحية ، ولكننا نستطيع أن نقرر على وجه التحقيق أنها انتهت في موعدها حيث أسلمها التاريخ إلينا ، فقد كان ذلك الجيل آخر جيل قامت فيه دولة العصبية الدينية التي تحتكر هداية الله ورحمته لسلالة واحدة من أبناء آدم وحواء ، وأول جيل عمت فيه الدعوة إلى هداية إلهية تحيط بكل من يهتدى من بنى الإنسان ، فلم تنقض أربعون سنة حتى تداعت ديانة الاثرة العصبية وتداعى الهيكل الذى اعتصمت به وتجددت فيه ، ثم قامت للضمير الإنسانى دعوة حية تبسط نورها كما ينبسط نور الشمس لكل ناظر وكل متطلع ؛ ولحكمة ما الهم داعيها أن يتسمى كلما تكلم عن نفسه بابن الإنسان .

الغاية بعد كل ختام

فى إحدى روايات الكاتب الروسى العظيم — دستيفسكى — بطل من أبطال الرواية يتخيل أن السيد المسيح عاد إلى الأرض فى طوفة عابرة ونزل بأشبيلية فى إبان سطوة « التفتيش » فوعظ الناس وصنع المعجزات وأقبل عليه الضعاف والمرضى والمحزونون يلثمون قدميه ويسألونه العون والرحمة .

وأنه ليمضى بين الشعب يضفى عليهم حبه وحنانه ويبسطون له شكاياتهم ومخاوفهم إذا برئيس ديوان التفتيش — المفتش الأعظم — يعبر بالمكان ويتأمل السيد والشعب من حوله هنيهة ثم يشير إلى الحراس ويأمرهم أن يعتقلوه ويدعوه حجرة السجناء فى انتظار التحقيق .

. . ويأتى المساء فيذهب المفتش الأعظم إلى الحجرة ويقول للرسول الكريم : إننى أعرفك ولا أجهلك ، ولهذا حبستك ، لماذا جئت إلى هنا ؟ لماذا تعوقنا وتلقى العثرات والعقبات فى سبيلنا ؟

ثم يقول له فيما يقول : إنك كلفت الناس ما ليست لهم به طاقة . كلفتهم حرية الضمير ، كلفتهم مؤنة التمييز ، كلفتهم أن يعرفوا الخير والشر لأنفسهم ، كلفتهم أوعر المسالك فلم يطيقوا ما كلفتهم وشقيت مساعيهم بما طلبت منهم ... والآن وقد عرفنا نحن داءهم وأعفيناهم من ذلك التكليف ، وأعدناهم إلى الشرائع والشعائر ، تعود إلينا لتأخذ علينا سبيلنا وتحدثهم من جديد بحديث الاختيار وحرية الضمير ؟

ليس أثقل على الإنسان من حمل الحرية ، وليس أسعد منه حين يخفف عنه محملها وينقاد طائعا لمن يسلبه الحرية ويوهمه فى الوقت نفسه أنه قد أطلقها له وفوض إليه الأمر فى اعتقاده وعمله ، فلماذا تسوم الإنسان من جديد أن يفتح عينيه وأن يتطلع إلى المعرفة وأن يختار لنفسه ما يشاء ، وهو لا يعلم ما يشاء ؟

إنك منحتنا السلطان قديما وليس لك أن تسترده . وليس فى عزمنا أن ننزل عنه ، فدع هذا الإنسان لنا وأرجع من حيث أتيت ، وإلا أسلمناك لهذا الإنسان غدا وسلطناه عليك وحاسبناك بآياتك وأخذناك بمعجزاتك ، ولترين غدا هذا الشعب الذى لثم قدميك اليوم مقبلا علينا مبتهلا لنا أن نخلصه منك وأن ندينك كما ندين الضحايا من المعذبين والمحرقين .

قال إيفان كرامزوف بطل الرواية التى تتخيل هذا الملتقى وهذا الحوار : أن السيد المسيح لم ينبس بكلمة ولم يقابل هذا الوعيد وهذا العداء بعبوس أو ازورار ، وتقدم إلى المفتش الأعظم — وهو شيخ فان فى التسعين — فلثم شفتيه وخرج إلى ظلام المدينة وغاب عن الأنظار .

خلاصة لما تخيله الكاتب العظيم فى خطاب طويل مملوء بحكمة الحياة كما يراها الحكماء » من الطرف الآخر الذى يقابل الحكمة المسيحية : حكمة الرسول الكريم .

ولا نحسب أن الخيال فى هذا الخطاب العجيب بعيد من الحقيقة ولا نستبعد ما قاله المفتش الأعظم حين أنذر الرسول الكريم أن يسلمه لمن يثور عليه ويصب عليه الويل والغضب ، بعد أن أحاط به ولثم قدميه وتوسل إليه .

كلا . إن الخيال فى ذلك الخطاب العجيب غير بعيد من الحقيقة وأقرب شىء إلى طبائع الناس أن يصنعوا ذلك الصنيع وأن يتبعوا المفتش الأعظم فى نقمته على الرسول الكريم .

وأقرب شىء أن يكون ، لو عاد السيد المسيح إلى الأرض ، أن ينكر الكثير مما يعمل اليوم باسمه وأن يجد بين أتباعه كتبة وفريسيين ينعى عليهم الرياء ويعلمهم من جديد أن السبت للإنسان وليس الإنسان للسبت ، وأن العبرة بما فى الضمائر لا بما تفوه به الألسن ويبدو على الوجوه ، وأن الوحى الحى فى طوية الإنسان لا فى طوايا الكتب والأوراق .

أقرب شىء أن يكون أن ينعى على الناس ما نعاه قبل ألف وتسعمائة

سنة . وأن نجد إنسان اليوم كانسان الأمس فى شروره وعداوته ، وفى نفاقه وشقاقه ، وفى اعراضه عن اللباب وإقباله على القشور ، وفى استعلائه بالتقوى حين يتقى ، ولجاجه فى الجحود والعدوان حين يجحد ويعتدى ، خمرا جديدة فى زق قديم .

ذلك أقرب شيء أن يكون .

وأقرب شيء أن يقال إذا طاف بالخاطر ذلك الخيال ، أن يردد اللسان قول أبى العلاء :

تعب غير نافع واجتهـــاد لا يؤدى إلى غناء اجتهاد

فنيم يشقى المصلحون ، وفيم يهلك الشهداء ؟ وفيم يأتى الأنبياء ويذهبون ؟ وفيم اختلفت الديانات واصطرع عليها المتدينون ؟ فيم كل هذا ؟ فيم جاءهم رسول بعد رسول ؟ وفيم توالى التابعون بعدهم باحسان أو بغير إحسان .

جاءوا وعادوا :

وانصرفوا والبـــلاء بـــاق ولم يزل داؤنا العيـــــاء

لئن قيل هذا ليكونن أقرب ما يقال بعد تلك الحقيقة التى جاءت فى صورة الخيال .

ولكن الحقيقة الكبرى التى توزن بها جميع الحقائق هى أن الحقيقة لا ترى من جانب واحد ، ولا سيما الحقيقة التى تخلد على الزمن فى أطوار الإنسان منذ كان ، وتخلد معه أنى يكون .

ليست حرية الضمير مطلبا محدود المسافة ، يرحل إليه الإنسان ، ثم يصل إليه ويقعد عنه ، ويكف بعده عن كل عناء .

إنما حرية الضمير جهاد دائم وعمل دائب ، يتقدم فيه الإنسان شوط بعد شوط ، أو طبقة فوق طبقة ، ولا يفرغ من جهاده يوما إلا لينظر بعده إلى جهاد مستأنف ولا يودع الشر فى مرحلة من مراحله إلا ليلقاه ويجاهده ، ولن يلقاه فى سلام .

ومطالبنا المحسوسة تهدينا إلى القياس الصحيح فى هذه المشكلة ، وهى أولى بأن ندركها من المطالب الخفية التى تعتلج بالضمير وتبتدئ إلى العمل مرة حيث يرى مواقع خطوه ومرات حيث يبصر فلا يرى غير الحجب والظلمات .

منذ يقول إن عناء التعليم باطل إذا رأى الطفل يحمل الكتاب وهو فى الخامسة . ورآه يحمله وهو فى العاشرة ، ورآه يحمله وهو فى العشرين ثم فى الثلاثين ، ثم رآه مدى الحياة لا يستغنى عن علم ولا يقضى على الجهل كل القضاء .

منذا يقول إن عناء الطب باطل إذا رأى الناس يمرضون بعد علمهم بالجراثيم وبعد افتنانهم فى الطبابة ومواقع الدواء وموانع الشفاء .

منذا يقول إن الغاية عبث لأن الطريق إليها طويل ، أو لأنها غاية تتلوها غاية بلا انقطاع ولا اكتفاء ؟

لا نقول هذا فى محسوساتنا التى نلمحها ونلمسها ، فهل نقوله فى غاية كحرية الضمير هى سر الأسرار فى حياة الإنسان منذ كان وأنى يكون ؟ .

ليست العبرة أن الشر واقع . ولكن العبرة كيف ننظر إليه وكيف نواقعه أو كيف نتقيه .

وإذا وقع اثنان فى الشر ، فليس الذى وقع فيه وهو مستريح إليه مستزيد منه ، كالذى وقع فيه وهو مضطر إليه نادم عليه ، وليس الذى وقع فيه وهو يعلمه كالذى وقع فيه وهو يجهله ، أو يقف منه موقف المغالطة بين العلم والجهل وبين القصد والاضطرار .

إنما الإنسان غير الحيوان البهيم لأنه صاحب ضمير ، وإنما يقاس ضمير الإنسان بالقيم التى يقومها والمثل العليا التى يتمثلها ، والمطالب التى يطلبها وينالها أو لا ينالها ، وما دام المصلحون والرسل يغلون الإنسان قيمة يغلها ويرفعون أمامه مثلاً أعلى يتسامى إليه .. فهم عاملون ، وعملها لازم ، ونتيجته محققة ، وإن دام الشر ولم ينقص عدد الذنوب والجرائم بأرقام الإحصاء .

وإذا قلنا يوما أن الإنسان فى هذا العصر يطلب الخير ولا يدركه . فقد قلنا على اليقين إنه أفضل من الإنسان الذى كان لا يطلبه ولا يعرفه . وإن عمله غير مطلوب وغير معروف . كما يعمل الحيوان البهيم .

إنما تقاس الأديان بما تودعه النفوس من القيم والحوافز . وبما تزيده من نصيب الإنسان فى حرية الضمير أو فى حرية التمييز بين الحسن والقبيح ، وقد عملت الأديان كثيرا ولا تزال قادرة على العمل الكثير ، ولكنها لن تغنى الإنسان يوما عن جهاد الضمير .

كان جهلاء الناس فيما غبر ينتظرون ألف سنة يعم فيها الخير وينقطع فيها الشر ويمتنع الشقاء ولا يرى فى العالم يومئذ غير سعداء أبناء سعداء .

وكان « العارفون » يقولون عن هؤلاء إنهم جهلاء .

لكن هؤلاء العارفين أجهل منهم إذا اعتقدوا أن دينا من الأديان لم يعمل عملا ، ولم يكن غير عبث من العبث ، لأن الدنيا باق فيها الشر ، باق فيها البغى . باق فيها الكفران .

أى فرق بين العارفين الذين ينتظرون من الدين دنيا لا تعاب وبين الجاهلين الذين انتظروا السعادة المطلقة فى « الألفية » الموعودة آخر الزمان . بعد قرون تعد بالعشرات أو بالمئات ؟

لعل هؤلاء الجاهلين أقرب إلى التقدير الصحيح من أولئك العارفين ، لأنهم يفكرون وينتظرون « الألفية » .. وقد انتظرها الجاهلون بغير تفكير !

لو عاد السيد المسيح اليوم لوجد كثيرا يصنعه ويعيد صنعه ، ولصنع كثيرا بين أتباعه ومن يعملون باسمه ويتواصون بوصاياه ، ولكن الدنيا التى يصنع فيها الهداة صنيعا كثير خير من الدنيا التى لا موضع فيها لصنيع الهداة وجهاد الضمير .

ولن يختم المسيح العائد إلى الدنيا رسالة الخير والهداية ، فتلك هى شوط الضمير الذى لا ختام له ، وهو الغاية وراء كل ختام .

وسيعلم الناس فى العصر الحديث — إن لم يكونوا قد علموا حتى اليوم — أن عقيدة الإنسان شىء لا يأتيه من الخارج فيقبله مرضاة للداعى أو ممتنا عليه . ولكنها هى ضميره وقوام حياته الباطنية يصلحه . إن احتاج إلى الإصلاح . كما يصلح بدنه عند الطبيب وهو لا يمتن عليه ولا يرى أنه عالج نفسه لمرضاته . فالعقيدة مسألة الإنسان ، لا شأن للأنبياء بها إلا لأنها مسألة الإنسان ، وعليه إذا عالج إصلاحه أن يعالجها كما يعالج جزءا من نفسه بل كما يعالج قوام نفسه ، ولا يعالجها كأنها بضاعة يردها إلى صاحبها ويفرغ من أمرها ، فلا فراغ من أمر العقيدة إلى آخر الزمان .

* * *

الفهرست

مطبعة نهضة مصر

رقم الإيداع ١٦١٢




